أرض القانيليا

رواية

تأليف

عمر كمال الدين

obeikandl.com

طبعة ٢٠١٧

كمال الدين، عمر

أرض الفانيليا: رواية عمر كمال الدين .- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٤٢٠ ص, ٢٠ سم

تدمك: ٢ ٤٨٢ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

obeikandl.com

أرض

الفانيليا

رواية

تأليف

عمر كمال الدين

obeikandl.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٣١٤٦

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٨٢-٢

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : أرض الفانيليا

المؤلف : عمر كمال الدين

الغلاف : كريم آدم

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikandi.com

إهداء

إلى التي لم تأتِ بعد..

obeikandl.com

نستطيع أن ننسى الأشياء التي تمكث بعقولنا

ولكننا لا ننسى أبدًا من أحببناهم فهم يعلقون بقلوبنا

obeikandl.com

شكر خاص

الى

التي جعلتني أؤمن بأن الواقع بإمكانه أحيانًا أن يكون أروع من الخيال.

أعطت للرواية معنىً وغاية..

أكسبتها مذاقًا آخر.. مذاقًا بطعم الفانيليا.. .

obeikandi.com

obeikandl.com

شكر إلى

ميرنا خالد، كريم الشيخ، إيلا، فاطمة يوسف، شهد نزار، نادين فهد، أحمد أبو زيد، الطفل فارس أبو زيد، ميري نوبارت ، نادي كايرو سكوترز،أمير أشرف، منى فودة، مروة عبد اللطيف، كريم آدم،مي عبد العزيز.

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

حينما تراني، قد تظن أنني شخص عادي، مثل أي شخص ما بالعالم.. ولكنني.. لست كذلك..

فمنذ خمسة عشر عامًا وأنا لديّ فيما يعرف بفقدان الذاكرة قصيرة المدى وهو مرض نادر.

أتذكر الأشياء المهمة والأساسية فقط في حياتي، اسمي، سني، أهلي، عنوان منزلي، وظيفتي، وطعامي المفضل، إلخ.

ولكن الأشياء العادية التي تحدث كل يوم، أنا لا أتذكرها، سبع دقائق فقط، ثم يضيع كل شيء.

يقولون أن النسيان نعمة، ولكن حينما تنسى تمامًا أين ركنت سيارتك منذ دقائق، أو الميعاد الذي اتفقت عليه منذ ساعة، فأنت في ورطة! لا أعني هنا أن تنساه ثم تتذكر ذلك لاحقًا وتخبط جبهتك ثم تهرول للحاق بالميعاد، أو أن يضيء ذلك المصباح أعلى رأسك كأفلام الرسوم المتحركة، فتتذكر أين ركنت سيارتك، لا.. بل أعني أن تنساه كليًا، يُمحىَ من ذاكرتك كأن لم يكن! وليت الأمر بظرافة ما يحدث للسمكة دوري في فيلم البحث عن نيمو، بل هو الجحيم بعينه!

obeikandl.com

ولكن، لحسن حظي هناك حيلة ما تعلمتها لكي أحتفظ بذكرياتي للأبد، أعني مثل الناس الطبيعيين، كي تبقى في عقلي، ولا تذهب أدراج الرياح.

هذه الحيلة هي أن أكتب ما يحدث حولي، ما أريد أن أحتفظ به في ذاكرتي، لا يهم أن أحتفظ بما كتبته، أقصد الأوراق، أو صفحات الوورد على الحاسب، يمكنني أن أتخلص منها بعد ذلك.

لا أعرف كيف يتم ذلك، ولكن يبدو أنني عندما أكتب فأنا أقوم بطبع ذكرياتي على الورق ومنها تنطبع في ذاكرتي..

أعتبر أن ذلك ميزة في صالحي، فما أريده أن يبقى عالقًا في عقلي أكتبه، أكتب كل اللحظات المضيئة، اللحظات السعيدة التي أود أن أعيشها مرارًا وتكرارًا في مخيلتي.

أما اللحظات التعيسة والمؤلمة فما عليَّ إلا أن أنتظر مرورها كي تصبح شبح ذكرى، غير موجودة ولم أعشها من الأساس.

بهذه الطريقة يعمل عقلي كمصفاة، مصفاة للسعادة، هنا حقًا يصبح النسيان نعمة.

أنا «عايش نزار الحداد»، هذا أنا، وهذه قصتي، أكتبها الآن لكي أحتفظ بها للأبد..

الجـــزء الأول
حياة عايش

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول - إنها تمطر في يونيو
Chapter one - It's raining in June

الساعات الأولى من إحدى ليالي أغسطس.. الجو خانق، أشعر كأنني في ميكروويف كبير.

أنظر إلى التكييف القديم المثبت أعلى يسار نافذتي.. معطل منذ.. .. ..

حسنًا لا أعرف بالتحديد، ربما منذ ساعتين، يومين، أو منذ سنة.. أصب لعناتي عليه ثم أستوعب أنني مؤكدًا قد نسيت أن أتصل بخدمة العملاء، يجب عليَّ أن أدون ذلك قبل أن أنسى، أنظر مجددًا إلى شاشة الحاسوب أمامي.. أنفث ما تبقى من سيجارتي بها، انتقامًا أم مللاً؟ لا أعرف، في النهاية أقذف بعقب السيجارة من النافذة المشرعة على اتساعها في غير اكتراث.

بماذا كنت أفكر؟ تبًا.. نسيت..

موسيقى الجاز الخاصة ب «بول ديزموند» تنطلق من سماعات حاسوبي تنبعث في الغرفة تشعرني بأنني في أحد بارات سان فرانسيسكو الستينية، مقطوعة Stardust هي التي تُلعَب.

أحدِّق في صفحة الوورد المفتوحة أمامي في حنق مكبوت.

obeikandi.com

ساعتان وهي ماتزال بيضاء إلا من عنوان كبير يتوسط أعلاها إنها تمطر في يونيو»، لا أصدق كيف تصل بي الحماقة كي أنسى تدوين فكرة القصة التي توصلت إليها. أحاول التوصل إلى أفكار جديدة تتناسب مع ذلك العنوان ولكن بلا فائدة!

أعتقد أن عقلي قد صار خربًا.هل يعقل ذلك؟ بغض النظر عن ذلك الجزء الخاص بالذاكرة، أعرف أنه أصبح أكثر من خرب، ولكن أنتم تعرفون ما أقصد! أنا أكتب منذ خمس سنوات، كيف ينفد المخزون هناك، أعلى كتفي، في ذلك الصندوق المكور المسمى برأسي؟ كيف؟!

ربما لم أكن موهوبًا كفاية على أي حال، ربما.. آه نسيت أن أخبركم، أنا كاتب قصص قصيرة في إحدى الصحف الإلكترونية، ليست بالوظيفة العظيمة، ولكنني أتقاضى أجرًا جيدًا نظير ما أكتبه.

أنقل بصري إلى المكتب أمامي، أكواب الشاي المتراصة ال «تقريبًا» فارغة..

المِطفأة التي تمتلئ عن آخرها بأعقاب السجائر.. أوراق.. كتب.. كروت تعريف بكاتبين وناشرين وفنانين وصُحافيين، عشرات أغلفة السكاكر الفارغة، جيش من عبوات الكاتشب

الممتلئة، وأنصاف علب بسكويت مملحة، أصبحت لديّ تلك العادة الغبية في عدم إنهاء علب البسكويت المملح! وذلك لأنني حالما أبدأ في تناولها أنسى تمامًا أنني فتحت العلبة من الأساس بالطبع!

قنينات البيبسي والميرندا البلاستيكية الموضوعة على الأرض أسفل المكتب، ممتلئة أرباعها بالماء، تصطدم قدمي بإحداها فتقع جميعها أرضًا وكأنها قوارير بولينج.

أتأفف..

في الزحام أرى هاتفي الذي يحتضر ببطء.. أوشكت بطاريته على النفاد.. يستصرخني بتلك الصافرة المسكينة، لم أشحنه برغم أن الشاحن يجثم تحت قدميَّ بجانب قطي الأبيض سكر.. تعرفون بالطبع لمَ لم أشحنه؟.. لا لم أنس، فذلك بالطبع من الأشياء الأساسية، أنا فقط لا أهتم بأن أشحنه، خدعتكم!

أين علبة السجائر؟ أتساءل.. أفتش عنها بين الزحام على المكتب، تبًا إنها فارغة!..

عليكم أن تعتادوا على ذلك الكابوس الذي أعيشه، يجب أن أشتري واحدة جديدة.. يجب..

أعود بناظري إلى الشاشة من جديد.. أنفخ في ضيق.. أغلق صفحة الوورد، يسألني هل تريد حفظ ما كتبت؟ أنا لم أكتب

شيئًا.. هل يسخر مني البرنامج؟ أضغط نعم على أي حال.. أضغط على أيقونة الجوجل كروم، ومنها أدخل إلى صفحة الفيسبوك، أنظر أعلى يمين الصفحة، تنبيهان ورسالة جديدة على شكل تلك المربعات الحمراء الأنيقة، يبتسم نصف وجهي الأيمن في ذبول..

أضغط على التنبيهات الجديدة.. دعوة من أحد أصدقائي للعبة كاندي كراش، يريد أن أرسل له محاولة إضافية.. و لكن أنا لا ألعب تلك اللعبة! أعتقد ذلك، حسنًا لا أستطيع أن أتذكر، لحظة.

عليَّ أن أدون ذلك الآن، أنزع مذكرة لاصقة من الدفتر أمامي وأكتب عليها: أنا لا ألعب كاندي كراش! الآن صرت أتذكر أنني لا ألعب تلك اللعبة الغبية!

أكرمش الورقة وأرمي بها في سلة القمامة الممتلئة عن آخرها بمئات من الأوراق المكرمشة، تبًا! عليَّ أن أتخلص منها، أنزع ورقة أخرى وأكتب عليها: تخلص من القمامة! وأكرمشها وأرمي بها في السلة هي الأخرى. لمَ لم أدون شيئًا بتلك الأهمية من قبل؟!

التنبيه الآخر كان من الفيسبوك يشير إلى أن خمسة من أصدقائي أعياد ميلادهم اليوم، لا أهتم.. أنا لا أعرفهم.. أقصد

لا أتذكرهم، ولا يشكلوا أدنى أهمية في حياتي، فأنا ليس لديّ أصدقاء، ربما كانوا معجبين أو متابعين لكتاباتي على الأرجح.

أفتح مربع الرسالة الأحمر، من فتاة تدعى ليلى، من دون أن أفتح الرسالة أقرأ « إنت ما بتردش ليه على موبايلك؟»

أتفحص هاتفي الصامت بعينيَّ «ليلى تتصل بك» بعد ثوانٍ تختفي الجملة لتظهر بعدها جملة أخرى « ١٣ مكالمة فائتة» ثم تنطفئ الشاشة تدريجيًا ليغيب الهاتف بعدها عن الوعي تمامًا.

إذن إنتِ السبب في موت هاتفي المؤقت الليلة.. أهرش رأسي متسائلاً: من هي ليلى؟

تزمجر معدتي في غضب، أشعر بالجوع.. أتحسس بطني وكأني أطمئنها، تعتقدون أنني سأنزع ورقة أخرى وأكتب عليها أنا جائع كي أذهب إلى المطبخ، لا.. فقد قمت بتدوين كل تلك الأشياء المهمة من قبل، منذ أن تعلمت تلك الحيلة.

كمثال: حينما تجوع، اذهب إلى المطبخ، حينما تشعر بالحاجة إلى الذهاب لدورة المياه، اذهب!

وهكذا.. صار الأمر أوتوماتيكيًا بالنسبة لي كعادة كل الناس الطبيعيين..

وصرت أسمي تلك الأشياء: الأساسيات.

أنهض متجهًا إلى المطبخ.. أفتح الثلاجة.. فارغة، إلا من طبق به قطعة جبن أبيض صغيرة ترتعش في خوف وهلال ضئيل من البطيخ، أمد يدي إليه، أقضم قطعة كبيرة، يع! حامض!

ها أنا مرة أخرى أنسى أن لا شيء في الثلاجة، وأن ذلك الهلال حامض، ألاحظ ثلاث قضمات سابقة تدل على ذلك. أبصق ما بفمي في صندوق القمامة مصحوبًا بهلال البطيخ الحامض الذي أفلته من يدي، أتمضمض في الحوض.. وأنزع ورقة لاصقة من الدفتر أعلى الميكروويف وأكتب عليه: يجب أن أشتري طعامًا.. الثلاجة فارغة!، أكرمش الورقة وأرمي بها في صندوق القمامة لتلحق بهلال البطيخ الحامض.

وأعود من جديد إلى الثلاجة المفتوحة متأففًا.. مازالت فارغة.. أغلق بابها.. أفتح الفريزر..

كيس ثوم مجمد، كيس حليب مجمد.. أكياس خضار ولحوم مجمدة.. لا شيء ينفعني..

علبة برجر! يفتر ثغري عن ابتسامة خائفة.. أمد يدي متناولاً العلبة، خفيفة جدًا.. أهزها بجانب أذني مصغيًا في اهتمام.. شيء ما يتحرك داخلها.. بعين مغلقة وعين نصف مفتوحة ألقي

النظر داخلها.. قطعة برجر يتيمة تختبئ بالداخل.. ممم حسنًا.. أفضل من لا شيء!..

بعد قليل كنت قد قمت بتحميرها، واضعًا إياها في طبق بجانب قطعة توست وجدتها تائهة في كهف الفريزر، ملأت كوبًا من الماء، وضعت به ثلاث قطع من الثلج وعدت به هو والطبق إلى غرفتي، جلست إلى المكتب واضعًا الكوب والطبق أمامي، ناظرًا إلى قطعة البرجر بلا مشاعر، أعتقد أن معدتي قد آلت إلى النوم، لم أعد جائعًا.. أنظر إلى قطي « سكر « الذي استيقظ للتو، يتمطى ويتثاءب في كسل ناظرًا إليَّ في استعطاف، أنقل بصري بينه وبين قطعة البرجر، ثم أقرر أن أضع له الطبق أرضًا وأنا أشاهده في ترقب، يقترب هو من قطعة البرجر يشمها في توجس ثم ينقض عليها ليلتهمها في تلذذ.

أشرب كوب الماء ثم أعود من جديد إلى صفحة الفيسبوك أمامي، أقوم بتحديثها ثم أنتقل للأسفل بالفأرة، مشاهدًا المشاركات..

أحدهم تزوج الليلة، يضع صورة لقبضته موجهًا إياها للكاميرا بجانب قبضة عروسه يزينهما خاتما الزواج.. أنتقل للأسفل..

obeikandl.com

إحداهن تشعر بالحزن وبجانب ذلك تكتب « وحشتيني قوي يا ماما، سنة من غيرك عدت زى سنين».. أنتقل للأسفل..

أحدهم يضع صورة شخص ملتحي وبأسفل الصورة مكتوب « الحرية لأحمد شكري».. أنتقل للأسفل..

أحدهم قد وضع منشورًا يحتوي على دعابة، أقرأها وأضحك، أضحك أكثر.. أنتقل للأسفل..

سيلفي لمجموعة من الفتيات كلهن يشبهن بعضهن البعض.. تتلاصق خدودهن ناظرات إلى الكاميرا في نظرة ذات مغزى إغرائي، يمططن شفاههن فيما يعرف ب «بوز البطة»، تعلو الصورة جملة « بحبكم يا كلاب».. أنتقل للأسفل..

أحدهم يشعر بالفخر (لا أعلم لماذا) كاتبًا « إتكلم عليا في وشي أحسن ما تتكلم عليا في ضهري! #مقصودة « .. .مممم أنتقل للأسفل..

عن ماذا كنت أضحك؟ هل جننت؟

إحدى الممثلات تضع صورة لها في غاية الإثارة تعلوها حكمة في غاية العُمق بالإنجليزية..

حصدت الصورة على أكثر من ألف إعجاب والعديد من التعليقات لرجال تجاهلوا الحكمة المكتوبة متغزلين في أنوثة الممثلة الطاغية المتمثلة في عينيها، صدرها، قدميها و.. لا داعي لذكر المزيد.. على أي حال.. ما الذي جاء بصورة الممثلة وصفحتها إلى صفحتي الشخصية؟ أنا لم أكن أبدًا من متابعيها.. أعبث في ذاكرتي لأتأكد.. لن أتذكر على أي حال.. أضغط عدم إعجاب في صفحتها وأغلق الجوجل كروم. أفتح صفحة الوورد من جديد، ناظرًا إلى العنوان الكبير أعلى الصفحة «إنها تمطر في يونيو».

ممم أشعر بالحاجة إلى سجائر..

بالطبع لا أحتاج أن أنزع ورقة وأكتب عليها: أحتاج إلى سجائر.. فذلك الشيء من «الأساسيات». أنهض باحثًا عن مفاتيح شقتي على المكتب، أنتشل الميدالية بعد دقيقة من البحث داخل ذلك الزحام، وأتناول ثلاثين جنيهًا من حافظة نقودي، ودفتر الأوراق اللاصقة، أرتدي خفًا من البلاستيك ثم أتجه إلى باب الشقة مغادرًا إلى المصعد..

بعد قليل أكون على وشك الوصول بالمصعد للطابق الأرضي حينما أنظر إلى نفسي في المرآة..

أكتشف أنني عاري الصدر، لا أرتدي شيئًا إلا سروال قصير «شورت»..

يصيبنـي الهلـع، يصـل المصعـد إلـى وجهتـه الطابـق الأرضـي مطلقـًا تلـك الموسـيقى الغبيـة.

أتشبث ببابه كي لا يفتحه أحد ويرى تلك المهزلة، أضغط على زر الطابق الحادي عشر عدة مرات بعصبية شديدة حتى يستجيب صاعـدًا إلـى الأعلـى مـن جديـد، أصـل شـقتي، أدخـل غرفتـي.. ولا أعـرف مـا الـذي أعادنـي هنـا مـن دون أن أشـتري السـجائر.. مصيبـة..

أعـود أدراجـي إلـى المصعـد، فأكتشـف أننـي عـاري الصـدر، آه هـذا إذن مـا جعلنـي أعـود إلـى البيـت، أخـرج دفتـر الأوراق اللاصقـة، أنـزع ورقـة وأكتـب عليهـا: ارتـدي شـيئًا، أنـت عـارٍ!

أعـود إلـى شـقتي مـن جديـد، أرتـدي تـي شـيرتًا صيفيًـا خفيفًـا بلـون الـكاكاو ثـم أنطلـق مـن جديـد.

في الشـارع، الأضـواء خافتـة، ولا أي صـوت ل» صريـخ ابـن يومـين» حتـى، لحظـة! عـواء كلـب صغيـر أعتقـد أنـه جائـع.

الجـو ألطـف بكثيـر مـن غرفتـي، نسـمات الهـواء القادمـة مـن ناحيـة البحـر تجعلنـي أريـد أن أتمـدد علـى الأسـفلت وأغفـو، أركل الفكـرة مـن عقلـي، أغلـق بابـه وأتجـه للسـوبر ماركـت، أشـتري علبـة سـجائر وعبـوة شـيكولاتة وكيـس مـن الشـيبس، تبقـى نصـف جنيـه أعطانـي البائـع بـه قطعتـيّ علكـة.

أتمشى حتى أصل إلى باب بنايتي، ثم أقرر أن أمكث قليلاً بالشارع، أدخن سيجارة أو اثنتين ثم أعود إلى شقتي. استندت إلى إحدى السيارات فانطلقت منها صافرة إنذار وكأنها تعلن استياءها مني. أحدهم يسب ويلعب من إحدى النوافذ بالطابق السابع، لابد أنه صاحب السيارة، أنظر إليه مشيرًا بيدي أن اهدأ، يشيح بيده مطلقًا سبة بذيئة أخرى ثم يختفي إلى الداخل، لابد أن تلك ليست أول مرة أفعلها أنا.

افترش الرصيف واضعًا كيس مشترياتي جانبًا، أشعل سيجارة نافثًا دخانها إلى السماء في ملل، ثم أنزع ورقة جديدة وأكتب عليها: لا تستند إلى السيارات، سيشتمونك..

●●●

onelkandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني- الكثير من المذكرات اللاصقة

Chapter Two – lots o' sticky notes

بعد قليل كنت في غرفتي، خلعت التي شيرت وألقيت به فوق جبل الملابس على السرير.

عليَّ أن أقوم بتنظيف الغرفة يومًا ما.. يومًا ما سأفعلها، أو سأتزوج.. قلت لنفسي بصوتٍ عال.

لن أكتب مذكرة بذلك، أعني بشأن الغرفة أو الزواج، فليذهب كلاهما إلى الجحيم.

لعلكم تتساءلون كيف تذكرت أن أعود إلى منزلي مجددًا، كما قلت لكم من قبل، عنوان منزلي من الأشياء الأساسية التي لا أنساها أبدًا، أما عن قرار العودة نفسه فهو من «الأساسيات».

ودونت الكثير من القرارات المماثلة تلك أيضًا، على شاكلة:

١. حينما تخرج ارتدي حذاءً (عليَّ أن أكتب مذكرة مماثلة بشأن التيشرت والبنطال)

٢. حينما تستيقظ من النوم استحم.

٣. اغسل يديك قبل الأكل وبعده (أقسم أنني لا أمزح!) هذا ليس

obeikandi.com

الغلاف الخلفي لكتاب مدرسي لمادة الجغرافيا ولكنني أحتاج إلى تذكير نفسي بأشياء بسيطة كتلك.

و هكذا..

ولكن كل هذا يعتبر لا شيء بالمقارنة بأشياء أخرى يعتبر تدوينها أمرًا مرهقًا، مرهقًا للغاية!

ولكن يجب أن أدونها لكي لا أصبح شخصًا غريبًا عن بقية الناس، هل أعطيكم أمثلة؟ حسنًا:

١. موضة الملابس هذا الموسم هي القمصان واسعة الأكمام (كان هذا منذ عدة سنوات وأحمد الله أن تلك الموضة انتهت)

٢. الفتيات والرجيم قصة لا تنتهي. (أذكر أنني رأيت منشورًا لفتاة كتبت أنها تحتاج إلى المشي من محافظة لأخرى لكي تحرق سعرات ما تأكله من شيكولاتة ومياه غازية في اليوم الواحد).

٣. هناك بعض الكلمات الجديدة التي ظهرت مؤخرًا مثل:

١. هانخربها: بمعنى أننا سنقوم بالاستمتاع بوقتنا بكل الوسائل الممكنة.

٢. جاحد: وهي ليست بمعناها اللغوي الصحيح كناكر للجميل ولكنها تعني هنا رائع!

٣. تحفيل: أي بمعنى الذم من الشخص بطريقة كوميدية تجعله يطلق النار على نفسه في النهاية كي يستريح من ذلك ال «تحفيل».

وهكذا مجددًا..

أجلس إلى مكتبي، أفتح المتصفح مرة أخرى، (الجوجل كروم)، الفيس بوك، أشعل سيجارة جديدة وانتظر تحميل الصفحة، تبًا لشركة الإنترنت..

ألمح ذلك الإشعار باللون الأحمر أعلى الصفحة.. رسالة جديدة، كانت الرسالة من فتاة اسمها ليلى، من ليلى؟ فتحت صندوق الرسائل لأراجع محادثتنا سويًا؛ علَّني أجد ثغرة ما أو كلمة تنبهني إلى هوية تلك الفتاة.. بلا جدوى، كل الرسائل ذات اتجاه واحد يأتي منها فقط، رسائل على غرار: إنت فين؟ مش ناوي ترد على موبايلك؟ يا ندل! يا جبان! يا حيوان!

قمت بالدخول على صفحتها الشخصية ولكنها كانت مقفلة بداعي الخصوصية ولم أستطع أن أتبين أية معلومة منه، هل قامت بإزالتي من قائمة أصدقائها؟ أم لم تضيفني أبدًا من الأساس!

فكرت أن أضيفها ولكن تراجعت في اللحظة الأخيرة.. أنا لا أعرفها، أقصد لا أتذكر من هي.

نزعت ورقة جديدة وكتبت عليها، حاول أن تعرف من هي ليلى، إنها ترسل الكثير من الرسائل وتتصل العديد من المرات، وتنعتك بأبشع الصفات.

استلقيت على السرير وأنا أعتصر مخي محاولاً معرفة تلك الفتاة، وبعد ساعة من التفكير شعرت بالظلام يلف دماغي والنوم يحاصرني ومازالت موسيقى « بول ديزموند « تلعب خارجة من سماعات حاسوبي.

نعم، أعرف ما يدور في عقولكم، بول ديزموند أصبح من الأساسيات.

●●●

في عصر اليوم التالي استيقظ وأتذكر فورًا ما حدث ليلة أمس فيؤلمني مخي وكأنه يتذكر تعذيبي له محاولاً معرفة تلك الفتاة، الصداع يزحف داخل خلاياه، يجعلني أشعر وكأن هناك شخصًا ما ينزع الأسلاك الموصولة داخل دماغي يتلفها الواحد تلو الآخر.

«شاي» برقت الكلمة في ذهني فنهضت ببطء متجهًا إلى المطبخ، ملأت ما يسمى بـ « الكاتل» بالماء وقمت بتشغيله.

ملحوظة: نعم، الشاي من الأساسيات.

بعد قليل كنت أرتشف الشاي في شرفة شقتي وأنا أنفث سيجارة أخرى، أوشكت العلبة على النفاد، يجب أن أشتري واحدة جديدة اليوم. أنزع ورقة من الدفتر وأكتب عليها: تحتاج أن تقلع عن التدخين.

يجب عليَّ أن أعقد جلسة مع نفسي وأدون العديد من الأشياء وأضمها للأساسيات. هكذا سأوفر عليها الكثير، سيحتاج الأمر إلى وقت ولكن في النهاية سأقوم بعمل كل شيء بدون الحاجة إلى تلك الأوراق.

أنظر إلى أصص النباتات المتراصة في الشرفة وأتذكر أن عليَّ سقايتها اليوم، ألتقط قنينة ماء بلاستيكية من على الأرض وأنهي المهمة في نصف دقيقة، ثم أستدير مواجهًا التقويم اليومي المعلق على جدار الشرفة، أشطب يومًا جديدًا مذكرًا نفسي بأنني سقيت النباتات اليوم.

أنهيت السيجارة وقدح الشاي وذهب الصداع أخيرًا.. أطفأت السيجارة في قدح الشاي وعدت إلى غرفتي، التقطت قلمًا من على مكتبي واتجهت إلى التقويم الكبير المعلق بجانب النافذة أشطب على يومٍ جديد- أمس - يجب أن أفعل ذلك وإلا سأنسى ما هو اليوم.

●●●

في السابعة مساءً أجلس أمام التلفاز، أنتظر مباراة برشلونة وإشبيلية في الدوري الأسباني. بالطبع قمت بتدوين مواعيد المباريات جميعها من قبل أن تبدأ البطولة.

برشلونة هو فريقي المفضل، الأهلي أيضًا هو فريقي المصري المفضل.

تزمجر معدتي، أنا لا أتذكر أنني تناولت شيئًا منذ ليلة أمس.. أقرر أن أطلب بيتزا.. أدون ذلك.

أتجه إلى هاتفي المحمول، أقوم بتنشيطه، لا يستجيب، أهزه يمنةً ويسارًا.. لا شيء.. لابد أنه فقد الوعي، أقوم بإيصاله بالشاحن، يبدأ في العمل وبعد دقيقة أقوم بالاتصال بالمطعم، أتلقى ردًا بتأكيد اسمي وعنواني ورقم هاتفي.. إلخ، ثم أقوم بطلب بيتزا دجاج بالباربكيو من دون فلفل أخضر، أعود إلى جلستي أمام التلفاز منتظرًا المباراة التي ستبدأ بعد أقل من ساعة..

بعد نصف ساعة تصل البيتزا، أقوم بمحاسبة عامل التوصيل وأجلب علبة مياه غازية من الثلاجة وأعود حاملاً إياها وعلبة البيتزا إلى غرفتي.. (هذه أشياء قمت بطبعها في ذاكرتي من قبل)، أبدأ في تناول طعامي حينما تبدأ المباراة.. مهلاً.. أعرف ما يدور في عقولكم الآن..

كيف تتابع مباراة أنت بالكاد تتذكر ما يحدث بها؟

سؤال لطيف، ولكن أنا فقط أتابع المباراة مستمتعًا بالدقيقة التي تمر كل على حدة،

أما بخصوص النتيجة فأنتم تعرفون أنها تظل ظاهرة أعلى الشاشة طوال المباراة.

لنكمل ما كنت أفعله.. هلا فعلنا؟

بعد عشر دقائق كنت قد التهمت نصف البيتزا حينما باغتني صوت المعلق «جوووووووووووووووووول.. حرقهم، كواهم.. سجل في مرماهم»، كان الهدف قد سُجِّل في شباك برشلونة، يا لخيبة الأمل.

ظللت أتابع المباراة آملاً أن تقوم برشلونة بالتعديل ثم الفوز، ولكن بلا فائدة.

انتهت المباراة بخسارة برشلونة صفر إلى واحد، نزعت ورقة جديدة وكتبت عليها: انتهت المباراة بين برشلونة وإشبيلية و..

توقفت عن الكتابة قائلاً لنفسي: هذه من اللحظات التعيسة التي لا أرغب في الاحتفاظ بها، لن أدونها، كرمشت الورقة وألقيت بها في سلة القمامة، ثم أطفأت التلفاز، في خلال دقائق سوف أنسى تمامًا ما حدث بالمباراة.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث – بط بالبرتقال
Chapter Three - Duck A l'Orange

بعد دقائق.. استلقي على السرير.. قررت أن أشاهد التلفاز لأقتل الملل. أجلس مبدلاً بين القنوات، قنوات أفلامي المفضلة تعرض أفلامًا أجنبية قديمة، القنوات الأخرى تعرض أفلامًا عربية قديمة من نوعية أفلام المقاولات..

لحظة! ربما تتساءلون هنا كيف سأتابع فيلمًا وأنا أعرف مسبقًا أنني سأنسى أي مشهد بعد المشهد التالي له، حسنًا ذلك لا يهم، أنا فقط أحاول الاستمتاع بالمشاهد كاسكتشات منفصلة، مجرد مضيعة للوقت ليس أكثر! ما عدا ذلك الفيلم "Memento" الذي دونت أحداثه بالكامل لأن بطل الفيلم يصاب بنفس مرضي ويحاول طوال الفيلم البحث عن قاتل زوجته وسط تلاعب الجميع به. حسنًا، لنعد إلى ما كنت أفعله.. أقلب وأقلب.. أفلام ومسرحيات ثمانينية سمجة..

أقلب وأقلب.. إعلانات لمفروشات وأطقم حلل وغيرها من تلك الإعلانات التي يقف فيها إثنان من الرجال يعرضان سلعةً ما بطريقة «قرب قرب قرب.. بـ اتنين ونص، وتعالى بص»..

obeikandl.com

إعلان آخر عن منتج يعالج تساقط الشعر، ليست تلك هي المشكلة.. المشكلة هي أن مقدم الإعلان رجل أصلع.. أصلع تمامًا.. تلك الصلعة التي يمكنك أن ترى وجهك فيها!

أقلب وأقلب.. آه.. إحدى قنوات الطعام والطبخ.. ما المانع؟

كان برنامجًا يقدمه أحد الطباخين الشهيرين على ما يبدو، لأن إعلانات رعاة البرنامج كثيرة وقوية، ما اسم ذلك الطباخ؟ بالطبع لا أتذكر! ذو ملامح تشبه ملامح المصارعين، أصلع نسبيًا، يرتدي عوينات طبية باللون الأحمر، وذلك القميص الأبيض الخاص بالطباخين أو الشيفات، ذو خطوط حمراء تتناسب تمامًا مع لون عويناته الطبية، ولون تلك الساعة التي تحاصر ساعده الأيمن، كان يقوم بصنع طبق المعكرونة بالجمبري حينما اتصل أحدهم يصرخ:

«بنحبك قوي يا شيف!، والله بنحبك بقى!»

اعتلىَ الفخر ملامح الشيف مصحوبًا بابتسامة بلهاء ودونما أن يحرك رأسه ناحية الكاميرا رد عليه وهو يقول « ربنا يخليك يا حبيبي وأنا كمان بحبكم والله «

رد المتصل بنفس الصوت الصارخ « عايزين.. .عايزين نعرف طريقة عمل ال.. معايا يا شيف؟

الو؟ الو؟»

كان كل ما يقوله يتكرر صداه أكثر من مرتين مما دعا الشيف إلى ترك ما كان منهمكًا في عمله مواجهًا الكاميرا مشيرًا بيديه وكأنه يدير مفتاح سيارة قائلاً « وطي الصوت شوية حضرتك « . لا أعرف لماذا لا يزال الجميع يظنون أن التلفاز يعمل بمثل تلك الطريقة؟

يرد المتصل ثانيًا « سامعنى يا شيف؟ الو الو»

علقت بملامح الشيف تلك النظرة الجامدة وكأنه سينفجر في أية لحظة، ثم عاد إلى ما كان يفعله قائلاً « واضح أن الاتصال اتقطع، المهم بعد ما نسلق المكرونة نحطها في المصفاة، شايفين الجمال؟ يا حبيبي يا رسول الله»

لا أعرف العلاقة بين المعكرونة بالجمبري وسيدنا النبي، ولكن من المؤكد أن ذلك الرجل يعرف تمامًا، فهو يكرر تلك الجملة كثيرًا.

أنهض من رقدتي لأجلس إلى المكتب محاولاً الكتابة من جديد، علَّني أحاول فك طلاسم عقلي.. ربما أكتب شيئًا مفيدًا الليلة، أفتح صفحة الوورد إياها ذات العنوان الكبير « إنها تمطر في يونيو «، وأجلس محدقًا بها ساندًا ذقني إلى يديَّ الاثنتين. تمر الدقائق وأنا على تلك الحال دون أي حرف يصطاده عقلي.

أمسك هاتفي أحدق فيه ببلاهة ثم ألقيه على السرير، أسقط رأسي على المكتب واضعًا خدي عليه وكأنه وسادة، تاركًا ذراعاي يتهدلان بجانبي في استسلام، أغمض عينيَّ وأنا أسمع صوت أحدهم في التلفاز، لا أعرف من وما هو ذلك البرنامج أو الفيلم، كان صوته يتداخل مع أفكاري قائلاً « ودلوقتي هاشرح لكم طريقة عمل البط بالبرتقان».

●●●

obeikandl.com

الفصل الرابع – نجوم مفقودة
Chapter Four – Lost Stars

استيقظ بعد ساعتين ناظرًا حولي في عدم فهم، أتثاءب في كسل، ثم أنظر إلى ساعة الحاسوب لأجدها السادسة صباحًا، أفتح حساب الفيسبوك لأجد إشعارًا جديدًا، قمت بالنقر عليه لأجد الفيسبوك ينبهني بذكريات ذلك اليوم في الأعوام السابقة، على غرار برنامج «حدث في مثل هذا اليوم». أقلب سريعًا بين تلك المنشورات أو الأحداث، لا أجد شيئًا مهمًا أو مسليًا حتى، في الحقيقة أنا لا أتذكر أي شيء من تلك الأحداث، أقلب في الصفحة الرئيسية، ملل..

أقرر أن آخذ دشًا باردًا.. و بدون تردد، أنهض تاركًا الحاسوب متجهًا إلى الحمام..

(الدش من الأساسيات، لا داعي لتذكيركم بذلك!)

تاركًا الماء البارد ينهمر على رأسي متسربًا إلى بقية جسدي، أغمض عينيَّ وأفكر..

من أنا، ماذا أفعل، كيف هو غدي؟ وهل سيكون هناك من غد؟ وهل سأكون وحيدًا، أم سأجدها، رفيقة الدرب، شريكة

openkanadi.com

العمر، شبيهة الروح. بغض النظر عن تلك المسميات الإكليشيهية، أنا فقط أفكر.. هل سأجدها؟ وكيف ستكون؟ بيضاء؟ سمراء، شقراء.. مثقفة، عاقلة.. غبية.. مجنونة.. أم متمردة!

وهنا تصدمني الفكرة.. هل ستقبل تلك الفتاة بمرضي وبما أنا فيه؟ أعني هل ستستطيع هي أن تتأقلم مع ما أعانيه؟ بل السؤال الأهم، هل سأستطيع أنا أن أتأقلم بما أعانيه معها؟

أنا بالكاد أتأقلم مع نفسي ومع ما يحدث في حياتي، أحتاج إلى كتابة أحداث يومي كي أتذكرها..

فكيف سيكون الحال إذا صرنا اثنين؟ يا إلهي.. الأمر معقدٌ جدًا.. كيف سأدون ما تفعله هي كي أتذكره. الأمر شبه مستحيل.. وماذا بشأن الأطفال.. الأمر أشبه بكابوس.. يا إلهي أنا أهذي.. أعتقد أنني لا أصلح لحياة عائلية طبيعية.. أعتقد أن.. .تبًا.. انقطعت الماء.. ممتاز.. هذا ما كان ينقصني..

●●●

أرتدي ملابسي وأقرر أن أغادر المنزل..

أحتاج أن أكتب ما سأفعله هذه المرة لأنني سأذهب إلى عدة أماكن ولا أريد أن أجد نفسي في مكانٍ ما دون أن أدري ما أفعله هناك. أنزع ورقة لاصقة جديدة، وأكتب عليها، سأذهب إلى

البحـر، أتمشـى قليـلاً، أتنـاول إفطـاري في أي مطعـم يقابلنـي، ثـم أعـود. أكرمـش الورقـة وألقـي بهـا في سـلة القمامـة..

مفاتيـح منزلـي، هاتفـي، سـماعات الـرأس، سـاعتي، نقـودي.. ألتقطها جميعًا من على المكتب ثم أعيد السـاعة والهاتف وألتقط الآيبـود بـدلاً منـه، لا أريـد أي شـيء يبقينـي مرتبطًـا بالزمـن أو النـاس، أذهـب إلـى المطبـخ يتبعنـي سـكر رافعًـا ذيلـه إلـى الأعلـى إشـارة إلـى غضبـه، ربمـا لأننـي نسـيت أن أطعمـه.

أتنـاول علبـة طعامـه مـن فـوق أحـد الرفـوف، أهزهـا، شـبه فارغـة، لابـد مـن مشـوارٍ إلـى مترو ماركت، أضـع لـه مـا تبقـى مـن العلبـة في طبقـه، لا أكاد أفـرغ مـا بالعلبـة حتـى ينقض علـى الحبـوب المجففـة في نهـم، يـا لـك مـن مدمـن! أتمنـى أن أعـرف مـا يضعونـه للقطـط المسـكينة في تلـك الحبـوب، يجعلونهـم كالزومبيـز، تواقـين إليهـا مـن دون تفكيـر.

أربت عليه ثم أغادر المنزل.

●●●

البحـر ليـس ببعيـد عـن منزلـي، أسـتطيع أن أراه مـن شـرفتي، ولكـن ليـس مـن هنـا، مـن الشـارع.

أمشـي متجهًـا ناحيتـه واضعًـا يـديّ ـ في جيـوب سـروالي ـ في غيـر اكتـراث. أقتـرب كثيـرًا مـن البحـر، تصلنـي رائحتـه مدغدغـة أنفـي، أعبـئ رئتـيَّ عـن آخرهمـا مسـتلأ نفسًـا عميقًـا ثـم أبتسـم مغمضًـا عينـيَّ في حبـور تـام، تتسـارع خطواتـي تلقائيًـا وكأننـي منـوم مغناطيسـيًا.

الطريـق شبه خاويـة، إلا مـن بعـض المـارة الذاهبيـن إلـى أعمالهم، وبعـض السـيارات العائـدة معظمهـا مـن ليلـة صيفيـة سـاخنة! إذا كنتـم تفهمـون مـا أقصد.

أصـل إلـى الكورنيـش، تضربنـي نسـمات البحـر فيهتـز قلبـي راقصًـا، أقفـز متجـاوزًا السـور الفاصـل بـين الشـاطئ ورصيـف الكورنيش متجهًـا إلـى البحـر، أمشـي بمحـاذاة الشـاطئ علـى الرمـال المعجونـة بمائـه، يسـاعدني حذائـي الرياضـي علـى ذلـك. أضـع السماعات الواصلة بالآيبود في أذنـيَّ، وأقـوم بتشـغيل قائمـة الأغانـي لتلعب عشـوائيًا. تبـدأ في اللعب أغنيـة Shooting Star لـOwl City.

لا أواجـه مشـكلة مـع الأغانـي، أعنـي تذكرهـا، بـل بالعكـس، الجميـل هنـا أننـي أسـتمتع بالأغانـي مادامـت أقـل مـن سـبع دقائـق، ثم.. ثـم أنسـاها تمامًـا! ومـن ثَـمَّ أسـتطيع أن أسـتمع إليهـا مـن جديـد وكأننـي أسـتمع إليهـا لأول مـرة! أليـس هـذا حلـم كل الأشـخاص في العالـم؟

تبًا لكم جميعًا! أنا أفضل منكم بخصوص هذا الشأن!

أجد نفسي أتحرر تمامًا من كل شيء، أهز رأسي في تناغم مع إيقاع الأغنية وهجمات أمواج البحر على الشاطئ، أتحرر أكثر فأجدني أتقافز راقصًا وكأنني أداعب البحر، أقفز إلى الأعلى، أقفز مستديرًا ٣٦٠ درجة في بهجة، حتى تتوقف الأغنية عن اللعب فأتوقف لاهثًا، أنحني مسندًا يديَّ على ركبتيَّ ناظرًا حولي لأرى أين وصلت، ثم أنظر إلى السماء مستلأً نفسًا عميقًا آخر لتبدأ أغنية أخرى في اللعب وأبدأ أنا في الرقص عليها من جديد.

●●●

بعد الرقص، أقصد المشي لمدة نصف ساعة، أجدني في المنطقة المواجهة لمقهى ستارباكس أسفل فندق سان ستيفانو، أقرر عبور الطريق والدخول إلى المكان، بعد دقيقتين أصل إلى بوابة المقهى الزجاجية وأوشك على الدخول حينما.. .

حينما أصطدم بفتاة على وشك الدخول إلى المكان في نفس اللحظة، أتعثر وأسقط فتطلق هي صرخة رقيقة محاولة الإمساك بي ولكن بلا فائدة.

- آسف.

تلك الكلمة هي كل ما صدر مني مفترشًا الأرض أتطلع إليها في صمت، شعرها الأسود المطعم باللون الفضي المنسدل على كتفيها، عيناها الخضراوتان، ذلك النمش الخفيف على خديها الورديين، طابع الحسن الذي يقسم ذقنها في رقة هائلة، شفتاها الحمراوتان المكتنزتان.

مر المشهد بالتصوير البطيء في عقلي وأغنية Lost Stars التي يغنيها Adam Levine تلعب في السماعات التي مازالت ملتصقة بأذنيَّ، أنظر إلى يدها الممتدة لمساعدتي على النهوض قائلة:

- *&)&^#$@^؟

لا أسمع ما تقوله بسبب الأغنية التي مازالت تلعب في أذنيَّ فأنظر إليها في عدم فهم لتكرر هي سؤالها من جديد محاولاً أنا أن أقرأ شفتيها:

- إنت كويس؟

- آه، متشكر قوي.

من الواضح أنني قلتها بصوت عالٍ لأن الانزعاج بدا عليها مما جعلني أخلع إحدى السماعات قائلاً لها من جديد:

obeikandl.com

- متأسف

قلتها وعيناي مثبتتان في عينيها، ممسكًا بيدها كي أنهض.

- لا مفيش حاجة، إتفضل.

قالتها محتفظة بباب المقهى مفتوحًا مشيرةً إليَّ بالدخول.

- لا، إتفضلي إنتِ.

- أرجوك.

ألقتها في وجهي بنفاد صبر ناظرة إلى يدي التي مازالت ممسكة بيدها مما جعلني أتركها في خجل. دخلت المقهى مطرقًا رأسي ثم دخلت هي متجاهلة إياي متجهة إلى الداخل.

ابتسمت أنا ولكن صعقتني فكرة أنني على وشك نسيانها، فتحسست جيوبي بحثًا عن دفتر الأوراق اللاصقة والقلم، ولكنني لم أجدهما، تبًا! لا يجب أن أنساها!

يرن في أذني صوت الأغنية القادم من السماعة الملتصقة بها وقد وصل آدم إلى ذلك المقطع: *I'd be damned Cupid's demanding back his arrow*

(ستصيبني اللعنة فكيوبيد يطالب باستعادة سهمه الذي رشقني به)

obeikandl.com

اتجهت وراءها، فوجدتها تطلب قهوة «بلاك أميريكانو» فطلبت مثلها وأنا أسرق النظرات إليها..

حسنًا مازلت أتذكرها، لم تمض خمس دقائق بعد.. و لكن كيوبيد لا يطيق انتظارًا..!

تناولت كوب قهوتها البلاستيكي من منضدة الطلبات ثم شاهدتها تغادر إلى أحد الأركان البعيدة. تناولت كوبي أنا أيضًا ثم لحقت بها. كانت تجلس بجانب إحدى النوافذ المطلة على البحر.. فجلست بعيدًا عنها بمائدتين..

تاركًا قهوتي تبرد أشاهدها ترتشف قهوتها في هدوء وهي تعبث بهاتفها النقال في قلق.

ثم.. لمحتني وأنا أراقبها فضيقت عينيها في تحفز ثم نفخت في ضيق ناظرة إلى النافذة بجانبها في تأفف..

يا ترى كم مرت من الدقائق، أنا لم أنسها بعد.. مازالت نفس الأغنية ترن في أذني، يا إلهي لم أنسها أيضًا، الأغنية أقصد..

مازلت أتذكر، الاصطدام بها عند الباب، التعثر، الوقوع.. الدخول، وطلب القهوة و..

كنت أنظر إلى الأرض سارحًا في أفكاري حينما أفقت عائدًا بعينيَّ إلى الطاولة التي تجلس إليها فلم أجدها، فقط كوب قهوتها وعلامات أحمر شفاهها التي تزينه.

فزعًا نظرت حولي بحثًا عنها ثم نهضت أبحث في كل الطاولات بلا فائدة.. حتى لمحت باب دورة المياه يهتز إثر تحريكه فاتجهت إليه صاعدًا سبعة سلالم، فتحته ودلفت إلى الداخل..

وجدتها هناك تغسل يديها، نظرت إليَّ بعينين متسعتين عن آخرهما قائلة:

- إنت إيه اللي دخلك هنا!

-.. .. .. .

بفم متسع عن آخره عجزت عن الرد ففاجأتني هي مرة أخرى صارخة:

- اطلع برة!

نظرت إليها في عدم فهم مما جعلها تدفعني خارج دورة المياه مشيرة إلى الباب المرسوم عليه شكل كارتوني يمثل فتاة قائلة:

- ده حمام السيدات

obeikandl.com

ثم دفعتني مرة أخرى ناحية الباب المقابل قائلة من جديد:

- و ده حمام النيلة اللي زيك!

أشرت إلى نفسي في مفاجأة حقيقية دون أن أتكلم فأجابت هي في غضب:

- آه نيلة!

قالتها ثم عدلت من هندامها وغادرت المكان متجهة إلى الأسفل ومازلت أنا أشير إلى نفسي كالمعتوه حتى جاء أحدهم متجهًا على عجل إلى حمام السيدات وهو يحل حزامه فأمسكت به قائلاً:

- استنى، حمام النيلة من هنا.

قلتها ثم هرعت إلى الخارج وراءها، فلم أجدها، مما جعلني أغادر المكان بحثًا عنها في الشارع. مرت الدقائق وأنا أبحث عنها في الناحية المقابلة الموازية للبحر، في الشوارع الجانبية، في المحلات المجاورة، ولكن لا شيء.

أجلس على أحد الأرصفة أفكر.. لقد مرت أكثر من سبع دقائق، لا أحتاج إلى ساعتي كيف أعرف ذلك.. و لكنني مازلت أتذكر كل شيء..

obeikandi.com

الاصطدام بتلك الفتاة، التعثر، الوقوع، أتذكر شكلها.. أتذكر ما قامت هي بطلبه، وما طلبته أنا.

أتذكر جلوسي بالداخل، وأتذكرها هي أيضا وكيف رمقتني حينما لمحتني أنظر إليها، أتذكر كوب قهوتها الموسوم بأحمر شفاهها، وأتذكر حادثة دورة المياه.. ثم.. .. فراغ.. لا أتذكر أي شيء بعد ذلك.. مجرد فراغ.. و لكن كيف؟

كيف أتذكر ما يقرب من النصف ساعة ثم أنسى ما حدث بعد ذلك، ما الذي جعلني أتذكر نصف ساعة بالكامل من دون أن أدوِّن أحداثها؟

حسنًا.. لنراجع ما حدث في النصف ساعة الأخيرة مرة أخرى، قلتها لنفسي بصوت عالٍ وأنا أنفخ في قبضة يديَّ محركًا نصفي الأعلى للأمام وللخلف، كأني أجلس على مقعد هزاز..

أولاً، اصطدمت بتلك الفتاة.. بالداخل قمت بطلب القهوة وبجانبي تلك الفتاة، بالداخل جلست بقرب تلك الفتاة.. في دورة المياه كانت تلك ال.. .

يا إلهي!.. إنها هي!.. هي العامل المشترك.. هي من جعلتني أتذكر كل شيء بوجودها..

ولكن كيف؟ لابد أن هناك سبب ما.. تفسير ما لكل ذلك، ربما هي تعرف.. ولكن أين هي.. أين؟

أمسكت رأسي بكلتا يديَّ وكأنه على وشك الانفجار، محاولاً هزه كي يهدأ قليلاً، ثم نهضت مستسلمًا بعد أن قررت العودة إلى منزلي..

وضعت سماعات الآيبود في أذنيَّ ثم قمت بإعادة تشغيله لتلعب أغنية Lost Stars من جديد،

الآن أتذكر تلك الأغنية ولن أنساها أبدًا ما حييت لأنني استمعت إليها بوجودها.. بوجود تلك الفتاة..

ينظر إليَّ كيوبيد في حنق ثم يطير مبتعدًا، تاركًا سهمه مغروزًا في قلبي..

●●●

obeikandi.com

الفصل الخامس – أكلم القمر

Chapter five - Talking to The Moon

من المضحك كيف يكون النسيان شيئًا لا أستطيع القيام به الآن، الشيء الوحيد الذي أريد نسيانه هو الشيء الوحيد الذي ترغب ذاكرتي في الاحتفاظ به.. و بوضوح تام!

هي..

تحت الدش البارد أفكر، تاركًا الماء ينهمر على رأسي متسربًا إلى بقية جسدي، علّني أفيق مما أنا فيه، شهران وأنا أذهب كل يوم، إلى نفس المكان في نفس الميعاد الذي التقيتها فيه، ولكن بلا جدوى، أنا أبحث عن إبرة في كومة قش..

الآن عليَّ أن أنساها.. أضحك..

أضحك بصوت عالٍ من خلال الماء.. و ما من جمهور يضحك على دعابتي إلا صدى صوتي.. أنا أضحك على نفسي.. حرفيًا..

أتوقف عن الضحك مسندًا جبهتي إلى الحائط.. «الآن عليَّ أن أنساها؟!»

مضحكة جدًا تلك الجملة عندما تأتي من شخصٍ مثلي، أشعر بالهزيمة، أنزلق جالسًا في حوض الاستحمام، أضم ركبتيَّ

obeikandl.com

إلـى صـدري، وأحتضنهمـا مخبئًـا رأسـي بينهمـا.. و أبكـي.. و أبكـي بمـرارة. تنسـاب دموعـي سـاخنة علـى جسـدي، وسـط ملايـين دمـوع الصنبـور البـاردة المنهمـرة علـيَّ، فتجعلنـي أشـعر بمـدى بـرودة المـاء المنسـاب فوقـي..

نحن لا نشعر بمرارة الألم إلا إذا اعتدنا الراحة..

وهـي في أقـل مـن نصـف سـاعة جعلتنـي أفعـل ذلـك.. أعتـاد الراحـة، أعتـاد ألا أقلـق مـن نسـيان تفصيلـة مـا، ألا أدون شـيئًا مـا كـي لا يطيـر مـن عقلـي للأبـد..

في تلـك الدقائـق القليلـة اتضحـت الدنيـا أمامـي لأول مـرة منـذ سـنوات طويلـة.. صـارت بالألـوان الطبيعيـة، وكأن أحدهـم أدار مفتـاح تشـغيل الدنيـا، وأصبـح كل شـيء يعمـل بشـكل صحيـح.

التفاصيـل صـارت أكثـر إحكامًـا وترابطًـا.. أتذكـر الأشـكال والألـوان، الروائـح، مـذاق الأشـياء..

وكأننـي لوحـة بيضـاء وجـاءت هـي وسـكبت كل الألـوان ورسـمت معنـى للأيـام كسـبورة إيضـاح مؤقتـة مـن أجلـي..

مـا يقـرب مـن النصـف سـاعة مـن دون فراغـات، مـن دون أحـداث ناقصـة، نصـف سـاعة مـن دون قطـع أحجيـة مفقـودة، أرى كل شـيء مكتمـل مـن دون تشـوهات، وكأنهـا هـي الهوائـي الـذي تـم توصيلـي بـه

كتلفاز يقوم باستلام الإرسال بدقة عالية ***HD*** من دون تشويش، القنوات مرتبة بعناية لا تتداخل ولا يصيبها التشويش، ولكن من دونها يملأ جنباتي التشويش، تتداخل القنوات كلما حاولت ترتيبها، مضطربة جدًا برمجة عقلي، تلفاز خرب أنا..

فقط أتمنى لو أن هناك خارطة ترشدني إليها، أقسم أن أتبعها إلى آخر العالم..

بعد قليل أخرج من الحمام متجهًا إلى غرفتي عاريًا كما أنا، أجلس أرضًا مستندًا إلى أحد أركان الغرفة أسفل النافذة التي يظهر من خلف ستائرها القمر..

القمر لم يعد فضيًا، أراه ملطخًا بالدماء، هل صرت مجنونًا أم ماذا دهاني؟

لا، للأسف إنها فقط ظاهرة فلكية لا تحدث إلا نادرًا، آه لو أنها تقتل المستذئب الذي يعوي بداخلي حزنًا على فراقها. ينطلق صوت Bruno Mars من سماعات الحاسوب بأغنية Talking To The Moon، وكأنه يسخر مني، نعم أنا أكلم القمر..

أبتسم في مرارة مبتلعًا فجاعة المُزحة ثم أنظر إلى الحائط قُبالتي الذي امتلأ بنسخ عديدة منها.. لوحات لها ولوجهها قمت برسمها في الشهرين الماضيين، لوقفتها، لعينيها الخضراوتان، شعرها الأسود المطعم بالفضي المنسدل على كتفيها، وطابع

obeikandi.com

الحسن الذى يزين وجهها، لوحات لها وهى تمد يدها إليَّ، وهى تبتسم، وهى تعبس، وهى تسب وتلعن.. و هي تفكر، وهى تقبل كوب قهوتها، وهى تتحدث في هاتفها النقال. لوحات لكل لحظاتها التي انطبعت بداخلي، لوحات لعالمها الذي حبستني فيه.. .أجمل سجن مؤبد..

هاها، وتتحدث عن نسيانها؟

في الشهر الأول بعد لقائها كثيرًا ما تساءلت ما هو الشيء المتعلق بها الذي جعلني لا أنسى شيئًا أثناء وجودها، اعتصرت خلايا عقلي وهددتها، عذبتها لتعترف، لتأت بإجابة ما.. و لكنني كنت قد اعتقلت الأسير الخطأ.. كم أنا أحمق.. لم تكن الإجابة أبدًا عند عقلي..

كانت الإجابة عن سؤالي المتكرر عما هو الشيء المتعلق بها الذي يجعلني أتذكر كل شيء في حضرتها، الذي يجعل مني شخصًا أفضل، شخصًا طبيعيًا من جديد هي نفسها الإجابة عن سؤالي الآخر، عن الذي يجعلني مهووسًا بها إلى تلك الدرجة، أفتقدها، أرسمها على حوائط غرفتي..

كانت الإجابة عند قلبي.. من دون تعذيب أو تهديدٍ.. جاوبني واعترف بالحب..

●●●

الفصل السادس – الشيء الذي في المرآة
Chapter Six – The Thing in The Mirror

يأخذ مني الأمر أربعة أشهر تقريبًا حتى أقرر التوقف عن البحث عنها، ولكنني لا أجرؤ على إزالتها عن حوائط غرفتي، ليس بعد.

واقفًا أمام المرآة الداخلية لباب دولابي الصغير، أنظر إلى انعكاسي في المرآة. تلك العينين المتعبتين، الشعر الأسود الذي غزا الشيب معظم معسكراته، ورفع أعلامه عليها، ذقني الغير حليقة، منذ متى، لا أعرف.. أبدو كالمشردين، ولكنني لا أكترث..

أمد يدي ملامسًا يد شبيهي في المرآة، أحاول أن أنصهر فيه، أن أصل إلى روحه، أحاول أن أعرفه، أن أعرفني، ربما تتطابق ملامحنا، ولكنه لا يشبهني في شيء، أنا لست بهذا الشيء المكسور، يبدو كدمية قماشية، تم تمزيقها مئات المرات، وإعادة خياطتها وترقيعها مرة أخرى بأقمشة أخرى ألوانها تختلف عن لون قماشها الأصلي، حتى ما عادت تشبه نفسها..

أنا لعبة في يد طفل، قام بتكسيرها وتفتيتها حتى استحالت أشلاءً صغيرة، وحينما حاولوا لصقها له من جديد صارت

openelkandil.com

مشـوهة، بعـض الأجـزاء مازالـت مفقـودة، والبعـض الآخـر تم إعـادة لصقـه بالخطـأ. مجـرد مسـخ، لا.. .أنـا لسـت بذلـك الشـيء القبيـح.. أنـا محبـوس داخـل جنبـات هـذا الشـيء أمامـي.. أريـد الخـروج..

مـن خلـف قضبانـه أصـرخ.. لا أحـد يسـمعني، أصـرخ أكثـر.. أنـا لا أسـمعني، أضـرب بيـديَّ علـى جدرانـه الداخليـة؛ علَّهـا تتهـاوى وأخـرج.. أخدشـها بأظافـري، ربمـا تتفتـت وأخـرج..

الجـدران تنـزف.. الشـيء أمامـي تدمـع عينـاه، يتألـم، ولكننـي مازلـت حبيـس جدرانـه.

مـن الفتحـة أسـفل البـاب، يـركل صحنًـا بقدمـه إلـى الداخـل، لابـد أنـه وقـت الغـداء..

جاثيًـا علـى ركبتـيَّ منهـكًا إثـر معركتـي مـع الجـدران، أنظـر إلـى الصحـن المتسـخ أمامـي..

و ككل يـوم، غـداء اليـوم: معلقتـان مـن الأسـى وبضـع جرامـات مـن الوجـع، مغطـاة ببقايـا روحـي.. يـا لـه مـن غـداء شـهي! أمـد يـدي، وآكل..

أمضـغ الأسـى.. أضعـه بيـن ضروسـي، ينسـحق وتنسـحق أسـناني معـه، أنـزف وينـزف وأبكـي.. الغـداء شـهي..

أبلع الوجع، ويبلعني معه، أتألم.. الغداء شهي..

أهضم بقايا روحي، وتشتعل جنباتي.. الغــ ـ ـداء شـ هــ ـــي..

هـل حقًـا آكل ذلـك، أم يـا تـري هـو يأكلنـي؟ مـن منـا يلتهـم الآخـر.. لا أكتـرث.. . فالغـداء شـهي..

أفـرغ مـا تبقـي مـن الصحـن في جـوفي فيشـتعل الجحيـم داخلـي.. أصرخ..

مـن جديـد، يـركل إلـيَّ كأسًـا مـن الفتحـة أسـفل البـاب.. أنتـزع الـكأس بسـرعة، وأصـب مـا بهـا في حلقـي.. أتجـرع مرارتهـا.. و أصـرخ أكثـر. علـى جانبـي الأيمـن أسـقط أرضًـا، ممسـكًا بطنـي أتلـوى، أحشـائي تنتحـر، تلقـي بنفسـها في الجحيـم داخلـي..

باكيًا أبتسم.. ثم أهدأ.. و في نفاد صبر.. أنتظر العشاء..

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع- تنويه
Chapter Seven – Notice

اليوم يكون قد مر ستة أشهر على ذلك اليوم الذي التقيتها فيه .

استجمعت كثيرًا من قواي، سأحاول اليوم أن أجعل نفسي سعيدًا، وسأدون ذلك لأتذكره.

أن تنسى أحداثًا أو مواقفًا فذلك بالشيء العادي، ولكن أليس من الغريب أن تنسى مشاعرًا اجتاحتك لفترة ما؟ فأنت إذا سألت إنسانًا طبيعيًا هل كنت سعيدًا بالأمس؟ من الطبيعي أن يجيب بالنفي أو الإيجاب، ولكن أن تكون إجابته بأنه لا يتذكر ذلك! جنون مطبق.

سأحاول اليوم العودة إلى طقوسي التي أمارسها من أجل خوض حياة طبيعية.. إلى حدٍ ما .

في الثامنة مساءً أجلس أمام التلفاز منتظرًا مباراة برشلونة وخيتافي في الدوري الأسباني.

البيتسا التي طلبتها جاءت ساخنة، ممددًا على السرير، أضعها بجانبي، وأتناول منها على مهل.

لا أشعر بأي تحسن، حتى الأشياء الصغيرة التي اعتادت أن تسعدك، ما عادت تفعل ذلك الآن.

المباراة على وشك أن تبدأ، أقضم قطعة كبيرة من البيتسا وأنا أسمع مقدم الاستوديو التحليلي يقول مبتسمًا:

«نود أن نذكر السادة المشاهدين الذين يشاهدوننا في كافة أنحاء العالم بالمباراة الخيرية بين نادي برشلونة الأسباني والنادي الأهلي المصري التي سوف تقام بعد ثلاثة أيام من الآن في مصر، بالتحديد في ستاد برج العرب بالإسكندرية، كنوع من الإسهام في تقديم المساعدات من أجل المجاعات التي يتعرض لها أطفال أفريقيا، وتأتي هذه المباراة بين الفريقين بعد غياب دام لأكثر من ست سنوات بعد أن.. .»

لم أعر لبقية التنويه أي اهتمام، وإنما نهضت مسرعًا إلى المكتب، نزعت ورقة جديدة وكتبت عليها: مباراة برشلونة والأهلي، بعد ثلاثة أيام في ستاد برج العرب، احجز مقعدك من الآن!

ضحكت نوعًا ما على السطر الأخير، كرمشت الورقة ورميتها في السلة.

فتحت الفيسبوك ودخلت إلى إحدى الصفحات الرياضية التي أعرفها، وجدت منشورًا لديهم بأماكن بيع التذاكر، دونتها في ورقة، أغلقت المتصفح، ثم قررت الخروج لشراء تذكرة لي.

●●●

الفصل الثامن – الكرنفال

Chapter Eight – The Carnival

لم أكن يومًا ما متحمسًا بذلك القدر أبدًا، ممم في الحقيقة أنا لا أتذكر، عليَّ أن أدون ذلك، مهلاً، أخرج دفتر الأوراق من جيبي ثم أتذكر شيئًا آخر..

الكاميرا، قررت أن أجلبها معي لأصور كل شيء، وأشاهده لاحقًا كيفما شئت، لأتذكر إحساسي في تلك اللحظات، فمهما دونت من كلمات لن تستطيع أن تنقل إليَّ من جديد كيف أشعر الآن أو كيف أبدو سعيدًا.

أخرج الكاميرا من حقيبتي الظهرية، أشغلها وأبدأ التصوير..

واقفًا في ساحة الاستاد الخارجية أدور بالكاميرا ليظهر أمامي عشرات الآلاف من البشر، الذين يقفون منتظرين المباراة، أنتظر معهم الإذن من الأمن بالدخول إلى المدرجات.

هناك من يرتدي قمصان الأهلي ومن يرتدي قمصان برشلونة، الجميع سعداء، البعض يغني أهازيجًا خاصة بأحد الفريقين، والبعض الآخر يرد عليهم وسط ضحكات الجميع.

أدور بالكاميرا إلى ناحية أخرى، هناك بعض الشباب الذين قرروا قتل الوقت عن طريق لعب الكرة فيما بينهم، على طريقة «الكلب الحيران»، معذبين أحدهم وهو يحاول قطع الكرة التي يمررونها لبعضهم البعض.

المشهد عبارة عن مهرجان صغير، أو كما يسميه البرازيليون فيستيفال، أو كرنفال.

أدور بالكاميرا عكسيًا لأصور نفسي، أبتسم في بلاهة، أرفع حاجبيَّ، وأفتح عينيَّ على اتساعهما في حماس، ثم أرفع إبهامي إلى الكاميرا وأديرها الى الناحية الأخرى من جديد.

أفكر قائلاً لنفسي: «السعادة لا تُشترى، السعادة تصنعها أنت بنفسك». ألمح في شاشة الكاميرا ذلك الفتى الصغير الذي يبيع الأعلام، أدون في ورقة جديدة، أريد أن أشتري أعلامًا من الفتى الصغير.

تبًا لم أكن أتصور أن اليوم سيكون شاقًا إلى هذه الدرجة، عليَّ أن أكتب كل خطوة أقوم بها.

مشيت حتى وصلت إلى ذلك الصبي، اشتريت منه علمين كبيرين، واحدًا للأهلي والآخر لبرشلونة.

obeikandl.com

قمت بلف علم البرشا حول خصري وتدثرت بعلم الأهلي كوشاح على كتفي وانطلقت أصور كل شيء من جديد.

تداعب أنفي رائحة الفشار الغارق في الزبد، ودون أن أدون شيئًا، أتجه إلى مصدر الرائحة يقودني الخيط الغير مرئيَّ إليها، أصل إلى عربة الفشار وصاحبها الذي يبدو في العقد الخامس من عمره، أشتري عبوةً كبيرة بنكهة الكراميل، وعلبة مياه غازية متوسطة الحجم.

قريبًا من العربة، أجلس إلى أحد الأرصفة ألتهم ما اشتريته مراقبًا الناس من حولي، واضعًا الكاميرا بجانبي لتسجيل كل شيء يحدث.

●●●

بعد ساعتين، يسمح لنا الأمن بالدخول فاتحًا البوابات، نسير في طوابير طويلة، الكل يبرز تذاكره ويعبر إلى الداخل، إلى الممرات المؤدية إلى مقاعد الإستاد حتى نصل إلى صالة الإستاد الداخلية، الكل يبحث عن مقعده، أين مقعدي؟ ممم بالطبع نسيت، التذكرة في يدي، أنظر إليها، هاهو رقم المقعد.

لابد أن أسأل أحدهم عن مكان ذلك المقعد، شاب يرتدي قميص برشلونة ذو شعر أسود كثيف ككرة، وعوينات طبية حمراء، أربت على كتفه مشيرًا إلى التذكرة التي بيدي:

- لو سمحت، الكرسي ده فين؟

يتناول مني التذكرة متمعنًا فيها، ثم يشير إليَّ لأتبعه. وراءه أسير حتى نصل إلى أحد الصفوف فيتوقف مناولني التذكرة مرة أخرى مشيرًا إلى أحد المقاعد قائلاً:

- هو ده الكرسي.

- تمام، متشكر جدًا.

- العفو.

يقولها مستديرًا ليغادر إلى مقعده من جديد، فأجلس أنا واضعًا حقيبتي الظهرية على الأرض بين قدميَّ، أشغل الكاميرا من جديد متابعًا تصوير الاستاد الذي بدأت الجماهير في احتلاله والانتشار فيه.

●●●

بعد نصف ساعة يبدأ اللاعبون في الدخول، وها أنا أرى ميسي، نيمار، سواريز وبقية العصابة، يا إلهي، هل أنا أحلم! أنظر في الكاميرا التي تسجل كل شيء لحظة بلحظة لأتأكد من حفظ ذلك الحلم داخل الكاميرا لأراه لاحقًا. كان حلمي بأن أذهب إلى الكامب نو، ولكن جاء الكامب نو بنفسه إلى هنا في قلب الإسكندرية!

obeikandl.com

أبدل النظر بين الحقيقة والصورة في الكاميرا، مقربًا الصورة على وجوه اللاعبين، أكاد لا أصدق عينيَّ. بعد لحظات يبدأ لاعبو الأهلي في الدخول أيضًا، تتملكني غبطة لا مثيل لها، فأنا لم أرَ أحدًا منهم يومًا ما أيضًا علي الحقيقة، ذاكرتي تخبرني بذلك، يا إلهي، الآن يمكنني أن أموت في سلام.

الآن تبدأ مراسم ما قبل المباراة، نشيدا كلا البلدين، تحية الفريقين لبعضهما البعض، الصور الشرفية، وأخيرًا رمى العملة واختيار الكرة وجهة الملعب.

تبدأ المباراة، الكل متحمس، الكل مغتبط، الكل يريد المباراة أن تستمر إلى الأبد.

الدقيقة الخامسة وهجمة مرتدة للأهلي من ناحية اليسار بقيادة صبري رحيل ولكن يقطعها داني ألفيس وبمبدأ السلامة كما يقولون يسددها إلى خارج الملعب، يسددها بالتحديد ومباشرة.. ناحيتي أنا...

في كسر من اللحظة أميل بجسدي يسارًا متفاديًا الكرة التي تتخطاني مكملة مسارها ثم.. بوم!

- أي!

أسمع صوتًا أنثويًا يتألم، أستدير ناظرًا إلى الكاميرا التي مازلت أمسكها بيدي، ثم أحيل نظري ناحيتها.. و أراها..

تلك الفتاة التي ترتدي قميص الأهلي.. و قد اصطدمت بها الكرة، تفتح عيناها ناظرة إليَّ في غضب لتقابل عينيَّ الناظرة إليها في اتساع وهى تمسك بجبهتها في ألم..

إنها هي! فتاة الستارباكس! ذات الشعر الأسود المطعم بالفضي!

أنهض لا إراديًا واقفًا أمامها في ذهول لا أصدق ما تراه عيناي، وفي لحظة أتجمد في مكاني وكأن ميدوسا قد حضرت هنا إلى ملعب برج العرب وأحالتني تمثالاً حجريًا.

تخرجني كلماتها من سباتي العميق لأسمعها تقول:

- إنت! هو مفيش غيرك ورايا!

مبتسمًا في بلاهة مجيبًا بكلمة واحدة فقط هي التي استطاعت الإفلات من بين قضبان شفتيَّ:

- إنتِ؟

تهز رأسها ضاربة كفًا بكفٍ غير مصدقة وهى تقول:

- أنا مش فاهمة إزاي من بين كل الأماكن في العالم، ومن بين كل الكراسي اللي في الاستاد، أقعد في الكرسي اللي وراك.

- أصل كل الحاجات الحلوة بتيجي لما بنديها ضهرنا..

وما أن قلت جملتي حتى انفجر جميع من بالملعب هاتفين في فرحة حتى ظننتهم يحيونني على ما قلته، ولكنهم فعلوا ذلك إثر تسجيل أحد الفريقين لهدف، أما أنا فلم أحرك ساكنًا فمباراتي الخاصة ألعبها أنا الآن في الثلاثين إنشًا التي نقف فيها أنا وهي.

تقف هي محاولة أن تسترق النظر عن يميني وعن يساري في محاولة لمعرفة من سجل الهدف حتى استسلمت قائلة في حنق:

- ما شفتش مين اللي جاب جول، الأهلي ولا البرشا! عاجبك كدة؟ انبسطت حضرتك؟

- مش هاتفرق، المهم حد فيهم يبتدي.. عشان الماتش يحلو..

أجيبها تلقائيًا من دون تفكير وكأنني طائرة تم تشغيلها على الوضع الآلي.

وللحظة شعرت أن ملامحها لانت إثر ما قلته، ولكن سرعان ما احتل الغضب وجهها ونشر جنوده في أنحاءه بالكامل، ثم أدارت وجهها إلى يمينها حيث يجلس شاب صغير، يبدو في السادسة عشر من عمره، لكزته في كتفه قائلة وهي تنهض من مقعدها:

obeikandl.com

- يلا يا حازم يلا، يلا نمشي.. الماتش شكله هايرخم.

قالت جملتها الأخيرة ناظرة إليَّ وكأنها توجه لي تلك السبة، يا إلهي كم تبدو رائعة وهى تسبني.

- لا لا مفيش داعي تمشي، أنا هسكت خالص مش هتكلم لحد الماتش ما يخلص.

قلتها مشيرًا لها بيديَّ كي تهدأ وكأني أحاول أن أستجدي قاتلاً مأجورًا ألا يقتلني.

- لا والله!؟ وبعد الماتش تكمل ماتش الغلاسة بتاعك، مش كدة؟

- مش كدة والله، بس أنا هفهمك..

لم تعطني حتى فرصة لإكمال جملتي وانهالت على بقاموس كامل من الإهانات اللطيفة:

- بني آدم يغيظ! بني آدم مستفز! كائن لزج!

قالتها هي ضاربة الأرض بقدميها متحاشية النظر إليَّ، أعرف أنها على وشك الانفجار ثم تابعت تلاوة قاموس الإهانات مجددًا:

- إنت ما بتحسش؟ مفيش دم؟ إنت إزاي بارد كدة؟ تلاجة واقفة قدامي؟! إنت.. ..

obeikandi.com

أصبح فمها في تلك اللحظة كفاترينة عرض للشتائم تعلوها جملة «ساري حتى نفاد الكمية»، ويبدو أن الكمية لا تنفد، تكيل الشتائم كالكلمات في وجهي بلا رحمة، ولكنني لم أكن مصغيًا كفاية، كأنني أسمع كل شيء بصوت مكتوم من داخل صندوق زجاجي، الطنين يحتضنني كأن أذناي قد سُدت من تأثير قنبلة انفجرت بجانبي، مشتت الانتباه أنظر إليها، مازالت تطفو على وجهي تلك الابتسامة البلهاء إثر رؤيتها، أقف أمامها خائر القوى لفرحة لقائها، كناطحة سحاب اغتالتها الطائرات وأصبحت على وشك الانهيار أرضًا، كل ما أفكر فيه ألا أفقد أثرها مرة أخرى.

«يا آنسة من فضلك اقعدي مش عارف أشوف منك حاجة»

كان ذلك صوت الشاب الذي يجلس بالمقعد خلفها تبعه صوت الشاب الصغير الذي يجلس بجانبها، انفجر صائحًا:

- يا بنتي اقعدي بقى فرجتِ الناس علينا!
- مانتاش شايف يا حازم اللي بيحصل؟

أنظر إليها وأنا أهز رأسي معلنًا عن أسفي ثم أستدير لأجلس على مقعدي وتجلس معي كل الشتائم والإهانات التي حصلت عليها مجانًا منذ قليل.

أتعرفون الجملة القائلة « أتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعني »؟

حسنًا، أنا لا أتمنى ذلك الآن، برغم كل ما حدث.

●●●

الدقيقة الخامسة والأربعون انتهت وها نحن في الدقيقة الأولى والوحيدة من الوقت بدل الضائع، أنظر إلى لوحة النتيجة الكبيرة، ١ صفر لصالح برشلونة، لابد أن ذلك الهدف الذي فاتنا أنا و.. .أنا والفتاة.. ذات الشعر الفضي.. أتمنى أن أعرف أسمها..

أستدير لأسترق النظر إليها في حذر، ترمقني بنظرة تكاد تحرقني، أعود بنظري إلى الملعب من جديد، أرى أحدهم في مدرجات الدرجة الثالثة يسارًا، بنصف أعلى عارٍ، يحمل علمًا كبيرًا للأهلي، يرفعه إلى الأعلى مرددًا أغنية حماسية للأولتراس، يرد عليه بعضهم، يصرخ من جديد مرددًا مقطعًا آخر من الأغنية، يرد عليه حشد أكبر من الحشد السابق، يكرر فعلته عدة مرات، حتى يرد جميع من بالإستاد عليه، الجمهور بأكمله الآن يغني معه، حتى من يرتدون قمصان برشلونة، فالجميع هنا مصريون في النهاية. يشتعل الملعب وأرى الجميع يتقافز في حماس ونشوة، أشعر بالحماس أنا أيضًا، أنهض وأردد معهم ما يقولون لا إراديًا. (فريق كبير، فريق عظيم، أديله عمري وبرضه قليل) هكذا نغني! تنتقل

العدوى إلى الملعب، هجمة مرتدة للأهلي يقودها رمضان صبحي، يمر من بوسكيتس، انييستا، يمررها إلى عبد الله السعيد الذي يعيدها إليه مرة أخرى، ينفرد رمضان تمامًا بمرمى برشلونة، يا إلهي.. هدف! هدف في برشلونة! يشتعل الملعب تمامًا، يجن جنون الجميع، يهتز الاستاد بأكمله، من يخبرني أن هناك زلزال بمقياس ٨ ريختر يحدث الآن سأصدقه تمامًا!

بجانبي شاب يبدو أصغر مني قليلاً، يحتضنني كرد فعل انعكاسي احتفالاً بالهدف.

تنطلق صفارة الحكم معلنة انتهاء الشوط الأول من المباراة، الآن أستطيع أن أستل أنفاسي.

أضبط نفسي متلبسًا وأنا أستدير لأنظر إليها، واقفة تصفق في سعادة، تلتقي عيوننا من جديد..

من بعيد يلوح شبح ابتسامة في الأفق على ركن شفتيها الأيمن، الذي يحمل تلك الشامة المخضبة بالسواد، هل تلين أخيرًا؟ تتسع ابتسامتها لتحتل وجهها بالكامل، تدس خصلات شعرها الفضية الهاربة خلف أذنها اليمنى ناظرة إلى قدميها، ثم ترفع عينيها ببطء ناظرة إليَّ، تزم شفتيها في خجل ثم أخيرًا تنطق شيئًا ما:

- ما.. .. لو.. .. وي

أهز رأسي واضعًا كفي خلف أذني دليلاً على عدم سماعها فتكرر ما قالته مجددًا بصوت أعلى:

- ماتش حلو قووووووي!
- آه، والأهلي بيلعب كويس.
- إيه؟

يبدو أنها لم تسمعني هي الأخرى، أكرر بصوت أقوى:

- والأهلي بيلعب كويس جدًا!

بإيماءات قصيرة من رأسها تجيبني موافقة، مضيفة ابتسامة جديدة إلى قائمة الابتسامات المدرجة حديثًا إلى طاولة الحوار بيننا، وآه من ابتسامتها.. مقبرة الرجال.

«أنا رايح أجيب حاجة أشربها، أجيب لك حاجة معايا؟»

كان هذا صوت أخيها (أتمنى ذلك) موجهًا السؤال إليها بصوت عالٍ نسبيًا ردت هي عليه مقتربة من أذنه بصوت لم تستطع أذناي ترجمته إلى شيء مفهوم، وما إن أفرغت أثقالها في أذنه رأيته يغادر سريعًا تاركًا إياها، وبيدين تحتضنان بعضهما في خجل، رفعت عينيها إليَّ قائلة:

- أخويا حازم، هو بيحب برشلونة وأنا بحب الأهلي.

obeikandl.com

الحمد لله صح توقعي، أومأت برأسي مبتسمًا ثم اقتربت منها صاعدًا تلك الدرجة الفاصلة بيننا لأكن في مستواها. هل يا ترى سأكون يومًا في مستواها؟ بصوت متردد أنطق أخيرًا:

- أنا.. .أنا آسف.. مش قصدي أضايقك أو أغلس عليك.. .أنا بس..

- لا لا، أنا اللي آسفة، انفعلت جامد واتعصبت، بس أصل الكورة لما خبطتني.. .

قالت جملتها مقاطعة جُملتي وهى تتلمس جبهتها في حرص.

- هى لسة بتوجعك؟ أجيب لك طيب تلج أو..

قلتها وأنا أدور بعينيَّ محاولاً تفحص مكان ارتطام الكرة بجبهتها، وكأنني أحد ضباط المباحث الجنائية يتفحص مسرح جريمة ما في تلك البقعة الجميلة من وجهها.

- لا لا، مش مستاهلة.. الموضوع بسيط.

قالتها وهي تعطي لملامحها أمرًا بإعطائي ابتسامة جديدة.

الجماهير تشتعل حماسًا من جديد، تتقافز في فرحة، هذه المرة هي الجماهير داخل ملعب قلبي.

تلتقي عيوننا من جديد، وأعتقد أن الكرة الأرضية توقفت عن الدوران الآن، العالم بأكمله توقف عما يفعله وأخذ يراقبنا، أمواج البحر توقفت عن التلاطم، الطيور قررت ألا ترفرف بأجنحتها، كل الكائنات على كوكب عطارد توقفوا عما يفعلوه، كل الذرات توقفت عن الانقسام من أجل تلك اللحظة الآن.

وأفكر.. هل سأخبرها لاحقًا بمرضي؟ هل سيخيفها ذلك؟ أم سيجعلها تبقى! أنا لا أرغب في تسول شفقتها.. لا أريدها أن تبقى معي رثاءً لحالي.. لا أريدها أن تظن أنني أريدها لأتذكر فقط..

أنا أريدها لأن الحياة معها تتجسد، تصبح ذات شكل، وطعم ولون ورائحة.. .و معنى!

الحياة معها تصبح..

- حياة!

قاطعني أخيها قائلاً تلك الكلمة وكأنه يكمل ما أفكر فيه، واضعًا آخر قطعة أحجية ناقصة في خلاياي الدماغية، نهرته هي في غضب قائلة:

- قلت لك ١٠٠ مرة ما تقوليش زفت حياة، اسمي هايا!

obeikandi.com

عاد الغضب إلى احتلال ملامحها من جديد فور انتحار قوات ابتسامتها ملقية بنفسها من أعلى وجهها إلى الأرض تحت قدميها وفرار الباقي إلى أماكن متفرقة غير معلومة.

ولكن مهلاً، اسمها حياة؟ هايا؟ حسنًا الآن أعرف لها اسمًا.

تناولني عبوة مياه غازية صفيحية محاولاً وجهها استجماع بعض قوات الابتسامة التي فرت منذ قليل، أمد يدي إلى العبوة في يدها، ثم أتردد للحظات قائلاً:

- متشكر قوي بس مفيش داعي يعني للـ... .. .

مغلقة عينيها وهي تومئ برأسها لحظيًا إشارة إلى بساطة الهدية، تقرب من يدي العبوة أكثر فآخذها ببطء، وللحظة تتلامس أصابعنا وينتفض قلبي.. الجماهير داخله تصنع أمواجًا في المدرجات بأكملها، أرى ألعابًا نارية في سمائه.

تتسع عيناها للحظات ثم تسحب يدها في اضطراب ناظرة إلى الأرض، أراها تبلع ريقها في صعوبة، تهرش رأسها ثم تعيده إلى الخلف، تفتح عبوة المياه الغازية وتتجرع منها في عصبية ثم تنتبه إلى متابعتي إياها، تتسمر في مكانها للحظات ثم تنطق من جديد:

- معرفتش اسمك؟

ممسكًا بالعبوة بيدي اليمني، أضع يدي اليسرى في جيب بنطالي وأرفع كعبيَّ قليلاً عن الأرض قائلاً:

- عايش.. اسمي عايش.

تبتسم قائلة:

- اسمك.. .

- ماشي مع اسمك..

أقاطعها قائلاً ثم أكمل من جديد:

- حيـــ.. .. ..

بعينين متسعتين تشير إلى بسبابتها مقاطعة في حزم:

- هايا! اسمي هايا!

أرفع عينيَّ إلى السماء مفكرًا وأنا ألوك الاسمين في فمي، هايا عايش.. هايا عايش.. ممم، فلنجرب عايش حياة.. حياة عايش.. مممم ذلك أفضل.

تضيق هي عينيها وكأنها تعرف ما أفكر به، الغضب يشن هجومًا آخر على ملامحها، تشير إليَّ بسبابتها نافية:

- لأ!

obeikandi.com

ينقذني انطلاق صفارة الشوط الثاني من المباراة فيتشتت انتباهها متوجهًا إلى الملعب وما يحدث فيه.

أرفع يدي التي تحمل العبوة شاكرًا إياها ثم أعود إلى مقعدي من جديد.

●●●

تمر أغلب دقائق المباراة دون أن أنتبه إلى أحداثها، فقد قررت مشاهدة شيء أفضل.. هايا.

قررت تسديد عدسة الكاميرا عكسيًا ناحيتها موجهًا الشاشة لزاوية نظري أنا، وكأنني أصور «سيلفي». أرفع عينيَّ بين الحين والآخر إلى أرض الملعب إثر هجمة ضائعة هنا أو هدف هناك، وأستدير ناظرًا إليها أحيانًا أكثر سارقًا ابتسامة جديدة واضعًا إياها أعلى رفوف قلبي.

لطيفة هي هوايتي الجديدة؛ هواية جمع ابتساماتها.

تنتهي المباراة بين برشلونة والأهلي بهدفين لكلٍ منهما، ثم تفوز برشلونة بركلات الترجيح، كلا الفريقين يتجهان إلى الجماهير، إلينا، لتحيتنا، نقف مصفقين لتحيتهما ثم يبدأ الجميع في المغادرة، الفريقان والجمهور.

أستدير لأجدها على وشك المغادرة، تلملم حاجياتها هي وأخيها قائلة له:

- استنى لما كله يمشي والزحمة تخلص وبعدين نمشي إحنا كمان.

- أنا لسه هستنى كل ده، فكك.

يقولها مغادرًا تاركًا إياها فتصرخ هي:

- إنت يابني رايح فين!

- هستناكِ برة، لما تطلعي كلميني.

- يا حازم! يا نيلة! يا زفت!

شتائمها تقتلني لطفًا، وبالطبع الزفت لا يرد، أقصد حازم، فقط يغادر مختفيًا بين المئات.

تعقد هي ساعديها أمام صدرها، تزفر ببطء ناظرة إلى السماء ثم تنظر إليَّ رافعة حاجبيها وكأنها تسب أخيها في صمت.

- أنا هفضل معاكِ، ما تقلقيش.

بنظرة يخالجها الشك تقف أمامي فأتجه جالسًا بجانبها قائلاً من جديد:

obeikandl.com

- ها.. وآدي قعدة.

رافعة حاجبيها في استنكار تنظر لي، تبتسم ثم تجلس واضعةً ساقًا على ساقٍ، تخرج دبوس شعر خشبي من حقيبتها، تلملم خصلات شعرها إلى الوراء محكمة السيطرة عليه على هيئة كعكة سينابون فضية ثم تطعنه بذلك الدبوس فتتماسك الكعكة وتثبُت كما هي، تضع يدها اليسرى فوق ركبتها تعلوها يدها اليمنى، تلمحني أتابعها ومن دون أن تنظر لي تنطق في هدوء:

- من الآخر كدة.. إنت عايز إيه؟

- شعرك أحلى وإنتِ سايباه.

- نعم؟

تقولها محركة رأسها ناحيتي رافعة حاجبيها في استنكار فأنطق في تردد مشيرًا إلى ذلك الدبوس في شعرها:

- من غير الـ.. .البتاعة الـــ

- تو تو تو.. .إنت عايز إيه؟ لخص!

تقولها والصبر داخلها على وشك النفاد، أشعر بذلك، أحاول أن أتكلم فتهرب الكلمات مني، منتحرةً أمامي بشتى السبل.

obeikandi.com

تشير هي إليَّ باستخفاف مشجعةً إياي على قول شيء ما وتستمر الكلمات في الانتحار على حافة شفتيَّ مخرجة لسانها لي لإغاظتي.

تهز هايا رأسها غير مصدقة ممسكة بحقيبتها استعداداً للوقوف والمغادرة فتمسك يدي تلقائيًا بيدها، وينطق فمي من دون استئذان مني:

- أنا عايزك.

تنظر هايا لي بعينين متسعتين فأسحب يدي معتذرًا:

- أنا آسف.. أنا

تمسك هي بياقة القميص الذي أرتديه مقتربة مني حتى يغمرني عبيرها، وبلهجة تحذيرية تقول:

- إنت عايز تروح في داهية مش كدة؟

وبإجابة ولهجة لا تتناسبان تمامًا مع جدية الموقف أجيب ناظرًا في عينيها مباشرة:

- لو هاتيجي معايا أنا معنديش مشكلة.

يكفهر وجهها حتى أشعر أنها تحولت إلى أبي لهب، العبوس في ملامحها يكاد يصوب إليَّ مدافعه ليرديني قتيلاً. وفجأة تفلت

يدها القميص لتنطلق هي في نوبة من الضحك الهستيري الذي يرج في أنحاء الملعب الذي غادره الجمهور تمامًا الآن.

بعد قليل تهدأ ناظرة إليَّ تتفحصني ثم تبتسم قائلة:

- إنت فيك حاجة مش طبيعية.
- ومين مش فيه؟
- صح.
- هايا، أنا مش عارف أجيبها إزاى.. بس أنا..
- أنا مش بصاحب، ومش بحب.. و مليش في كل الكلام ده.
- أنا مبقولكيش تعالي نتجوز أو نرتبط، بس إيه المانع نبقي صحاب.. أصدقاء.
- بس أنا معرفكش.. ولا إنت تعرفني!
- إدينا فرصة نعرف بعض..

تفكر هي بعمق ناظرةً إليَّ فأعاجلها محاولاً هدم الأسوار بيننا:

- يوم واحد.. يوم واحد بس نكون سوا.. يوم من ضمن مية وتمانين ألف يوم من حياتك، اتبرعي لي بيه.

obeikandl.com

- مممم وبعدين؟

تقولها وكأنها تلوك ما قلته محاولة استساغته فأرد أنا من جديد:

- لو حسيتِ براحة، اتبرعي لي بيوم كمان.
- ولو محسيتش؟
- بسيطة.. سيبيني وامشي.

تبتسم، تشيح بوجهها ناظرة إلى الأرض ثم ترفع عينيها إلى قائلة:

- يوم واحد؟
- يوم واحد..
- اتفقنا..

تقولها رافعة يدها إليَّ لإبرام الاتفاق بيننا.. أناولها يدي فتصافحني بقوة أشعر معها أن الجماهير في قلبي فاضت منه، نزلت إلى أرض الملعب حولنا، منطلقة في فوضى عارمة احتفالاً بذلك الفوز.. يكاد الأمر أن يخرج عن السيطرة، أحتاج إلى قوات أمن مكثفة لتهدئتهم.

obeikandi.com

تخرجني هي من شرودي مشيرةً بيدها الأخرى أمام وجهي لأترك يدها، أستفيق ناظرًا إليها وهى تهزني قائلة:

- بس هانعمل إيه في اليوم ده؟

- رحلة!

أجيب أوتوماتيكيًا.

- رحلة؟

- آه، هانطلع رحلة.

- أوك، طب مش يلا بينا نمشي بقى؟

- يلا، بس على شرط.

- إيه تاني!

تمتد يدي إلى شعرها، أنزع ذلك الدبوس الخشبي برفق فتنطلق خصلات شعرها الفضية هاربة، متحررة، تتساقط على ظهرها كشلالات من الفضة السائلة، أشعر بها تشكرني لأنها تتنفس من جديد. ألوح بالدبوس في وجه هايا ثم أقسمه نصفين وألقي بهما إلى أرض الملعب.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل التاسع – الرحلة
Chapter Nine – The Roadtrip

في الليلة المتفق عليها أتصل بها في الحادية عشر مساءً فترد بصوتها الصادر من الجنة:

- ألو..
- جاهزة؟
- من زمان..
- تمام، نُصاية وأكون تحت بيتك، ماتنسيش الفستان.
- ما تقلقش.. مستنياك.

تنتهي المكالمة القصيرة، أضع الهاتف في جيب سروالي ثم أتأكد أنني وضعت كل شيء في حقيبة ظهري، أذهب إلى المطبخ، أملأ عدة أطباقٍ صغيرة بالطعام والماء من أجل سكر وأضعها في أنحاء متفرقة بالمنزل، لا أريد أن أعود وأجده ميتًا بسبب إهمالي.

بعد نصف ساعة تقريبًا أصل إلى وجهتي، منزلها، أتصل بها، تقتل هي رنين الاتصال ولا ترد، أضع الهاتف على لوحة السيارة أمامي، أشعل سيجارة نافثًا دخانها بقوة كتنين غاضب.

obeikandl.com

تمـر دقيقتـان حتـى أقـرر أن أتصـل بهـا مـن جديـد، بيـد قلقـة أمسـك بالهاتـف، أضغـط علـى اسـمها و.. تـك.. تـك.. تـك.. دقـات علـى النافـذة يمينـي.. هـي..

ألقـي بالسـيجارة مـن نافذتـي وأفتـح لهـا قفـل البـاب فتسـتقل السـيارة علـى عجـل، تلقـي بحقيبـة ظهرهـا إلـى المقعـد الخلفـي، وقبالـة بدلتـي المعلقـة خلـف مقعـدي تعلـق شـماعة يحاصرهـا كيـس أسـود معتـم مخفيًـا مـا يضمـر تحتـه، أعتقـد أنـه ثـوب سـهرة، تمـرر أصابعهـا خـلال خصـلات شـعرها ناظـرة إلـيَّ.

- إزيك؟

- تمام.

أقولهـا وأنـا أعاينهـا مجيـلاً عينـيّ في كل شـبرٍ منهـا، بلوزتهـا القطنيـة البيضـاء الضيقـة قصيـرة الأكمـام التـي تظهـر مـن تحـت ذلـك الصديـري الجينـز الكحلـي عـديم الأكمـام، ذلـك الشـورت الجينـز القصيـر سـماوي اللـون الـذي يبـرز سـاقيها البيضـاء البضـة، وحذاءهـا الرياضـي الرقيـق.

- مالك؟

- إيه اللي إنتِ لابساه ده؟

- إيه؟ ماله؟ أحنا مش طالعين رحلة؟

- رحلة آه، هو إنتِ فكرك الرحلة دي لفين؟

- يعني، الساحل.. السخنة.

- السخنة آه، هي فعلاً سخنة.

- نعم؟

- لا ولا حاجة.

أقولها محاولاً عدم النظر إلى أفروديت موديل ٢٠٤٥ التي تجلس بجانبي، أمسك بالهاتف محاولاً التظاهر بالعبث به فتخطفه هي من يدي قائلة:

- مفيش موبايلات.

تضغط على زر التشغيل/ الإطفاء فيذهب الهاتف في سبات عميق، من حقيبة يدها تخرج هاتفها، وتقتله هو الآخر، أجلس بجانب قاتلة متسلسلة للهواتف المحمولة، تمسك بالهاتفين في وجهي بطريقة تحذيرية ثم تلقي بهما من جديد في حقيبة يدها قائلة:

- مفيش موبايلات، مفيش فيسبوك، مفيش واتساب، فايبر، انستاجرام ولا سناب تشات.

obeikandl.com

- طب والصور؟ في رحلة من غير صور؟

تخرج من حقيبتها كاميرا بولارويد حديثة وردية اللون ملوحة بها في وجهي.

- طب وليه كاميرا وصور بولارويد ولخمة يا هايا! عشان فورية يعني؟ طب ماحنا بالموبايل هانتصور برضو صور فورية وكمان ممكن نعدل فيها!

- تؤ تؤ تؤ، أحلى حاجة إنك تصور اللحظة وتسيبها زي ما هي من غير تعديل، من غير كدب وتزوير، إنك تصور اللحظة من غير ما تعمل لها ميك أب ولا فوتوشوب.

- ماشي! طب والجي بي إس! (GPS)

- مش هانحتاجه.

تقولها وهي تخرج من حقيبتها ورقة مطوية عدة مرات، تفتح إحدى طياتها مشيرة إليَّ.

- طب ولو تهنا؟

- نتوه سوا.

تقولها فابتسم ثم أدير السيارة منطلقًا بنا إلى وجهتنا الأولى..

●●●

بعد ربع ساعة نكون قد وصلنا إلى وجهتنا الأولى، حي الإبراهيمية، حيث ذلك المقهى الصغير المتهالك، أقرب إلى كهف من العصر الحجري يختبئ بين أدغال الشوارع الحديثة.

أركن السيارة في أحد الشوارع الجانبية، أطفئ محركها وألتقط من هايا الخريطة مشيرًا بسبابتي إلى نقطة على الخريطة قائلاً:

- أحنا هنا دلوقتي.

تخرج قلم فلوماستر أحمر سميك وتقوم بعمل علامة (x) على نقطة تواجدنا، تعطني علامة ممتاز بكلتا إبهاميها، ثم تطوي الخريطة فأشير إليها بالنزول.

- أحنا هانعمل رحلة ولا جايين نشتري جزم؟

تقولها مشيرة إلى محلات الأحذية المتراصة على جانبيّ الشارع الرئيسي.

أحاول كتم ضحكة تحاول الهروب من داخلي قائلاً لها:

- انزلي بس وبلاش لماضة، أنا جايبك عند واحد من أهم معالم إسكندرية، هاتفهمي بعدين.

أقولها وأتجه إلى بابها مسرعًا قبل أن تخرج، أخلع معطفي القطني وأنتظرها حتى تخرج، أجثو أمامها، ألف المعطف حول

خصرها حتى يغطي مؤخرتها والجزء العلوي من ساقيها، أعقد أكمامه في أنشوطتين سريعتين ثم أقف مجدداً قائلا لها:

- يلا بينا.

ابتسامة عذبة تظهر على وجهها قبل أن تضع يديها في جيوب سروالها القصير قائلة:

- يلا.

إلى ذلك المقهى نتجه وعيون الجميع تكاد تلتهمها كأفواه ذئاب جائعة.

أقترب منها هامساً:

- ما تنطقيش ولا كلمة بالعربي، اعملي نفسك أجنبية أبوس إيدك عشان الليلة تعدي على خير، بتعرفي تتكلمي إنجليزي فرنساوي، إيطالي، ألماني أي حاجة؟

- Yes, oui, si, ya

- ماشاء الله، معامل أنيس عبيد ماشية جنبي.

تلكزني بكوعها في صدري منبهةً إياي إلى ذاك القادم ناحيتنا، صبي المقهى:

- عايش بيه، يا مرحب يا مرحب.

obeikandi.com

لابـد أن ذلـك هـو شـعبان، في أواخـر العشـرينيات مـن عمـره، أسـمر ذو شـعر بنـي مجعـد قصيـر، هكـذا كتبتـه في أوراقـي كـي لا أنساه. بابتسـامة عريضـة رددت عليـه محييًـا إيـاه وكأنـي أعرفـه منـذ زمـن:

- شعبولا، أخبارك إيه؟

- ماشية يا عايش بيه، إنت إزي حضرتك؟

- كله تمام.

يقترب مني هامسًا متفحصًا هايا بعينين جائعتين:

- أمال مين الهانم ولا مؤاخذة؟

- صديقتي، طليانية.. .عايزين نظبطها يعني مش هوصيك.

- عينيا.

قالهـا مشـيرًا بإصبعـه إلـى عينيـه التـي مازالتـا لـم تشـبعا مـن هايـا، أتمنـى لـو يفقأهمـا بذلـك الإصبـع.

تبًـا لـكِ يـا هايـا وتبًـا لملابسـك التـي لا تصلـح إلا للتجـول في يـورو ديزنـي!

قبل أن يغادر شعبان أمسك بذراعه قائلاً:

- اسمع، عم باسليوس قاعد فين؟

- إنت كل مرة تسأل السؤال ده، مانت عارف يا عايش بيه مكانه اللي ما بيسيبهوش، هناك ورا العامود اللي عاليمين ده!

تبًا، كان يجب عليَّ أن أدون ذلك من قبل!

أفكر في إخراج دفتر الأوراق وتدوين ما قاله شعبان، ولكنني أتذكر أن هايا معي، لن أحتاج أن أدون أي شيء وأنا معها، ابتسم ناظرًا إليها ثم أجذبها من معصمها وأتجه إلى ما وراء العامود، إلى عم شريف باسليوس.

بشعره الأبيض الممشط في عناية والتجاعيد التي تشكل وجهه فتجعله كأحد تماثيل المواي التي تقف في شموخ لتحرس جزيرة الفصح في تشيلي، ينظر شاردًا إلى اللاشيء أمامه، ينتبه إلينا فيرفع ذقنه عن العكاز الذي يتكئ عليه ببطء يشي بعِظم المجهود الذي يقوم به، لا أعرف أيهما أقدم.. هو أم العكاز.

يرفع عينيه فيراني، يبتسم ببطء وكأن الابتسام هو أيضًا أصبح عبئًا كبيرًا عليه.

- عايش تعالى اقعد.

تستغرب هايا ناظرة إليَّ فأبتسم ناظرًا إليها مشيرًا إلى عم باسليوس في فخر:

- عم باسليوس أجدع إسكندراني ممكن تقابليه في حياتك اقعدي.

أزيح لها المقعد لتجلس ثم أجلس أنا الآخر على مقعد آخر قائلاً لعم باسليوس:

- إحنا قلنا لشعبان إنها طليانية عشان.. .

- فاهم فاهم..

يقولها مبتسمًا في هدوء، لم ينل العمر من عقل ذلك الرجل العتيق، هذا جيد.

- تشربوا إيه؟

صوته الأجش حينما يخالط تلك البحَّه فيه تجعل كلماته وكأنها شيكولاتة تتسلل إلى أذنيك.

- شاي.

نقولها أنا وهايا في نفس اللحظة تقريبًا فننظر إلى بعضنا البعض في صمت يقطعه عم باسليوس قائلاً:

- تمام

obeikandi.com

يتحـرك ببطء ليسـترق النظـر مـن خلـف العامـود محـاولاً اصطيـاد شـعبان:

- شعبان، يا واد يا شعبان.

- استريح إنت، أنا هنادي عليه، شعبااااااااان.

ينتبه شعبان إلى نداءاتي قادمًا يهرول من بعيد.

- أيوة يا بيه، أؤمر.

- ركز معايا هنا.

أقولهـا ممسـكًا وجهـه الـذي يعمـل كـرادار ناحيـة هـايـا، محـركًا إيـاه ناحيتـي.

- أيوة أيوة.

يقولها ناظرًا إليَّ في شرود.

- هـاتشرب إيه يا عم باسليوس.

أقولهـا وأنـا مازلـت قابضًـا علـى وجـه شـعبان ناحيتـي، ولكـن بـلا فائدة.. عينـاه اتجهتـا إلـى هـايـا مجـددًا.

- واحد قهوة سادة..

- سامع؟ كهوة سادة واتنين ساي.

انتبه إلى لهجتي الخاطئة وأنا أحاول أن أشتت نظر شعبان عن هايا فأكرر من جديد وأنا أضربه برفق على خده الأيمن:

- واحد قهوة سادة واتنين شاي وخلي السكر بره، يلا.

- حاضر.

يقولها مغادرًا على مضض، فأتبعه ببصقة وهمية في الهواء، ثم أستدير مبتسمًا إلى عم باسليوس قائلاً:

- إزيك يا راجل يا طيب؟

- لسه مستني.

الابتسامة على وجهي تتبدد، دائمًا ما تكون إجابته بتلك الجملة، أنا أتذكر ذلك لأني دونته من قبل في أوراقي..

- تاني الكلام ده يا عم باسليوس.. تاني؟

- مستني إيه؟

تقولها هايا هامسة ناقلة بصرها بيني وبين عم باسليوس، أعجز أنا عن النطق أما هو فلا.

- مستني أروح لها..

- تروح لمين؟

- تيجي القهوة وأحكي لك يا.. .إنتِ إيه اسمك؟

- هايا، اسمي هايا..

●●●

بعد دقائق جاءت القهوة بصحبة الشاي ولا داعي للتطرق من جديد إلى شعبان وما فعله هذه المرة، لنكتف بأنني كدت أن أركل مؤخرته لولا إنقاذ هايا له من براثني.

جالسًا أمامنا - عم باسليوس - يرتشف القهوة متلذذًا، يعيد الفنجان إلى موضعه، ممسكًا بالعكاز بكلتا قبضتيه يتكئ عليه بذقنه متخذًا وضع الحكي، ينظر إلى اللاشيء وكأنه يرى عوالمًا لا يراها غيره، ثم يبدأ:

- من أكتر من سبعين سنة، في صيف سنة ٦٧، عرفنا بعض، البيت كان قصاد البيت.

كنا بنفهم بعض حتى وإحنا ساكتين، كل واحد بيحس التاني عايز يقول إيه، بكمل الكلمة قبل ما تقولها، وتقول اللي أنا عايزه قبل ما أفكر فيه، الموضوع ماخدش كتير، حبينا بعض، وبقينا سوا وفي يوم عيد ميلادها، كل واحد مننا اتمنى أمنية بس ربنا سمع منها وماسمعش مني، أمنيتي كانت إننا في آخر الصيف نتجوز، بس الصيف خلص والحرب قامت.

- طب وأمنيتها كانت إيه؟

obeikandl.com

قاطعته هايا متسائلة في شغف، ولكن عم باسليوس لم يرد، كان شاردًا في عالمه الخاص.

أشعل أنا إحدى السجائر فتختطفها هايا وتلقي بها أرضًا لتدهسها بحذائها وهى تنظر لي غاضبة:

- مفيش سجاير!

يتنهد هو مكملاً من جديد:

- خدوا ناس كتير عشان الحرب، رجالة.. شباب.. وخدوني معاهم، اتفقنا أنا وهي نكتب لبعض جوابات لحد ما أرجع لها، كانت كل يوم تكتب لي جواب وتبعتهولي، وأنا كنت برد على جوابتها واحد واحد.

فضلنا عالحال ده كذا شهر لحد ما جت لنا أوامر نرجع، وإحنا راجعين بالمقطورة طيارات الصهاينة ضربت علينا من فوق، طاخ طاخ، كله راح، تلاتين جندي وظابط كله مات، أنا بس عشت، لكن مكنتش فاكر ولا حاجة، مشيت كتير، مش فاهم حد ولا حد فاهمني.

مشيت أكتر لحد ما رحت في غيبوبة، صحيت لقيت نفسي في مستشفى في السويس وعرفت إن فيه ناس لقوني وودوني هناك، فضلت في المستشفى لا أنا عارف حد ولا حد عارفني لحد ما خفيت وطلعوني، مبقتش عارف أروح فين. فضلت في السويس

obeikandl.com

اشتغلت حاجات كتير عشان أعرف أعيش، عتال، كناس، نقاش. وعدت سنين.. كتير، والناس هناك بقوا هما أهلي وأخواتي وأصحابي، حتى وهما مش عارفين أنا مين، وسموني منسي.

بعد حاجة وعشرين سنة قام زلزال ٩٢، والبيت اللي كنت ساكن فوق سطوحه كان بيتمطوح، وما بين صريخ وزعيق الناس اللي بتهرب هربت وياهم على تحت، كنت آخر واحد وملحقتش أطلع من الباب، البيت وقع عليا. صحيت لقيتني في نفس المستشفى إياها بس الفرق إني المرة دي افتكرت كل حاجة.

ما استنيتش لما بقيت كويس، سبت المستشفى وطرت على إسكندرية..

و رجعت بيتنا، أبويا كان مات، وأمي راحت وراه، مفاضلش غير أخويا، كان ساكن في البيت، وعرفت منه أن كاريمان ما اتجوزتش حد تاني، فضلت مستنياني، قالت لهم إني عايش، وفضلت تبعت جواب كل أسبوع على عنوان بيتي، عشان أما أرجع أقراهم.

قالوا اتجننت، وقرر أهلها يعزلوا يروحوا القاهرة. عرفت إنها لسه عايشة هناك لوحدها بعد أما مات أهلها هما كمان. حبيت أرجع بطريقة رومانسية، بعت لها جواب يسبقني ليها قبل ما أروح، وسافرت لها. لما وصلت، لقيتها سبقتني فوق..

اعتدل عم باسليوس عائدًا بظهره إلى الوراء ناظرًا إلى السقف بعينين يحبس فيهما البحر المتوسط بأكمله، ومن دون أن يحرك عينيه ناظرًا إلى السقف أكمل:

- راحت قبل ما يوصلها جوابي، فضلت مستنية ٢٠ سنة وزيادة، مقدرتش تستني يوم كمان، لو كانت تعرف أكيد كانت هاتستناني، وأديني من يومها مستني أروح لها أنا كمان.. بقالي أكتر من خمسين سنة من ساعة ما رجعت لي الذاكرة.

حرك عينيه ناحية هايا قائلا:

- عايزة تعرفي كانت إيه أمنيتها؟

بعينين متسعتين أجابته هايا مومئة ليكمل هو من جديد:

- أمنيتها كانت إن عمري ما ينتهيش..

انطلقت كلمات عم باسليوس مصحوبة بفيضانات البحر المتوسط حبيس عينيه.

نظرت إليَّ هايا وفي عينيها بحر صغير يوشك على الفيضان هو الآخر ثم نهضت مقتربة منه، محتضنة إياه من الخلف في قوة وهو يتمتم:

- كاريمان.. .كاريمان..

●●●

obeikandl.com

الفصل العاشر – جنون

Chapter Ten – Madness

تمر الدقائق في صمت ونحن جالسين في السيارة، أنزع منديلاً ورقيًا من العلبة أمامي مناولها إياه.

- أنا آسف، كنت جايبك هنا أبسطك بس نكدت عليكِ.

- بالعكس، هي حاجة تفرح إن يبقى في حد لسه بيحب كدة، أنا بس زعلانة عليه.

تقولها محركة رأسها كإبرة بوصلة ناحية عم باسليوس الذي مايزال جالسًا في المقهى على الأرجح.

أهز رأسي موافقًا لتكمل هي:

- لا هو قادر يروح لها، ولا عارف يعيش من غيرها.

- وفي الحالة اللي زي دي راحة القلب ماتجيش غير بطلوع الروح.. حرفيًا.

تحاول هايا استيعاب ما قلته للتو ثم تغمض عينيها متألمة:

- ياه.

obeikandi.com

- أنا آسف.. اسمعي.. أنا هعمل تغيير بسيط في الخطة، أقصد الرحلة، أنا لازم أبسطك بجد.

- هانروح فين المرة دي؟ التُرب؟

- بقول لك هبسطك مش هرعبك.

- أما نشوف هاتودينا فين!

قالتها بلهجة ساخرة زافرة في بطء، ثم مدت يديها تفض الخريطة فاردة طياتها أمامنا متسائلة بعينيها عن محطتنا التالية، أتناول القلم من يدها، أخلع غطاءه وأقوم بعمل علامة (x) حمراء جديدة فوق وجهتنا التالية. ترفع هي عينيها مستغربة:

- مش دي.. .. ؟

- المعمورة.

أقولها أنا مخرجًا علبة سجائري فتختطفها مني وتلقي بها من نافذة السيارة.

- قلت مفيش سجاير! نهائي!

- نهائي؟

- يانا يا هي

- لا على إيه.. بلاها سجاير.

أقولها وأدير محرك السيارة لننطلق من جديد.

●●●

مستعينًا بإرشادات هايا والخريطة أصل إلى بوابات المعمورة بعد نصف ساعة.

- إنت إزاى مش عارف السكة؟

- أصل أنا ماجتش هنا كتير.

هل ستبتلع هايا حقًا تلك الكذبة بهذه السهولة؟ أشك.. تعاجلني هي بسؤال آخر:

- طب إنت جايبنا هنا ليه؟

أدفع ثمن تذاكر الدخول وأنا أحاول التملص من سؤالها الذي يلتف حول رقبتي في إصرار كثعبان جائع.

- ها؟

هاهو ثعبان آخر أعجز عن التملص منه.

- هاتعرفي دلوقت.

obeikandl.com

في الحقيقة أنا شخصيًا أريد أن أعرف أيضًا . شاهدت منشورًا على الفيسبوك من قبل أن هناك مدينة ملاهٍ هنا في المعمورة، ودونت تلك المعلومة، المشكلة أنني لا أعرف أين تقع بالضبط، ولا أريد أن أسألها مجددًا، من المفترض أن تكون مفاجأة.

نسير ببطء في الشوارع الخالية من المارة، يحاصرنا الليل، عواميد الإنارة، رائحة الياسمين والشجيرات التي تزين كل شبر من المدينة المصغرة.

بعد السير لأكثر من ربع ساعة دون الوصول إلى الوجهة المقصودة أوشك على الاستسلام حينما تضربني الفكرة، أركن السيارة، أترجل منها، وأمضي، ثم أعود مسرعًا قائلاً لهايا :

- مش هتأخر، هجيب مية بس.

و من دون أن أتلقى رد فعلها أغادر مهرولاً .

تاركًا الشارع الذي تركت به هايا بالسيارة أدلف إلى شارع آخر متفحصًا البنايات والقصور به، حتى أجد ضالتي المنشودة، بواب صعيدي قديم قدم الزمن، يجلس أمام أحد القصور في كبرياء تام واضعًا ساقًا على الأخرى وكأنه يملك عشرات من تلك القصور، يرتشف شايًا ثقيلاً كحبر في تلذذ تام، اقتربت منه وبجدية تامة أحادثه:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قالها الرجل بجدية حقيقية تناسب جدية لهجتي.

- بقول لك إيه يا حاج معلش، هي الملاهي أروح لها منين؟

تم قتل الهيبة بنجاح..

في اشمئزاز تام يحدجني البواب بنظرة نارية، أثق تمام الثقة أنه يراني الآن كطفلة في المرحلة الابتدائية ترتدي تنورة قصيرة ذات حمالات على الصدر بلون وردي يتلاءم تمامًا مع لون البابيون الذي يحاصر رقبتها، تقبض بيدها على خيط بالون ضخم يتجه للأعلى، وباليد الأخرى تعبث بإحدى ضفائرها التي تتدلى فوق كتفيها.

أخرج من خيالاتي متابعًا رد فعله، يرتشف من كوبه رشفة استغرقت ثلاث سنوات ثم كاد يبصقها في وجهي قائلاً:

- آخر الشارع ده شمال.

- متشكر يا حاج.

أقولها وأستدير مخرجًا دفتر الأوراق والقلم من جيب سروالي وأكتب ما قاله الرجل للتو، أكرمش الورقة وأرمي بها في سلة المهملات بجانبي، وأنطلق عائدًا إلى هايا.

●●●

بعد قليل أدير محرك السيارة وهايا بجانبي تمارس هوايتها المفضلة:

- ماجبتش المية يعني؟!

خانتني الذاكرة هذه المرة، ولكن بشكل مختلف، أتذكر قولي لها أنني سأجلب ماءً، ولكنني نسيت كأي شخص طبيعي. مصدومًا أغمض عينيَّ وأنا أخبط مقود السيارة برأسي محاولاً تحضير وجبة سريعة من الكذب داخل عقلي.

- ملقتش محلات فاتحة.

الميكروويف الصغير داخل عقلي لا يعمل..

- إنت عارف إن إنت كداب فاشل؟

لا أعرف إن كان ذلك مدحًا أم ذمًا، أهرش خلف أذني محاولاً تفادي النظر إليها لتكمل هي:

- أمال اللي ورانا ده إيه؟

بالحركة البطيئة أدير رأسي ناظرًا إلى ما تشير إليه؛ محل صغير في واجهته العديد من أرفف الشيبس والمقرمشات، البسكويت، وثلاجة كبيرة بها العديد من علب العصائر، المياه الغازية، وبالطبع.. الكثير والكثير من قنينات المياه.

- تصدقي ما شفتهوش.

أقولها خابطًا كفي بكفي الآخر في عدم تصديق مزيف، أستحق جائزة أوسكار لأفشل ممثل في العالم بجدارة!

- لا والله؟

- مش لازم أجيب مية بقى، مبقتش عطشان، إنتِ عطشانة؟

أقولها وأنطلق بالسيارة متجاهلاً نظرات هايا التي عقدت ساعديها أمام صدرها في استعداد تام للانقضاض عليَّ في أية لحظة.

●●●

- وصلنا.

أقولها مشيرًا إلى العجلة الكبيرة المضيئة المعروفة بالساقية التي تدور في بهجة تامة، خلف الأسوار القرميدية العالية.

- الملاهي؟!

تقولها هايا رافعة حاجبيها في انبهار لا أعرف إن كان حقيقيًا أم مصطنعًا.

- مش قلت لك هبسطك.

obeikandi.com

أقولها بفخر يتفوق على فخر عنترة بجلب المئة ناقة الحمراء لحبيبته عبلة.

نترجل من السيارة وبخطىً مسرعة نصل إلى بوابة الملاهي، نتوقف نحن الاثنان، يمنعنا رجل الأمن الواقف أمامنا بإشارة من يده قائلاً:

- شطبنا يا أساتذة.

- دي الساعة لسة ١٢!

أقولها وأنا على وشك التحول إلى تنين ينفث النار من منخاريه.

- طب بص، هاندخل بس ربع ساعة ونطلع تاني.

تقولها هايا ممسكة بمعطف الرجل محاولةً استعطافه ليجيب هو بهزة من رأسه معلنًا الرفض التام فأزيد أنا حجم الرهان قائلاً:

- طب هاندفع الضعف!

نفس هزة الرأس الرافضة.

- طب خلي الضِعف عشانك.

أقولها هامسًا وأنا أغمز له بعيني لأجد ملامحه تتخشب وأشعر أنه يتحول إلى قنبلة هيدروجينية على وشك الانفجار الآن.

obeikandl.com

- طيب طيب خلاص يا عم! يا ساتر، محسسني إننا هاندخل الوزارة.. كبة!

أقولها وأنا أجذب هايا من معصمها لنعد إلى السيارة. نبتعد عشر خطوات تقريبًا ثم تتوقف هايا ناظرة إلى الأرض في شرود تام.

- وقفتِ ليه؟ مالك؟

تستدير هي ناظرة إلى الساقية التي توقفت عن الدوران وانطفأت أنوارها لتنطفيء معها البهجة تمامًا.

- هاندخل برضه.

بكل تصميم الدنيا تقولها هي.

- ندخل إزاي؟ إنتِ مش شايفة مازنجر اللي واقف عالبوابة.

- شوية ويمشي.

- ولو، هاندخل إزاى برضه؟

- أنا عندي خطة.

تقولها هايا مبتسمة في مكر والشياطين تتراقص فوق ملامحها.

●●●

obeikandl.com

عند إحدى البوابات الخلفية ننتظر في صمت مغادرة جميع العاملين بالمكان، تميل هايا برأسها هامسة في أذني:

- استعد، خمسة وندخل.

تتسلل كلماتها إلى أذنيَّ مصحوبة برحيق فراولة يتسلل إلى أنفي، أدير رأسي ناحيتها لأجد أحد خديها قد تكور وقبل أن أستوعب الأمر تخرج هي مصاصة كبيرة من فمها وهى تغمز لي مكملة بجدية لا تتناسب أبدًا مع هيئتها والمصاصة بيدها:

- ماتخافش، هانهبأ عالمكان ونخلص الليلة كلها في ربعاية!

- نهبأ؟ ونخلص الليلة؟ أنا جبت معايا محمود المليجي ولا إيه، هو إحنا داخلين نسرق بنك يا بنتي؟!

أقولها ضاربًا كفًا بكف ثم أكمل:

- وبعدين إنتِ جبتِ المصاصة دي منين؟

- معايا كتير في الشنطة أجيب لك؟

في ثوان تحول محمود المليجي إلى طفلة لا يتعدى عمرها الخمس سنوات.

- مشيوا خلاص، امسك دول.

تقولها وتناولني المصاصة والكاميرا البولارويد المعلقة في كتفها، ثم تبدأ في تسلق الباب الحديدي بمهارة فائقة وكأنها النسخة الأنثوية من سبايدرمان، وما أن تهبط في الناحية الأخرى من البوابة تمد يدها من بين فراغات البوابة مستعيدة الكاميرا من يديَّ، تعلقها في كتفها مجدداً، ثم تمد يدها لتأخذ المصاصة مني فأرفض قائلاً:

- بتؤمني بال Reincarnation؟

- إيه؟

- تناسخ الأرواح، يعني إن الواحد ممكن يكون عاش قبل كدة حياة فاتت، كان إنسان، شجرة، كلب، حشرة.

- إيه مناسبة السؤال ده دلوقت؟

- أصل إنتِ شكلك كنتِ قردة في حياتك اللي فاتت!

مبديةً امتعاضها تختطف المصاصة من يدي قائلة:

- انجز يلا!

- يلا إيه!؟

- يلا نط!

أتفحص البوابة من أسفلها لأعلاها في تشكك وحيرة هارشًا رأسي محاولاً هضم تلك المعضلة.

- إخلص!

تخرج الكلمة منها بصوت عال نسبيًا لا يتناسب مع سرية المهمة التي نحن بصددها.

- طيب طيب وطي صوتك!

أقولها ثم أفرك يديَّ محمّسًا نفسي وأشعر أن عقلي يسخر مني قائلاً « سقفة للنبي »، أهز رأسي شكًا فيما أنا على وشك فعله وأبدأ في التسلق.

أصل إلى نصف البوابة وأتوقف لأستل أنفاسًا عدة ناظرًا إلى هايا التي تطوق خاصرتها بكلتا يديها ناظرة إليَّ في حنق:

- ما تخلص، إنت طالع إفرست!

ولأن الإنسان جشع بطبيعته، فقد قررت أن أقوم فيما يشبه القفزة محاولاً إمساك طرف البوابة العلوي بيديَّ متخطيًا خطوتين كاملتين، وجاء العقاب سريعًا.

لم يكن بالارتفاع الشاهق، ولكن للسقطة على المؤخرة إحساس آخر! تشعر وكأن ثورًا ضخمًا يركض بسرعة مائتي ميل في الساعة قام بنطحك.

obeikandl.com

لم يخفف ألم السقطة إلا صوت ضحك هايا المكتوم ومحاولاتها المستميتة أن تسيطر على نفسها وهى تخبط بيديها على ركبتيها.

أشعر أنني في فيلم كوميدي، يجلس المخرج على كرسيه غير راضٍ عن أدائي المثير للشفقة.

أنهض من جديد متألمًا، أتحسس فقرات ظهري التي أشعر أن تسعة منها قد انتحروا للتو.

أتسلق مجددًا لاعنًا جشعي وقد قررت ألا أتهور من جديد حتى لو لزم الأمر أن أصل في نصف ساعة. بعد دقائق أصل إلى قمة البوابة، أرفع قدمي اليسرى، جسدي، ثم قدمي اليمني، ها أنا في الناحية الأخرى و...

أسمع في داخلي رجل الكلاكيت يواجه الكاميرا قائلاً:

«مشهد الوقعة تاني مرة» ثم كليك! يقرقع الكلاكيت.

باختصار إنها سقطة أخرى، نسخة طبق الأصل من السقطة الأولى، يالمؤخرتي المسكينة.

والآن سينتصب المخرج واقفًا ثم يصرخ في حبور قائلاً:

«كت! هايل يا أستاذ! اللي بعده»

أعتـدل جالسًـا في مكانـي ناظـرًا إليهـا، هـذه المـرة لـم تسـتطع هايـا كتمـان ضحكاتهـا، ولكنهـا اسـتطاعت أن تضحـك علـى الوضـع الصامـت، ولكـن لا مهـرب مـن ال vibration.

- إنـت عـارف، مـش لازم ندخـل الملاهـي خـلاص، باللـي إنـت عملتـه ده، أنـا كأنـي دخلـت الملاهـي والسـيرك وعشـرين فيلـم لإسـماعيل ياسـين.

مشـاهدتها تضحـك أمامـي بتلـك الرقـة وشـعرها الفضـي يتبعثـر حـول رأسـها يجعلنـي أشـعر بمـدى سـخافة القمـر في السـماء فوقنـا، ومـا عـدت أعـرف مـن يضـيء الليـل الآن، القمـر أم هـي..

ألا تخجـل مـن نفسـك؟ وأنـت تحظـى بـكل تلـك الشـعبية وهـى مـن تسـتحقها وليـس أنـت؟

تواضعًـا فقـط تركـت هايـا مكانهـا لـك، لتحـظ أنـت بكامـل المديـح، قبيـح أنـت بجانبهـا أيهـا القمـر.. قبيـح جـدًا..

تمـد لـي يدهـا فأنهـض ممسـكًا بهـا، يذكرنـي ذلـك بـأول مـرة التقيتهـا، فأبتسـم وتتسـع ابتسـامتي، تسـتغرب هـي فتسـأل:

- بتضحك على إيه؟

- دايمًا بقع قدامك، وإنتِ اللي بتساعديني أقوم من تاني.

obeikandl.com

خجـلاً تنظـر إلـى الأرض مبتسـمة، تعيـد خصلـة هاربـة مـن شـعرها خلـف أذنهـا ثـم تنظـر في عينـيَّ مباشـرةً قائلـة:

- بس المرة دي أنـا بضحـك مش متضايقـة، وكمـان الدنيـا ليـل مـش نهـار.

تبًـا، إنهـا تفهـم كل شـيء بـدون أن أشـرح أي شـيء، كـم هـي سـاحرة، أقتـرب منهـا وبجديـة تامـة أقـول:

- تفتكري ناسا هاتسكت على حاجة زي دي؟

- ها؟ حاجة إيه؟ إن الدنيا ليل ومش نهار؟

- لا، على وجودك معاه في نفس الليل.

أقولهـا مشـيرًا بإصبعـي إلـى القمـر دون أن أحـرك عينـيَّ عنهـا، وقبـل أن تقـوم بـأي رد فعـل أكمـل:

- أعتقد هايعملوا نبأ عاجل يقولوا فيه..

أتنحنح ثم بنبرة تشبه نبرة مذيعي الأخبار أكمل:

«أعلنـت وكالـة الفضـاء الأمريكيـة ناسـا عـن ظهـور قمـر ثـانٍ لكوكب الأرض تم اكتشـافه منـذ قليـل بملاهـي المعمورة بالإسـكندرية وقـد..»

تضع سبابتها على شفتيَّ لأصمت، فتحيلني تمثالاً حجريًا يتفتت من تأثير تلك اللمسة، تسحب يدها بابتسامة خجلى تحيل قلبي طفلاً صغيرًا عمره شهران يتم دغدغته فيضحك منتشيًا.

تنظر لي نظرات متقطعة، تبل شفتيها ثم تستعيد جرأتها مرة أخرى قائلة:

- إنت شكلك كنت بغبغان في حياتك اللي فاتت.

تبًا إنها تستخدم جُملي الخاصة ضدي! أود أن أقرص خديها الآن تعبيرًا عن غبطتي!

أعتقد أنها تقرأ أفكاري، أجدها تبتعد خطوتين إلى الوراء عاقدة حاجبيها مكملة بجدية:

- يلا بينا! إحنا جايين نلعب ولا إيه؟

الماكرة تتلاعب بالألفاظ، تجيد هي فن الكلام، بل تتقنه.

تبدأ في الركض مبتعدة فأتبعها حتى نصل إلى الساحة التي تتوسط جميع الألعاب فنتوقف نحن الاثنان. متفحصة الألعاب تنظر حولها ٣٦٠ درجة ثم تستقر بعينيها عندي قائلة:

- ها؟ إيه رأيك نبتدي بإيه؟

- نبتدي بإيه؟ إنتِ جاية تباتي هنا؟ هي لعبة واحدة وندعي ربنا إننا نعرف نقعد فيها ٥ دقايق بس قبل ما يتقبض علينا!

- جمد قلبك كدة وما تبقاش خرع!

تدير عينيها من جديد في أنحاء المكان متمتمة بصوت خفيض:

- الساقية.. مملة.. العربيات.. هبلة.. ال.. مممم.. .. عرفت!

تقول كلمتها الأخيرة بصوت أعلى نسبيًا عن سابقتها ثم تتركني قائلة:

- إستنى هنا.

تمر دقيقتان وأنا أنتظرها ثم فجأة يعود المكان إلى الحياة مرة أخرى، الكهرباء تسري في الألعاب الواحدة تلو الأخرى، حتى يشع النور في المكان بأكمله وتعود هي مرة أخرى.

- يلا، هانبتدي باللعبة.. .. دي!

تقولها مشيرة إلى لعبة الخيل التي تدور فوق عجلة أفقية (الكاروسيل) تسير خطوتين باتجاهها ثم تتوقف قائلة في شرود:

- بس معقول هانلعب في الهدوء ده؟ عايزين أى دوشة كدة.. مزيكا!.

بابتسامة شيطانية تستدير ناظرةً إليَّ ثم تتركني مجددًا، لا أعرف إلى أين.

أقل من دقيقة وأرى العجلة وما يتصل بها من خيل تبدأ في الدوران، تبدأ في التسارع قليلاً في نفس الوقت الذي تعود هايا فيه راكضة نحوي، تجذبني من يدي كطفل صغير حتى نصل إلى اللعبة، تقفز هي على أحد الخيول مشيرة إليَّ بالقفز على واحدٍ آخر.

أقفز على أحد الخيول الاصطناعية بجانبها قائلاً:

- إنتِ شغلتِ الحاجات دي كلها إزاى؟

- من الكونترول روم!

- ودخلتِ إزاى الكونترول روم؟

ترد فقط بابتسامتها الشيطانية رافعة سلسلة مفاتيح أمام وجهي وكأنها تمسك فأرًا صغيرًا من ذيله.

- يا بنت الـ! إزاى؟

تغمز قائلة:

- فكر شوية!

أتذكر لحظة إمساكها معطف حارس الأمن فأخبط جبهتي بيدي لا إراديًا قائلا لها:

- آه يا بنت الحرامية! طب وفين المزيكا؟

مغمضة عينيها ترفع ثلاث أصابع بيدها تتكمش إلى اثنين، ثم واحد، و.. .تبدأ الموسيقى في اللعب، ويصدح صوت فرانك سيناترا في المكان بأكمله قائلاً:

Fly me to the moon.. Let me play among the stars

Let me see what spring is like, on Jupiter and Mars

In other words, hold my hand.. In other words, baby kiss me.

(طر بي للقمر، دعني ألعب بين النجوم.. دعني أرى كيف يكون الربيع على سطح المشترى والمريخ.. بكلمات أخرى.. أمسك يدي.. بكلمات أخرى.. حبيبي قبّلني).

عزيزي سيناترا، أنا لا أحتاج أن أحلق إلى القمر، أنا بالفعل في مداره الآن والنجوم تدور من حولنا.. .أما الربيع فهو في

obeikandi.com

قلبـي.. ولا حاجـة لـي بالمريـخ أو المشـترى، فكوكـب الأرض بأكملـه ملـك يمينـي.. بكلمـات أخـرى، أنـا في حقيقـة أروع مـن أروع حلـم..

تـدور بنـا الخيـل أمـا الزمـان فيتوقـف، يتطايـر شـعرها الفضـي إلـى الـوراء فيخيـل لـي أنـه غبـار جنيـات سـحري، وأننـا في قصـة خياليـة، بيتـر بـان؟ أليـس في بـلاد العجائـب ربمـا؟ أم السـاحر أوز؟

تهـز رأسـها محركـة شـفتيها لتحاكـي كلمـات الأغنيـة مبتسـمة، تنظـر لـي فتتسـع ابتسـامتها وهـى لا تـزال تغنـي بصـوت سـيناترا، لـو يعلـم سـيناترا أن تلـك الشـفاه سـتحاكيه لعـاش للأبـد.

لـو أن هنـاك مقياسـًا للسـعادة فأعتقـد أنـه تعـدى قمتـه بمراحـل كثيـرة الآن في قلبـي، وفي الحقيقـة أنـا لـم أعـد أعـرف مـن منـا يصطحـب الآخـر في تلـك الرحلـة، أنـا أم هـي..

قـد يظـن مـن يرانـي الآن أننـي سـعيد لأننـي في مدينـة مـلاه، لا يعرفـون أن هنـاك مـدن ملاهـي بأكملهـا تشـيد داخـل قلبـي الآن، فقـط لأن هايـا بجانبـي.

حينمـا أنظـر في عينيهـا أؤمـن تمامًـا بـأن الجنـة يمكـن أن تتجسـد علـى هيئـة شـخص.

تمسـك الكاميـرا ملتقطـة صـورة لـي، وبشـفتيها تسـارع لالتقـاط الصـورة التـي خرجـت لتوهـا مـن الكاميـرا. تناولنـي الكاميـرا، تهـز

الصورة في يدها كمروحة صغيرة لتجفيفها، وتناولني إياها هي الأخرى ثم بيديها الصغيرتين تتشبث بالعامود الحديدي الذي يصل حصانها بالعجلة الكبيرة، ثم تنهض متسلقة العامود واقفة على ظهر الحصان، يالجرأتها!

تفلت كلتا يديها العامود لتتشبث به من جديد وهي تنظر لي ممازحة، ينخلع قلبي خوفًا عليها، شحوب وجهي يكشفني فتضحك قائلة بصوت عالٍ:

- ما تخافش، قوم إنت كمان!

لا أريد أن أبدو جبانًا في عينيها، أعلق الكاميرا بكتفي، وأضع الصورة في جيبي ثم أحاول النهوض متشبثًا بالعامود الحديدي حتى أصير واقفًا أنا أيضًا على ظهر حصاني، مبتسمًا في فخر يخالطه الخوف أنظر إليها، ترفع هي ساقها اليمني ناحيتي تهديدًا بدفعي عن ظهر الحصان.

- يا بنت المجنونة.. بس! هقع!

تطلق هي ضحكة عابثة أخرى، ثم تتسع عيناها قائلة:

- يا جبان!

تصل الأغنية إلى نهايتها حينما تبدأ اللعبة في التباطؤ

تدريجيًا، فتعود هايا للجلوس على حصانها من جديد قائلة:

- ها تلعب إيه تاني؟

و مع نهاية كلماتها أسمع صوت سارينة الشرطة يقترب مدويًا من بعيد.

- يا نهار أسود! شكلنا هانلعب عسكر وحرامية.

أقولها وأقفز عن الحصان أرضًا، لا أعرف كيف واتتني الشجاعة لفعل ذلك.

أركض خلف العجلة التي مازالت تدور مادًا يديَّ لهايا لتقفز فتمسك بها مصطدمة بي في رقة، أجذب يدها وأركض ناحية الباب الخلفي الذي جئنا من خلاله وفي نصف المسافة تتوقف وتجذبني هي ناحية غرفة التحكم، تترك يدي ثم تختفي بالداخل وتعود بعد ثوان وفي يدها آيبود صغير، هذا هو مصدر صوت سيناترا الذي كشف أمرنا بالطبع، ناهيك عن أضواء الملاهي وضوضائها!

نركض من جديد حتى نصل إلى الباب الخلفي، أساعدها هذه المرة على تسلق الباب وأتبعها منفذًا المهمة هذه المرة في رشاقة سببها الأدرينالين المندفع إثر الفخ الذي وقعنا به.

نبتعد حتى نصل إلى السيارة، نستقلها مغادرين الشارع

الجانبي مرورًا بالشارع الرئيسي الذي يحتوي على الملاهي التي نرى عددًا من سيارات الشرطة متراصة أمامها والعديد من ضباط وجنود الشرطة الذين يرمقوننا في تحفز، وقبل أن نختفي تمامًا عن أنظار الجميع، تقع عيوننا على عينيّ شخص نعرفه ويعرفنا تمام المعرفة، حارس الأمن.

ناظرة إليه في مكر تشير إليه هايا بأصابعها وكأنها تلعب على بيانو وهمي في الهواء، ثم ننطلق مبتعدين.

●●●

متبعًا إرشاداتها أخرج من بوابة المعمورة التي جئنا من خلالها، ثم أتوقف بالسيارة جانبًا محاولاً السيطرة على أنفاسي المضطربة حين تصدمني فكرة ما.

- اللّه! طب صحيح! لما إنتِ معاكِ المفاتيح من الأول كان إيه لزوم البهدلة والنط والشقلبة والنيلة السودة اللي كنا فيها دي؟

بشغف يخالطه المكر ترد:

- وإنت عايز كل حاجة سهلة كدة؟ لازم يبقي فيه أكشن وحركات، وبعدين مكانش ينفع أفوت على نفسي فرصة إني أشوفك وإنت بتتشقلط كدة.

قالتها وانفجرت هذه المرة في الضحك، لم تعد بحاجة إلى الوضع الصامت.

- إنتِ مش بني آدمة، دي مش مراهقة متأخرة، دي طفولة متأخرة.
- بس ما تنكرش إنك انبسطت!
- مش أنا اللي بعيط م الضحك دلوقت.

أقولها وأدير محرك السيارة منطلقًا من جديد.

- هاتودينا على فين المرة دي؟
- حتة عمرك ما رحتيها قبل كدة.

بسخرية الدنيا ترد:

- المالديف؟
- لا هاواي يا خفيفة.
- لا بجد، هانروح فين؟
- حتة م الجنة.

●●●

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر- قطعة من الجنة

Chapter Eleven – A Piece of Paradise

بعد دقائق من القيادة الصامتة أمد يدي لها دون أن أحرك عينيَّ ناحيتها قائلاً في حزم:

- اديني الموبايل بتاعي.

- لا.

- يا بنتي دقيقة بس.

- قلت لا!

- يا بنتي افهمي، محتاج أعمل مكالمة ضرورية عشان المكان اللي رايحينه.

- مكالمة واحدة!

- حاضر.

- واحدة بس!

- يا ستي حاضر، هاتي بقى.

obeikandl.com

تخرج هاتفي من حقيبتها ثم تناولني إياه في تحفظ، أتناوله، أفتحه ثم أعبث بأزراره قليلاً وأخيرًا أقوم بإجراء مكالمة، يرن الهاتف عدة مرات ثم يرد الطرف الآخر:

- آلو؟

- أيوة يا ريس حجازي، عايش معاك، أنا جاي في السكة قدامي بتاع تلت ساعة، اجهز بقى زى ما اتفقنا.

- ماشي مستنيك.

- تمام، مع السلامة.

أنهي المكالمة ثم أعبث ببعض أزرار الهاتف فتختطفه مني هايا، تغلقه وتعيده داخل الحقيبة مرة أخرى وتخرج آيبود فضي من نفس الحقيبة قائلة:

- بلاش استهبال بقى!

تقولها بجدية تامة، ثم تضع السماعات الواصلة بالآيبود في أذنيها، تعبث بأزراره ثم تبدأ في الرقص بيديها ونصفها العلوي على نغمات أغنية تلعب في أذنيها لا أسمعها أنا.

●●●

obeikandl.com

في غضون عشرين دقيقة نصل إلى وجهتنا، أتوقف بالسيارة مطفئًا محركها، ثم أربت على كتف هايا التي مازالت تتمايل على أنغام الموسيقى مغمضة عينيها.

تنتبه هي، تخلع السماعات من أذنيها قائلة:

- إيه؟

- وصلنا، يلا ننزل.

- إحنا فين؟

أفرد الخريطة في المساحة الفاصلة بيننا ثم أقوم برسم علامة (x) ثالثة فوق نقطة أخرى قائلاً:

- هنا.

- أبو قير؟

أومىء برأسي فتدير هي رأسها تتفحص بعينيها المشهد حولنا، المنازل المتهالكة المكونة من طابق واحد، القوارب الخشبية المهترئة التي تتراص على الشاطئ وكأنها تنتظر حكمًا جماعيًا بالإعدام، وذلك الكلب البني الهزيل الذي يرقد مستسلمًا بجانب أحد المنازل، تهم هي بالنزول ممسكة بحقيبتها الظهرية فأمسك بالحقيبة قائلاً:

- سيبيها هنا، مش هانحتاجها في المكان اللي رايحينه.

تتردد هي قليلاً ثم تترك الحقيبة وتغادر السيارة. ألتقط حقيبة ظهر كبيرة من المقعد الخلفي وأغادر السيارة أنا الآخر وأتأكد من غلق أبوابها، ثم أقف بجوار هايا عاقدًا ساعديَّ، تستل هي نفسًا عميقًا ناظرة إلى البحر الواسع أمامنا، تضع يديها حول خاصرتها، تزم شفتيها ثم تزفر بعمق.

- أنا ماجبتش معايا swim suit.

- ومين قال اننا جايين نعوم؟

- أمال؟ هنستلم شحنة مخدرات تحت المية؟

- بطلي تتفرجي عالتليفزيون، الأفلام هاتبوظ لك دماغك يا هايا.

أقولها مشيرًا إلى رأسها بسبابتي.

- طب جايينا هنا ليه؟

- هاتعرفي دلوقتي.

- يوه، ماتقول بقى!

- لو صبر القاتل عالمقتول!

obeikandi.com

- اخلص بدل ماقتلك بجد!

- شايفة اللانش اللي هناك ده؟

- آه.

تنظر هي ناحية القارب البخاري الذي أشرت إليه بيدي فأكمل أنا من جديد:

- مستني أنا الريس حجازي عشان..

و قبل أن أكمل أشعر بيدٍ تربت على كتفي من الخلف فألتفت مذعورًا لأجده الريس حجازي، يقترب من الستين عامًا، امتصه الزمن واغتصبته السنين فأصبح كعود ثقاب محترق ذو شارب كث، يلف حول رأسه وشاحًا على شكل عمامة كبيرة.

- إيه يا ريس حجازي، وقعت قلبي!

يضحك هو فيهتز شاربه مصحوبًا بخشخشات آتية من صدره كمحرك قطار بخاري متهالك، يوشك على الخروج عن قضبانه الحديدية، تبًا للحشائش التي يشعلها في صدره.

يضحك هو أكثر حتى يسعل، ثم يتوقف تمامًا عن الضحك ماسحًا شاربه بسبابته وإبهامه، ثم يعبث بالخاتم الذي يحاصر بنصره قائلاً:

obeikandi.com

- إنت ما قلتش إنك جاي مع حد، كدة الحسبة تختلف.

- عايز كام؟

- كلك نظر.

- الضِعف.. مرضي يا عم؟

- أيوة بس.. .

يقولها متفحصًا هايا بعينين يملؤهما الجوع فأدير رأسه ناحيتي معطيًا له رزمة مالية قائلاً:

- مابسش، وهديك الحساب مقدم.

- ماشي، زي بعضه.

يقولها متجهًا إلى القارب وهو يحصي الأموال التي التقمها مني لتوه مشيرًا لي بأن أتبعه.

أمسك أنا يد هايا وأسير وراءه حتى نصل إلى القارب فيتوقف مشيرًا إلى القارب قائلاً:

- زى ما علمتك المرة اللي فاتت، وما تضغطش قوي عالموتور أحسن يعطل، وما تغيبش هناك.

- ماشي يا ريس حجازي، يلا يا هايا.

obeikandi.com

أقولها مساعدًا هايا على الصعود إلى القارب، ألقي بالحقيبة بجوارها ثم أتبعها جالسًا بجانب المحرك، أديره كما علمني هو من قبل مدونًا تعليماته بالحرف الواحد.

يدور المحرك بسلاسة فأتحرك بالقارب ملوحًا لعم حجازي وأبتعد بالقارب أكثر.

●●●

بعد نصف ساعة نصل إلى وجهتنا الجديدة.. .الشاطئ..

أطفئ المحرك وأترجل نازلاً على العتبة الرملية ثم أساعد هايا على النزول، أتجه إلى منطقة أعلى نسبيًا فوق أرض الجزيرة، تتبعني هايا ممسكة بيدي، نصل بعد قليل إلى بقعة مستوية من الرمال فأتوقف قائلاً:

- إيه رأيك في المكان؟

تنظر حولها محاولةً استكشاف المكان ثم تنظر لي قائلة:

- بص هو المكان لطيف، بس أنا مش شايفة حاجة والدنيا هُس قوي!

- ثانية واحدة.

obeikandl.com

أعود إلى القارب مقتلعًا الحقيبة من أرضيته، ثم أرجع إلى هايا واضعًا الحقيبة أرضًا، أفتحها وأخرج ما بها من أشياء..

جذوع خشبية قصيرة، علب ثقاب، عصي خشبية رفيعة، فروع أشجار جافة، جرائد ورقية، أطعمة معلبة ومشروبات، دفتر أوراق (بالطبع ليس دفتري الخاص بالذكريات!) وأقلام.

- إيه كل الحاجات دي؟ مفيش شمسية وكرسيين بالمرة؟

أتجاهل دعابتها ثم أجثو على ركبتيَّ وأبدأ في صنع حفرة صغيرة في الرمال، ثم أبدأ في تعميقها، أتفحص الحفرة التي صنعتها من أجل إزالة أية صخور أو أحجار بها، لا أجد إلا صخرتين صغيرتين. ألتقط عددًا من أوراق الجرائد وأضعها عشوائيًا في الحفرة، أكور البعض الآخر وألقي بها في الحفرة هي الأخرى، ثم أقوم بتكسير فروع الأشجار ملقيًا إياها مع كرات الأوراق. ألتقط الجذوع الخشبية وأقوم برصها على شكل خيمة دائرية فيما يشبه خيمات الهنود الحُمر حول أوراق الجرائد وفروع الأشجار.

بعد ذلك أشعل عود ثقاب فيطفئه الهواء، أشعل واحدًا آخر وألقي به داخل الخيمة الخشبية/الورقية التي صنعتها، فتبدأ الأوراق في التهام نيرانه، أشعل عود ثقاب آخر وألقي به وراء

زميله فتلتهم الأوراق نيرانه هو الآخر، ثوان وأرى النيران تبدأ في الانتشار داخل تلك الخيمة الصغيرة، أجلس متربعًا، أعبث قليلاً بالآيبود الذي معي فتبدأ في اللعب أغنية اخترتها خصيصًا من أجل تلك اللحظة، Bonfire Heart بصوت James Blunt.

أمد يديَّ ناحية اللهب محاولاً امتصاص بعض الدفء وأنظر لهايا منتظرًا رد فعلها.

- برافو.. هايل هايل هايل..

تقولها هي مصفقة بيديها في انبهار ثم تجلس بجانبي، تمد يديها هي الأخرى من أجل بعض التدفئة.

أخلع معطفي للمرة الثانية وأضعه على كتفيها قائلاً:

- ها؟ إيه رأيك في المكان دلوقتي؟

تنظر حولها مجددًا، إلى خيمة اللهب، ثم تنظر إلي قائلة:

- حلو قوي، بس إنت شكلك محترف bonfire (موقد ناري)

- أصل أنا باجي هنا كتير، كنت بخلي حد من رجالة الريس حجازي يجيبني ويرجع ياخدني بعد ٣ أو ٤ ساعات، بمشي قبل الصيادين ما ييجوا الساعة ستة، ده مكاني المفضل، بحب أهرب هنا من كل الدنيا، بعيد عن الزحمة والدوشة، بعيد عن العالم.

- بتيجي تعمل إيه هنا؟

- أكتب، أقرا.. أفكر.. أو مافكرش، أمدد وأبص للنجوم وبس، هنا الرؤية بتبقى أحسن، عشان مفيش عمارات وعربيات وأنوار ودخان ونيون ودوشة.

- مممم.

- الليل هنا بيبقى أسود قوي، وكل ما الليل يبقي أسود أكتر، النجوم فرصتها إنها تلمع بتبقى أكبر.

- بس أنا أول مرة أشوف الجزيرة دي.

- نيلسون.

- ها؟

- الجزيرة، اسمها نيلسون، اتسمت على اسم قائد انجليزي اسمه هوريشيو نيلسون، عشان انتصر بسببها على برويس اللي كان قائد أسطول نابليون ساعتها.

- ده إنت مذاكر بقى.

- تاكلي حاجة؟

قبل أن ترد ألتقط لفافة من على الرمال وافتحها ثم أخرج منها ست قطع مارشميلو، أغرز عودًا خشبيًا رفيعًا في ثلاث منهم،

obeikandl.com

وأفعل المثل بالثلاث الأُخر، أناول هايا أحد الأعواد، وأحتفظ بالآخر مقربًا طرفه المغروز في قطع المارشميلو من النار، أما هايا فتضع عودها جانبًا معلنة عدم رغبتها في تناوله. أقلّب الأعواد في النار حتى ينضج المارشميلو ويكاد يذوب، فأبدأ في التهامه بحذر حتى لا يحترق فمي.

- ما تيجي نلعب؟
- نلعب إيه؟
- أنا شايفاك جايب معاك ورق وأقلام.
- آه
- خلاص تعالى نلعب أوتوبيس كومبليت.

لم يكن هذا الغرض الذي جلبت الأوراق من أجله، أهم بقول شيء ما حينما تكمل هي مجددًا:

- وعلى فكرة، اسمها أصلاً إتس كومبليت (it's complete) مش أوتوبيس كومبليت، بس إنت عارف الشعب المصري بيحب يحط التاتش بتاعه في كل حاجة.

أضحك مناولها ورقة وقلم، وأبدأ في تخطيط الورقة وأفكر قائلاً لنفسي حمدًا لله أنني أعرف تلك اللعبة التي اعتدت أن ألعبها حينما كنت صغيرًا قبل أن تتداعى ذاكرتي.

ننتهي من رسم خانات اللعبة على الورق ثم تنظر لي قائلة:

- يلا، أنا هبدأ.. حرف النون!

تقولها وتنطلق في الكتابة بسرعة خارقة.. و كأن حياتها تعتمد على ذلك. أحاول أنا إيجاد الكلمات المناسبة، وأبدأ في كتابتها حينما تصرخ هي:

- خلاص! إتس كومبليت!

أنظر لها محاولاً كتابة كلمة إضافية فتنقض مختطفة القلم من يدي.

- إيدك يا حرامي! يلا نراجع

- طيب

- ولد: نور

- نادر

- بنت: نيّرة

- نورا

- جماد: نجفة

- مفيش

obeikandl.com

- حيوان: نمر

- مفيش

- بلد: نيوزيلاندا

- مفيش

- أكلة: نعناع

- مفيش!

- يبقي أنا كدة ٦٠ من ٦٠ وإنت ٢٠ من ٦٠.. يا فاشل!

- إنتِ نصابة أساسًا، مجهزة كل الكلام في دماغك من قبل ما نبدأ.

- وربنا أبدًا، يلا اختار حرف.

- مممم عين!

أقولها وأنطلق أنا في الكتابة، أبدل النظر بين ورقتي ووجهها، أعتقد أنها تواجه مشاكلاً جمّة في إيجاد الكلمات المناسبة ولكن بعد نصف دقيقة أجدها تهتف:

- خلصت! أتوبيس، قصدي إتس كومبليت!

- يوووه!

- اسم ولد: عايش.

أبتسم، ولمن لا يعرف فأنا أبتسم لسببين، لأنها تذكرت أن تختار اسمي ولم أفعل أنا، ولأنها قالت اسمي للتو، سماعه ينطلق من بين شفتيها له مذاق آخر.

- اخلص!

- عمر

- اسم بنت: علا.

- عاليا.

- جماد: عجلة.

- مفيش

- عنكبوت

- عحمار؟

تضيق عينيها قائلةً:

- هانستعبط بقى؟ بلد: عمان

- مفيش

- أكلة: عصيدة

obeikandl.com

- مفيش

- كدة أنا ٦٠ من ٦٠ وإنت ٢٠ من ٦٠ تاني!

- خلاص كفاية لعب كدة.

- جبان!

تلقي بالورقة والقلم جانبًا، تخلع معطفي عنها وتضعه خلفها أرضًا، تستلقي على ظهرها ساندةً رأسها على يديها مستخدمةً المعطف كوسادة، فأفعل المثل وأستلقي أنا الآخر على ظهري فنصير ضلعي مثلث متساوي الساقين يشاهد الليل والنجوم والقمر.

- عايش..

قالته مرة أخرى.. .قلبي يهوي، مخترقًا جسدي والرمال..

- نعم..

- إيه أغرب فكرة جت في بالك قبل كدة؟

- مممممم.. .. إن في يوم م الأيام هاتيجي سفينة فضائية كبيرة قوي تاخدني، وأكتشف إني أصلاً كائن فضائي، وأرجع بقى الكوكب بتاعي و.. .

- أيوة أيوة وترجع الكوكب بتاعك وتبقي ملك على الكوكب

obeikandl.com

كلـه والفيلـم الحمضـان ده..

- خالـص، مـش قصـة ملـك، قصـة إنـي أروح كوكـب ماحسـش فيـه إنـي غريـب زي مانـا حاسـس هنـا.

- عشان مجنون يعني؟ طب مانا أجن منك.

- مإنتِ من نفس الكوكب بتاعي.

- يابني أنا ملكة الكوكب بتاعك!

- اللّه! مش كان فيلم حمضان من شوية؟

- ده لما كان فيلمك إنت..

- لا تصدقـي أقنعتينـي، حقيقـي!.. طـب وإنـتِ إيـه أغـرب فكـرة جـت في بالـك؟

- متهيألـي أغـرب فكـرة هـي إنـي أقابـل نفسـي وأنـا صغيـرة، متهيألـي مـش هسـتحملني وهضربنـي بالنـار!

- كنتِ شقية؟

- كنت رخمة قوي، قوي يعني..

- أرخم من دلوقتي؟

تسدد ركلة إلى ساقي اعتراضًا فأتأوه في ألم.

obeikandl.com

- آسف آسف، تعالي نلعب لعبة تانية طيب.

- إيه هي؟

أنهض جالسًا ممسكًا ورقة وقلم أناولها إياها، وأمسك ورقة وقلم أخريين.

- اكتبي أكتر ٣ أمنيات نفسك تحققيها في الورقة دي، وأنا هعمل كدة برضه، وهانبدل الورقتين وكل واحد يقرا أمنيات التاني.

- مممم، ماشي.

تنهض هي الأخرى ممسكة بالورقة والقلم وتبدأ في كتابة أمنياتها.

- الله، ما تكتب إنت كمان!

- حاضر.

أمتثل لأمرها وأبدأ في الكتابة أنا أيضًا!

في غضون عشر دقائق نكون قد انتهينا وتبادلنا الأوراق، ثم أبدأ أنا في قراءة أمنياتها الثلاث بصوت طفولي متباطئ:

- أقدم عرض قدام أحسن جمهور في العالم.. هو إنتِ بتغني؟

- لا

- ممم بتمثلي؟

- لا برضه..

- رقاصة يا هايا؟

أضحك عاجزًا عن إكمال باقي القائمة فتعبس هي قائلة:

- هانتريق بقى؟ هات الورقة.

تحاول انتزاع الورقة مني فأتفادى يدها محاولاً كتم ضحكاتي.

- خلاص خلاص، بس بجد عايزة جمهور ليه؟

- عقابًا ليك مش قايلة لك!

- ليه القفش طيب؟ نكمل.. أطول السحاب بإيديا.. مم طب وليه مش النجوم يا هايا؟

- إنت قلت أمنيات مش تخاريف!

- ممم تمام.. أطلع في فيديوكليب لـ Coldplay.

- اتريق، مستنياك تتريق.

- لا مش هتريق.

obeikandi.com

أبتسم في هدوء ثم أطوي الورقة وأضعها جانبًا.

- أما نقرا أحلامك إنت بقى يا سي عايش.

تقولها ثم تتربع وهى تمسك الورقة وكأنها على وشك تخريط عشرة كيلوجرامات من الملوخية!

- أملك العالم ولو دقيقة.. العالم كله يا عايش؟

- العالم كله يا هايا.

- ممم ماشي..

- أعيش حياة حد تاني ليوم واحد، استني استني.أبوس سكارلت جوهانسن.

نوبة أخرى من الضحك تصاب هي بها منقلبة بظهرها على الرمال وكأن شخصًا خفيًا يدغدغها، تخبط الرمال بيدها محاولة السيطرة على نفسها دون جدوى، تنهض جالسة من جديد قائلة:

- إنت مسخرة!

- وإنتِ مناخوليا.

مغمضة عينيها تقبل الهواء أمامها قائلة:

- أسكارلت أحبيبة قلبي، أنا عجن عليكِ.

أعتـرف أنهـا تقتلنــي ضحـكًا الآن ولكـن كبريائــي يمنعنــي أن أســخر مـن نفســي.

- أنا هموتك!

- أهون عليكِ أحبيبة قلبي؟

تقولهـا فأنقض عليهـا في محاولـة وهميـة لخنقهـا، فتنقلـب على ظهرهـا مجـددًا وبالتبعيـة أنقلـب أنـا فوقهـا، أثبـت يديهـا أرضًـا بيـديَّ دون أدنــى مقاومــة منهــا وســط ضحكاتهــا التــي بــدأت تهــدأ وهــي تسـتل أنفاسًـا طويلـة، اللهـب بجانبنـا يـزداد اشـتعالاً، أرى انعكاسـه يتراقـص في عينيهـا، شـعرها المنثـور حولهـا أرضًـا، ليـل معجـون بفضـة وكأن الأرض والقمـر تناوبـا علـى غزلـه سـويًا، الأغنيـة التـي قمـت بتشـغيلها حينمـا وصلنـا أسـمعها تكـرر نفسـها للمـرة الألـف، جيمـس بلانـت يـروي إحساســي في هـذه اللحظـة:

You light the spark in my bonfire heart

أقتـرب منهـا بوجهـي، نبضـات قلبـي تتسـارع محاكيـة إيقـاع الأغنيـة، أقتـرب منهـا أكثـر، يفصـل بيننـا سـنتيمتران فقـط، تغمـض هـي عينيهـا، تتأهـب مطـارات شـفتيها اسـتقبالاً لهبـوط شـفتيَّ عليهـا.

سنتيمتر واحد يفصل بيننا و.. .

ضـوء سـاطع يضـرب عينــيَّ قادمًـا مـن أحـد جوانـب الجزيـرة،

أنهض محاولاً معرفة مصدره، قارب بخاري يتبعه قارب ثاني وثالث ورابع، تبًا..

مساعدًا هايا على النهوض أقول:

- قومي بسرعة، الصيادين وصلوا.

- إنت مش قلت بييجوا على ٦؟

أنظر في ساعة يدي وأكمل:

- أهم جم بدري ساعتين على حظنا المهبب.

ألملم الأشياء الهامة ملقيًا بها في الحقيبة وأمسك بيد هايا ونركض ناحية القارب، أساعدها على الصعود ثم ألحق بها، أنطلق بالقارب مغادرًا الجزيرة لحظة وصول القوارب إليها من الناحية الأخرى.

●●●

ثلاثة كيلومترات من الصمت المطبق نعبرها عائدين إلى شاطئ أبي قير، من حيث جئنا.

أنظر إليها فتتحاشى نظراتي، تنظر إليَّ فأتحاشى نظراتها، وكأننا تلميذان في المرحلة الابتدائية قد تخاصما لتوهما. أخيرًا

obeikandl.com

تنهض هي لتجلس بجانبي، تنظر لي نظرة مطولة، تستل نفسًا عميقًا وكأنها على وشك التهامي، ثم تقترب مني قائلة:

- عايش.. ما تديني أسوق شوية.

تبًا، لم يكن هذا ما توقعت أن يخرج من بين شفتيها.

- إيه؟

- هات، هات أسوق شوية.

- هي عجلة!

- والنبي والنبي، أجرب دقيقة بس.

- لا.

- عشان خاطري.

تلوي شفتيها تضرعًا ممسكة بياقة قميصي تهزني استعطافًا مقتربة بوجهها مني، أنفاسها الساخنة المحملة برحيق الفراولة يمنحني فكرة عن مذاق الجنة على أبواب شفتيها. أشيح بوجهي هاربًا من النعيم الذي يطاردني.

- هاتبوظيه يا هايا.

- مانت بتسوق أهو مفيش مشاكل.

obeikandi.com

- عشان أنا متعلم أسوق إزاي.

- ده إنت لسة متعلم امبارح!

- لا يا هايا، قلت لأ.

تضع يدها على وجنتي تحرك وجهي ناحيتها مرة أخرى، الخدر يسري في خلاياه، ينتقل إلى جسدي بأكمله، أشعر أنني سأذوب سائلاً في أرضية القارب في لحظات.

- عايش..

كيف يخرج اسمي من شفتيها بذلك السحر؟

- نص دقيقة بس، بص إحنا قربنا نوصل أهو.

تقولها مشيرةً إلى الشاطئ الذي بدأت تتضح ملامحه من بعيد.

- نص دقيقة بس!

- ماشي.

تقولها مصفقة بيديها وقد استحالت طفلة في الرابعة من عمرها وعدتها للتو باصطحابها لتناول المثلجات، تحاصر وجهي بكلتا يديها، تطبع قبلة على وجنتي في سرعة، ثم تنظر إلى المحرك بعينين تلمعان في جذل.

obeikandl.com

شفتاها بتلات ورود وصمتي، ويداها خيوط حرير مستني..

- ها قوللي بقى أعمل إيه؟

تشلني المفاجأة للحظات، أنظر إليها بعينين متسعتين واضعًا يدي على موضع الجريمة العذبة التي حدثت فوق وجنتي منذ لحظات. تنظر لي في خيبة أمل، ثم فجأة وبلا أية مقدمات تصفعني صفعة رقيقة على وجنتي الأخرى، وكأنها تخيف القُبلة التي وضعتها منذ قليل بعيدًا، وتخرجني من جمودي.

- اخلص، قربنا نوصل.

أستفيق أخيرًا مشيرًا إليها بإمساك دفة المحرك قائلاً:

- امسكي هنا كدة وخليكِ مثبتاه.. و بس!

- بس كدة؟ طب ماهي سهلة أهي يا عم، محسسني إني هسوق تايتانك!

تقولها ممسكة بدفة المحرك، ثم تبدأ في تحريكها يمينًا ويسارًا فيهتز بنا القارب مضطربًا.

- يا بنت المجنونة! قلت لك خليكِ مثبتاه.. هاتقلبينا في المية!

- المية حلوة، المية حلوة مفيش كلام.

تقولها محاكية لهجة محمود عبد العزيز في فيلم إبراهيم الأبيض، كاتمًا ضحكاتي أنظر إليها في تحد، ونظل على تلك الحال لفترة من الوقت متجاهلين القارب والبحر والليل و.. الصخرة الصغيرة أمامنا..

هل قلت صخرة؟ تبا! أحرك دفة المحرك قليلاً و.. .. ..

حسنًا، أنا لا أعلم لكم من الوقت ظللنا محلقين في الهواء، أنا وهايا والقارب وحقيبة الظهر الصغيرة..

منفصلين عن القارب في الهواء تنظر لي بعينين متسعتين وكذلك أفعل أنا، تمد يدها نحوي كمحاولة استنجاد أخيرة لا فائدة منها، مروحة محرك القارب الصغيرة تدور أمامنا ببطء في الهواء نافضة عنها مياه البحر العالقة بها.

لحظات ثم حدث الارتطام، أقصد خمسة ارتطامات، أنا وهايا، والقارب وحقيبة الظهر وشيء آخر..

ولا تأتي المصائب فرادى، فالقارب الذي اصطدم بالصخرة وحلق بزاوية حادة في الهواء للحظات، هبط على الماء مجددًا، ولكن منقلبًا على وجهه.

أنظر إليها بعينين تكادان أن تحرقاها لومًا، تحاول هي طرد الماء من فمها وأنفها، تعرف هي أنني أود قتلها في تلك اللحظة، تضيق عينيها قائلة:

- الميه حلوة، الميه حلوة مفيش كلام.

- الميه حلوة ها؟

أرشها بالماء مكملاً:

- الميه حلوة مش كدة؟

تضحك هي محاولةً تفادي الماء الذي أرشه نحوها، ثم تبدأ في صد هجومي برش الماء نحوي هي أيضًا. شعرها الفضي المبلل، أحمر شفاهها الذي التقمه البحر الجائع من فوق شفتيها، والماسكارا التي غسلها متوضئًا بها، بشرتها البضة التي تنافس الشمس على إرسال خيوط النور الأولى إلى هذا النصف من العالم.

ملحوظة إلى نفسي: لابد أن أدون قائمة للغيرة على هايا، البحر هو أول عنصر في تلك القائمة.

هل هي حقيقية، أم هي مجرد لوحة زيتية تتشكل في مخيلتي أنا فقط؟

لحظات نادرة كتلك، تجعلك تود أن تكون حبيسًا بداخلها للأبد، لحظات تجعل من العالم مكانًا أفضل. لحظات تجعلني أنسى الكارثة التي تنتظرنا على الشاطئ، كارثة اسمها الريس حجازي.

obeikandl.com

هل كنا على وشك الموت؟ شيء مؤكد، هل أنا في مأزق؟ بالطبع أنا في مأزق عظيم، أو كما يقول الأمريكيون I’m in deep shit، أحاول أن أتخيل سيناريوهات مناسبة لما سيفعله الريس حجازي بنا.

سيناريو رقم واحد:

سيقوم بتقطيعي إلى شرائح رفيعة، نقعي بالخل والليمون والتوابل اللازمة ثم يعمد إلى شوائي وغمسي في الباربكيو وأخيرًا سيقوم بإطعامي إلى ذلك الكلب البني الهزيل الجاثم أمام بيته، وجبة لطيفة تكفيه لثلاثة أيام على أقل تقدير.

سيناريو رقم إثنان:

سيقوم بربطي إلى مقعد خشبي متهالك، صب الماء على جسدي العارِ بغزارة، ثم يقوم بصعقي بالكهرباء على فترات متقطعة حتى يهترئ لحمي، أرجو أن أتفحم في النهاية وينتهي ذلك الكابوس.

سيناريو رقم ثلاثة:

سيقوم بربطي في أحد الأسرة الطبية، ثم بمنشار كهربائي سيلجأ إلى نشر أوصالي وتركي حيًا إلى أطول وقت ممكن حتى يتسنى لي مشاهدة كل ذلك، ثم يبدأ في.. .

يكفي.. أشعر أنني سوف أتقيأ..

obeikandl.com

تتساءلون عن مصير هايا؟ حسنًا مصيرها واحد في كل تلك السيناريوهات، بالطبع ستصير عاهرته!

- عايش!

تقولها هايا مصفقة بيديها وكأنها تخرجني من غيبوبة طويلة، أنتبه إليها فتكمل:

- هانعمل إيه دلوقتي؟

- هناخدها عوم لحد الشط.

- والقارب؟

- الله يرحمه، ويرحمنا كمان شوية.

أقولها ثم أسبح ناحية الحقيبة الطافية فوق سطح الماء، ألتقطها واضعًا إياها على ظهري، ثم أشير إلى هايا لتتبعني.

●●●

أصل أولاً إلى الشاطئ، أزحف بضعة مترات، ألقي بالحقيبة جانبًا ثم أرتمي منهكًا على ظهري.

تصل هي في غضون ثوانٍ.. حافية القدمين أراها تتهادى خارجة من المياه في تبختر تام، وكأننا نقضي يومنا الأول من شهر عسلنا في المالديف، أنظر إليها في هيئتها تلك وأؤمن تمامًا في هذه

obeikandl.com

اللحظة بأن حوريات البحر حقيقيات ولسن بأساطير.. حكايات الجدات أصبحت كلها الآن حية أمامي.

تقف على الشاطئ للحظات، ترتفع الشمس من خلفها على استحياء، ترسل خيوطًا من اللونين البرتقالي والأحمر في محاولة للسيطرة على السماء البنفسجية فوقنا.

تسرق هايا المشهد بكل روعته موارية الشمس خلفها. هل أشهد أول كسوف شمسي في حياتي؟ تهز رأسها لتنفض عن شعرها الماء العالق به، فتنطلق سلاسل شعرها الفضي في الهواء حولها وكأنها شمس تشع أمامي، شمس فضية.

تؤرجح رأسها يمينًا ويسارًا فتتطاير قطرات المياه تاركة شعرها وهى تتمنى ألا تفعل، تميل برأسها أفقيًا وكأنها تتوسد الهواء، تجمع خصلات شعرها المبتلة بين يديها وتعصرها فتقطر نبيذًا على الرمال تحتها، كم أحقد على حبيباته التي امتصت نبيذها.

قائمة الغيرة قد ازدادت عنصرًا آخر: الرمال.

بضفيرة تتدلي على كتفها تعيد رأسها إلى وضعها الطبيعي، تلمحني فتبتسم رافعة حاجبها الأيسر في تحدٍ مثير. ضربة قاضية تمامًا في منتصف قلبي..

الحصيلة:

- ازدياد واضح في معدل ضربات القلب.
- ارتجاج في المشاعر.
- احتمالية وجود صعوبة في النطق.
- انعدام الاتزان بشكل ملحوظ.
- ارتفاع درجة حرارة القلب والإحساس العام بالمراهقة المتأخرة.

تتهادى من جديد مقتربة مني حاملة في عينيها ذات النظرة التي صوبتها إليَّ على جزيرة نيلسون قبيل المحاولة الفاشلة لقبلتنا غير المكتملة.

تقترب أكثر ثم تتجمد في مكانها وكأن عصفور حط على رأسها للتو، وتتبدل تلك النظرة بنظرة أخرى يختلط فيها الخوف بالمفاجأة من شيء ما يكمن خلفي.. شيء اسمه الريس حجازي.. أنهض مواجهًا إياه، تتراجع هي خلفي ممسكة بكتفيَّ، أشعر بالحرارة التي يضخها جسدها المختبئ خلفي، أنفاسها الخائفة تستقر خلف أذنيَّ.

- حمد لله عالسلامة يا عايش بيه.

يقولها حجازي محركًا رأسه يمينًا ويسارًا محاولاً اغتصاب

obeikandi.com

هايا التي تختبيء خلفي بعينيه، ملوكًا شيئًا وهميًا في فمه، ثم يكمل:

- أمال فين اللانش يا بيه!؟

ترتجف هايا من خلفي لأول مرة فيرتجف قلبي معها، هذا لا يساعد أبدًا.

- اللانش آه.. اللانش سبناه في الجزيرة.

- والله؟ سبتوه؟

يخطو خطوتين ناحيتي رافعًا حاجبيه في دهشة مصطنعة ثم يكمل صانعًا يمامة بيديه:

- وجيتوا إزاي بقى؟ طايرين؟

- لأ.. عايمين!

مصححًا له أقولها بسذاجة فيقترب هو محاولاً الالتفاف حولي ليحظى بزاوية رؤية جيدة لهايا، تدور هايا إلى الناحية الأخرى هربًا منه مستخدمة جسدي كدرع تحركه أمامها.

- تعوموا ٤ كيلو؟

يضحك وكأنه يزدرد مزحة ثقيلة، ثم يصمت فجأة مكملاً:

- ممم طب واللانش أجيبه إزاي دلوقتي؟

obeikandl.com

يقولها ناظرًا إلى الأرض وهو مازال يدور حولنا واضعًا يديه خلف ظهره كقائد عسكري مخضرم من الأربعينيات.

- ممكن تتصل بحد م الصيادين اللي هناك يجيبهولك وهو جاي.

لا أعرف ما الذي جعل هايا تتبرع بإعطاء تلك النصيحة الفذة الآن.

«حسبي اللّه» أهمسها مغمض العينين.

- طب ما الأمورة بتقول أفكار حلوة أهي.

يقولها مخرجًا هاتفه من جيب جلبابه.

- بس يا خسارة مفيش شبكة هناك، أنا عندي فكرة أحلى بقى.

أبلع ريقي في صعوبة قائلاً:

- إيه هي؟

- انتم تيجوا عندي جوة في البيت معززين مكرمين، تآنسوني وتشربوا حاجة بالمرة لحد ما حد من رجالتي اللي هناك في الجزيرة يرجع بالقارب.

obeikandl.com

أسترجع في عقلي السيناريوهات الثلاثة لتعذيبي على يد الريس حجازي فأشعر بالغثيان.

أحاول أن أستجمع قواي للخروج من ذلك المأزق، أنظر يساري لأجد الكلب البني الهزيل يبادلني النظر، ينبح فيذكرني بالسيناريو الأول، أخاطبه في عقلي قائلاً: لن يعجبك مذاقي، حتى ولو تم غمسي بالباربكيو لثلاثة أيام متتالية.. هاو هاو.. نباح آخر.. صدقني.. هاو.. حسنًا لابد أنك جائع.

- بص يا عم حجازي، أنا عندي حل أحسن.

- قول.

- أنا هديك ٥٠٠ جنيه اعتبرها تأمين، اعتبرها رهن، وهانمشي إحنا، عشان ورانا مشاوير مهمة جدًا، ومنين أما آجي تاني أبقي آخدهم منك.

- ٥٠٠ إيه؟

تلكزني هايا في كتفي فأبصق كلماتي:

- ألف، هسيب لك ألف.

- مممم.

oberkandl.com

يلوك عم حجازي الفكرة في عقله ثم ينظر في عينيَّ مباشرةً قائلاً بصوت أجش:

- ولا يكفيني ١٠٠ ألف جنيه!

يقولها ملوحًا بكفيه في وجهي.

يبدو أنني عبثت مع الشخص الخطأ، أتراجع أنا وهايا مبتعدين عن الشاطئ، ويخطو هو نحونا، فأوقفه بيدي قائلاً:

- طب بص هقول لك حاجة..

- مابصش، اللانش يرجع أسيبكم تمشوا.

- هو ماله قافش كدة ليه؟

تقولها هايا هامسة في أذني. يرن هاتفه فيجيب متلهفًا:

- الو.. الو!

يقترب أكثر من الشاطئ لالتقاط إشارة الشبكة موليًا لنا ظهره.

- وصلتم؟ وبعدين؟

يبدو مندمجًا في المحادثة فأعطي الإشارة لهايا بالتسلل إلى السيارة، أطمئن إلى وصولها للسيارة ثم أتبعها سائرًا بظهري في حذر دون أن أحرك عينيَّ عن حجازي.

obeikandl.com

- يعني إيه مش لاقيينه! ما تدوروا كويس يا زفت إنت وهو!

يقولها صارخًا في محدثه على الطرف الآخر فأجفل أنا.

أخرج المفاتيح من جيبي بسرعة مبدلاً النظر بينها وبين عم حجازي الذي شارف على إنهاء المكالمة، أفتح باب السيارة أخيرًا و..

أرى قاربًا يشبه القارب الذي أغرقناه منذ قليل يقترب من الشاطئ يقف على مقدمته رجل ضخم يصرخ بشيء لا أستطيع تمييزه، يقترب أكثر فيتضح صوته لأسمعه يقول:

- ياريس حجازي! يا ريس حجازي! الحق اللانش راح نصين والحاجات غرقت في المية!

نظرة واحدة نتبادلها أنا وهايا مع عم حجازي الذي استدار لمواجهتنا، نظرة واحدة كافية لكي نفهم أن السيناريوهات الثلاث مجتمعة ستحدث لنا، نستقل السيارة بسرعة البرق وننطلق بها تلاحقنا سبّات ولعنات حجازي الذي يهرول وراءنا هو ورجاله وكلبه البني الهزيل الطامع في لحمي المغموس في الباربكيو!

●●●

مجرد التفكير بكِ يجعلني أتلون ذهباً..

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر – على الطريق

Chapter Twelve – On the Road

نحتاج إلى عشرة كيلومترات من السير هربًا بالسيارة حتى نكتشف أننا نسينا الحقيبة الظهرية وراءنا، هناك، في أبي قير، على الرمال، بين براثن الريس حجازي.

- الحاجات زمانها اتبلت كلها أصلاً، ولا ليها لازمة خلاص.

- على رأيك.

- نرجع ناخدها؟

- آه وماله، نرجع ناخدها عشان ربنا ياخدنا.

تهز هايا كتفيها رافعة حاجبها الأيسر بلا مبالاة حقيقية قائلة:

- هايحصل إيه يعني؟!

أقلدها رافعًا كتفيَّ إلى الأعلى قائلاً:

- ولا حاجة، هايعملنا سوسيس، أو شاورمة، إنتِ بالذات هايعملك سكالوب.

- مممممم، تصدق أنا جعت.

تفاجئني هي بردودها غير المتوقعة دائمًا.

- طيب هانشوف أي حاجة عالطريق نجيب منها أكل.

- الواحة.

- ها؟

- الواحة، واحة عمر.. هايبقى فيه كل حاجة، أكل وشرب وكدة.

- ماشي.

تبًا لم أدرس الطريق جيدًا، ولم أسافر من خلاله من قبل.

- بس ما قلتليش رايحين على فين المرة دي؟

- افتحي الخريطة

تفتح هي طيات الخريطة فاردة إياها من جديد، بلمحات سريعة أحاول تحديد موقعنا ووجهتنا التالية من دون أن يشتتني ذلك عن الطريق أمامي.

- هنا.

أشير إلى نقطة تقع في أحد شوارع القاهرة، تخلع هي غطاء القلم الفلوماستر بأسنانها، ثم تضع علامة (x) على النقطة التي أشرت إليها قائلة:

obeikandi.com

- الحتة دي في الزمالك صح؟ إنت ودينا النادي الأهلي ولا إيه؟

- والله فكرة مش بطالة، بس خليها المرة الجاية.

- أمال هانروح فين؟

- الأوبرا.

أقولها مبتسمًا محاولاً التركيز على الطريق أمامي تاركًا هايا تقاتل فضولها في حلبة مصارعة مغلقة.

●●●

أحكمت الشمس سيطرتها تمامًا على كل شبرٍ من السماء وهربت فلول الليل متوعدة بالعودة مرة ثانية بعد خلود الشمس إلى النوم. أرتدي نظارتي الشمسية ناظرًا إلى الطريق الممتد أمامي، والمساحات شاسعة من الصحاري التي تتواتر على جانبيه، وأقرر أن أكسر الصمت:

- حـ

كنت على وشك قول اسمها الذي تكرهه حينما قاطعتني بهزة من رأسها مصحوبة باتساع تحذيري من عينيها فتنحنحت معدلاً ما كنت سأقول:

- إنتِ ليه بتكرهي اسمك صحيح؟

- بحس إنه بيخليني عندي سبعين سنة.

- مممم طيب هايا، إنتِ ما خفتيش؟

- أخاف من إيه؟ مش فاهمة.. من حجازي ده وكدة؟

تقولها جاعلة أصابعها تتخلل شعرها الذي بدأ البلل ينحسر عن معظمه.

- لا.. مني.. أقصد يعني إنك تيجي معايا الرحلة، واحد غريب ما تعرفيهوش.

أقولها ضاربًا بكفي الأيسر على مقود السيارة لترد هي أوتوماتيكيًا:

- وإنتِ هاتعمل لي إيه يعني؟

- مش يمكن أنا قتال قتلة! أو أخطفك مثلاً..

تنطلق ضحكتها مجلجلة في السيارة وكأنها سمعت أحد إفيهات سعيد صالح في مسرحية العيال كبرت، تضحك أكثر، تعتدل في جلستها، ثم تربت على كتفي في استخفاف مصطنع قائلة:

- تخطفني أنا؟ إتكلم على قدك يا بابا، أنا أخطفك وأخطف عشرة زيك.

obeikandl.com

فأنظر لها غير مصدق قائلاً:

- إنتِ جايبة الجبروت ده منين يا بنتي، شكلك ما يجيبش خالص.

- آه على أساس إني حلوة وطعمة وباربي وضعيفة ومستكينة والمفروض بقى لما تقوللي أخطفك والكلمتين دول تقوم جتتي تتلبش وركبي تخبط في بعض وأعيط وأصوت وألم الناس وكدة؟

- جتتي تتلبش!؟

أقولها بصوت غير مسموع وكأنني أقولها لنفسي غير منتبه لما تفعله هي في نفس الوقت، أستدير إليها لأجدها تحاكي لهجة الريس حجازي ساخرة من نفسها:

- طب ما الأمورة بتقول أفكار حلوة أهي!

- أفكار إيه؟

أسألها متخوفًا مما تفكر فيه فتنظر لي في براءة مجيبة:

- أصوت وألم الناس.

تتسع عيناي متوقعًا ما هي على وشك فعله ولكنها لا تنتظر الكثير، أجدها تخرج رأسها من النافذة وبكل ما أوتيت من قوة أسمعها تصرخ:

obeikandi.com

- الحقووووووووووني، يااااااالهووووووي، أنا مخطوووووووفة يا نااااااااس!

- يا بنت الـ

أقولها وأنا أحاول جذبها لداخل السيارة بيد، وباليد الأخرى أحاول السيطرة على مقود السيارة التي بدأت تنحرف عن الطريق.

تعود هي إلى مقعدها لتذهب في موجة من الضحك أشد هستيرية من سابقتها، مبدلة الأدوار بين النظر إليَّ والعودة إلى الضحك مرة أخرى، تهدأ أخيرًا ماسحةً عينيها التي تدمع بأطراف أصابعها بكل رقة ثم تنظر لي ضاحكة وكأنها شيطانة صغيرة قائلة:

- شكلك مسخرة!

أحاول تحاشي النظر إليها ثم أنهض جزئيًا بجسدي محاولاً النظر في المرآة أعلى لوحة القيادة فأجد وجهي قد احمر تمامًا كثمرة طماطم تم قطفها للتو، العرق يتصبب بغزارة فوق جبهتي وكأنها تحولت إلى حمام سباحة، أتناول منديلاً من العلبة أمامي مجففًا نفسي دون أن أرد عليها لتنطق هي من جديد:

obeikandl.com

- ها عجبتك؟

تقولها وقد خلعت قناع الشيطانة الصغيرة التي تحدثت منذ ثوانٍ، وارتدت قناع ملاك بريء، وللحظة شعرت أنني أجلس في السيارة مع فتاتين مختلفتين!

- إنتِ مجنونة صح؟

تحرك حاجبيها في جذل لإغاظتي، حسنًا، الشيطانة الصغيرة عادت للعمل مرة أخرى.

- وأنا اللي كنت بقول إن أنا اللي مجنون!

أقولها ضاربًا مقود السيارة بكفي الأيمن في تعجب حقيقي.

- ما تقولش على نفسك كدة، إنتَ كميل.

تكور شفتيها وهى تقرص خدي الذي في متناولها وكأنها تدلل طفلاً صغيراً، فأحاول التملص منها قائلا:

- والله إنتِ مش طبيعية.

- بس ممثلة هايلة مش كدة؟

تصفق بيديها في براءة وكأنها طفلة صغيرة قد أخبروها للتو أنها ستذهب إلى ديزني كمكافأة على عملها الجيد طوال العام.

obeikandl.com

- أنا نفسي صدقت إني خاطفك بجد.

- بس أنا حزين يا بومبا، حزين وقلبي زعلان.

تنظر إلى الأسفل ماطةً شفتيها في حزن لا أعرف إن كان حقيقي أم مصطنع، أحاول ألا أضحك متجاهلاً أنني بومبا وهى تيمون وأسألها:

- زعلانة.. ليه؟

- كل الصريخ ده ومحدش عبرني يا عايش، الناس مبقاش عندها شهامة ولا مروَّة.

- مروَّة! إنتِ مواليد سنة كام بالظبط يا هايا؟

واضعة خصلة من شعرها أعلى شفتيها وكأنها شارب، تتصنع فجأة الجدية متقمصة شخصية زكي رستم وترد:

- صدقني يا عايش بيك، أنا لسة صغيرة.

- أنا راكب مع عالم سمسم شكلي!

أقولها محاولاً ألا أذهب في نوبة للضحك مماثلة لنوباتها هي كي أظل متحكمًا في السيارة لتعاجلني هي بجملة أخرى:

- أنا أشعر بشيء من السخرية في حديث سعادتك، إذن.. لابد أحفظ كل ذرة من كبريائي وأصمت.

تقولها ثم تضع يدها على وجهها متصنعة الصدمة وهي تتأوه، وهذه كانت هي الضربة القاضية لجدار جديتي، انهرت ضاحكًا وأنا أحاول السيطرة على موجة الضحك التي انتابتني لتنتقل العدوى مني إليها.

●●●

مرت نصف ساعة ومازلنا على الطريق إلى القاهرة، تخرجني هايا من تفكيري قائلة:

- الدنيا بدأت تحرر.

تقولها ثم تخلع عنها الصديري الكحلي الذي تلبسه لتظهر من تحته بلوزتها البيضاء قصيرة الأكمام، تلقي بالصديري إلى المقعد الخلفي بلا مبالاة، حافية القدمين ترفع ساقيها واضعة إحداهما على الأخرى فوق لوحة القيادة أمامها، واضعة يديها في جيوب الشورت الجينزي السماوي القصير الذي ترتديه.

كيف لي أن أجابه ترسانة أسلحتها تلك، قد تجعل هتلر يحيا من جديد ثم يطلق النار على نفسه مرة أخرى. يهوي قلبي في قدميَّ وأنا أشاهد حورية البحر الجالسة بجانبي في السيارة.

أفكر بلمسها لأتأكد أنها حقيقية ولكنني أعدل عن تلك الفكرة، وأكتفي بالمشاهدة، هي الوحيدة التي يمكنها أن تصنع مني

متحرشًا بدرجة لواء! تدير وجهها ببطء ناحيتي لتمسكني بالجرم المشهود وأنا أحدق في كل إنشٍ منها خالعًا نظارتي الشمسية. تلكمني بقوة قائلة في عبث:

- اللّه! بص قدامك.. هاتتقلب بينا يا عم!..

يالسخريتها الساحرة، عضلات قلبي تعمل بأقصى قوتها كي لا يتوقف بسببها، وكأن قلبي تحول إلى واحدةٍ من تلك المراهقات اللاتي كن يتعرضن للإغماء في حفلات مايكل جاكسون.

في المذياع، تبدأ أغنية

Beautiful Girl - William Fitzsimmons

تجلس هي بجانبي، تغمرها أشعة الشمس وكأنها تحتضنها لشدة جمالها، كم أغار أنا من الشمس اللعينة، أضيفها إلى قائمة الغيرة.

ينطلق وليام بالغناء قائلاً:

My God, the Sun, The windows bare your bones, Reveal you crime.

(يا إلهي.. تعرِّي الشمس والنوافذ جسدك.. تكشف جريمتك)

وما أجمل جريمة من تلك، وما أشدها فتكًا بي..

obeikandi.com

تدير وجهها ناحيتي مزيحة خصلة من شعرها إلى الخلف، تنظر لي بعينين مغمضتين نصف إغماضة محاولة تجنب غزل الشمس لها، أطيل النظر إليها فتبتسم قائلة:

- بتبص لي كدة ليه؟

- هى ماينفعش الأيام تبقي كلها كدة؟

- كدة إزاي؟

لا أزال ناظرًا إليها ودون أن أرمش أرد:

- متزوقة بيكِ..

تشيح بوجهها في خجل فأعاجلها قائلاً:

- طب مإنتِ بتتكسفي أهو، أمال فين عضلاتك اللي فارداها علينا يا عم جون سينا.

لكمة قوية تعاجلني هي بها أعلى كتفي فأتأوه متحسسًا إياه قائلاً في ألم:

- يا ساتر يارب، قاعد جنب هرقل.

- جزمة.

- اشتمي اشتمي، هحدفك م العربية وربنا!

- هصوت تاني!

- أنا آسف، بهزر يا ستي.. بلاش أهزر؟

تتجه يدي لتفتح نافذة سقف السيارة لأجلب قليلاً من الهواء.

تنظر هي إليه مبتسمة في براءة ودون أن تحرك عينيها تقول:

- كان نفسي أعمل كدة من زمان.

تقولها وقبل أن أسألها ماذا تقصد تقف هي على مقعدها مخرجة نصف جسدها العلوي من نافذة سقف السيارة، يتطاير شعرها الفضي خلفها وكأنه يسابق السيارة، تميل برأسها إلى الوراء مغمضة عينيها فاردةً ذراعيها في الهواء صانعة أجمل طائرة بشرية في الوجود، وكأنها تحتضن العالم بأكمله، شيء آخر لأضعه في قائمة الغيرة خاصتي.. العالم.

تصرخ ضاحكة في نشوة إثر اصطدام الهواء بوجهها..

الهواء أيضًا؟.. اكتظت القائمة عن آخرها.. أنظر إليها وأفكر مبتسمًا، أهاربة هي من حلمٍ ما؟ أم أنا من تم اختطافي عمدًا إلى ذلك الحلم.. تنتهي الأغنية لتبدأ أغنية أخرى في اللعب

Sky Full Of Stars التي تغنيها فرقة ColdPlay

يخرج صوتها عاليًا محاولاً مقاتلة الهواء ونغمات الأغنية ليصل إليَّ:

obeikandl.com

- بحب الأغنية دي قوي!

- وأنا كمان.

كاذبًا أقولها بصوت عالٍ أنا الآخر مقاتلاً في صفها الهواء والأغنية بصوتي، هكذا تتعادل الكفتان.

لا أنسى أن أضم الأغنية أيضًا إلى قائمة الغيرة..

تعود هي إلى مقعدها جالسة، تنظر إليَّ بعينين متسعتين في جذل رهيب قائلة:

- طب غني!

- إيه؟

- غني!!

تقولها مشيرة إليَّ بيديها وكأنها مايسترو يقود أوركسترا.. أوركسترا صغيرة مكونة مني ومنها، السيارة.. و قلبي.. .

- بغني أهو!

- غني من قلبك!

- أغني من قلبي!.. إحنا في إعلان حاجة ساقعة ولا إيه؟

- إنت بتتلامض كتير ليه.. يلا غني..

obeikandl.com

قالتها وهى تهز رأسها مع الأغنية التي تضخ نغماتها من سماعات السيارة، ثم تغلبها السعادة فتقف مخرجة رأسها مجدداً من النافذة وهى تغني صانعة الطائرة البشرية من جديد وتحلق بنا عاليًا.

«الرجاء من السادة الركاب على متن خطوط هايا الجوية ربطة أحزمة الأمان، لأننا على وشك الإقلاع بالطائرة متجهين إلى عواصم البهجة والجمال، زمن الرحلة المقدر: مقدار لا نهائي من الوقت.» أسمعها تتردد في أرجاء عقلي.

تواتني فكرة ما وأشرع في تنفيذها فورًا، أمسك بالكاميرا مجهزًا إياها على وضع الفيديو، وأبدأ في تصوير هايا محاولاً القيادة في نفس الوقت.

●●●

بعد نصف ساعة نصل إلى الواحة، فأركن السيارة في المكان المخصص لركن السيارات، ألاحظ عدداً ملحوظًا من الدراجات النارية تأخذ مساحة لا بأس بها من موقف السيارات.

تفرد هايا الخريطة مجدداً ثم تقوم بعمل (x) جديدة على نقطة تواجدنا، تطوي الخريطة وتلتقط الكاميرا البولارويد ثم تغمز لي وتترجل من السيارة. أغادر السيارة وأتأكد من إغلاقها

ثم أتبع هايا إلى الداخل، الصداع يلتهم رأسي، أحتاج إلى برميل من الشاى وصندوقًا من الحبات المسكنة!

- أنا عايز أشرب شاي.

- حاضر.. هتاكل وتشرب وتعمل كل اللي نفسك فيه، إحنا هانروح المطعم دلوقتي.

- وعايز أجيب مسكن، دماغي هاتتفرتك م الصداع!

- حاضر.

- وعايز أ..

تتوقف هايا ناظرة لي بنفاذ صبر قائلة:

- عايز تعمل بيبي؟

وكأنها أمٌ توبخ طفلها الصغير السخيف، تعبث بيدها في شعري تصالحني على ما فعلت، تعدل من وضع الكاميرا المعلقة في رقبتها مكملة سيرها وهى تلتقط صورة للدراجات النارية العديدة المتراصة جنبًا إلى جنب، يبدو أنها لاحظتها هي الأخرى.

متجهين إلى المطعم نمر بعدة محلات من بينها محل لبيع الأسطوانات والشرائط الموسيقية، كشك صغير لبيع المكسرات والفواكه المجففة، صيدلية، محل لبيع الحقائب والأحذية، أستغرب من وجود مثل تلك المحلات في قلب الصحراء، من قد يتوقف لشراء حقيبة أو حذاء؟

أتذكر أن هايا قد فقدت حذاءها عند الشاطئ، أنظر إلى قدميها التي تمشي بهما حافيتين، حقًا يالسخرية القدر! أمسك بمعصمها معدلاً مسارها باتجاه محل الأحذية، تنظر لي للحظة ثم تفهم على الفور، تبتسم ناظرة إلى قدميها، تحرك أصابعها لهوًا ثم تعقد ساعدها بساعدي وندخل المحل سويًا.

نمضي الدقائق بين الكثير من الأحذية والحقائب والقبعات والأوشحة، والنظارات الشمسية وبالرغم من أننا نريد فقط شراء فردتيَّ حذاء لعينين، إلا أن هايا قررت أن تجرب ارتداء المحل بأكمله، بحقائبه، بأحذيته، بقبعاته وأوشحته ونظاراته الشمسية، بسلطاته وبابا غنوجه!

ولم تكتف هايا عند ذلك الحد، ولكنها تمادت في جعلي أجرب ارتداء كل الأشياء معها، ملتقطة لنا صورًا كثيرة ونحن نفعل ذلك كمهووسين فقدا عقليهما تمامًا في وسط الصحراء.

تضع وشاحًا أحمرًا حول رقبتي ثم.. .كليك! صورة.. تظهر هي فيها خلفي تحمل على وجهها ابتسامة واسعة. تلبسني قبعة على شكل صحن من الفواكه وتقف بجانبي معتلية مقعد خشبي مقتربة بوجهها من صحن الفواكه تفتح فمها على اتساعه وكأنها على وشك قضم عنقود العنب البلاستيكي.. ثم كليك! صورة أخرى.. !

ترتدي هي قبعة رجالية سوداء، نظارة شمسية ذات إطار أحمر منزلق على أنفها، واضعة شاربًا بلاستيكيًا، بعينين متسعتين تضع يدها على خديها في دهشة مصطنعة مخلوطة بخزي غير حقيقي، وتلبسني أنا شعرًا نسائيًا مستعارًا ذو لون وردي فاقع، تكور شفتيها وتجعلني أكور شفتيَّ كفتاة مراهقة في السادسة عشر قد انتشت للتو.. ثم كليك! صورة أخرى.. !

ألن ينفد فيلم الكاميرا اللعين ويريحني من ذلك العذاب! كليك! صورة أخرى.. آه عينيَّ!

شلالات من الصور الفورية تتساقط بين يديَّ.. ومازالت هي ترقص في أنحاء المكان بأكمله وكأنه غرفة نومها! تتصرف وكأنها تمتلك المكان، لا تبالي بنظرات البائعين أو المشترين، تتصرف وكأن العالم بأكمله قد خلق من أجلها، كم أحقد عليها!

بعد نصف ساعة من تدمير المكان حرفيًا تنتقي حذاءً قماشيًا خفيفًا مما يجعلني أكاد أمزق خديَّ لطمًا، أبتاعه لها ثم نمضي متجهين إلى المطعم وهي تسير في قفزات قصيرة وكأنها راقصة باليه هربت للتو من عرض لبحيرة البجع..

●●●

نمر بالصيدلية في طريقنا إلى المطعم، أبتاع شريطًا من حبوبي المسكنة المفضلة، ثم أخيرًا ندخل المطعم.

برغم اتساع المكان، إلا أن الازدحام بالداخل غير طبيعي، ألحظ بعض العائلات التي تتكون من أربعة أو خمسة أفراد، وهناك أزواج مثلنا، فقط رجل وامرأة، شاب وفتاة، شخص واحد فقط هو من يجلس بمفرده يحتسي القهوة ويقرأ جريدته المفضلة. وفي منتصف المكان تمامًا يتحلق الكثيرون على شكل دائرة، رجال ونساء من مختلف الأعمار، يرتدون زيًا موحدًا، يجمع بين اللونين الأبيض والرمادي، وُضعت على إحدى الطاولات في المنتصف بينهم كعكة شيكولاتة كبيرة رسم عليها بحروف حمراء:

Happy Anniversary C.S.C

يقتلني الفضول لأعرف إلى ما ترمز تلك الحروف!

أحدهم يستدير متراجعًا إلى الخلف بظهره حاملاً كاميرا عازمًا على التقاط صورة جماعية لبقية زملائه، فيظهر على الصديري الذي يرتديه كلمة Cairo Scooters Club، أخيرًا يتضح اللغز، نتبادل النظرات أنا وهايا قائلين في نفس واحد:

- ممممم الموتوسيكلات!

نومئ سويًا ثم نتابع المسير حتى نصل إلى طاولة فارغة نجلس إليها، بعد قليل يأتي إلينا أحد أصحاب الصديريات الرمادية الداكنة، يدنو من طاولتنا حاملاً في يديه صحنين تعلوهما قطعتان من الكعك، يبتسم قائلا:

- صباح الخير، إحنا بنحتفل النهاردة بمرور سبع سنين على تأسيس النادي بتاعنا، كايرو سكوترز، ومحبيناش نحتفل بيه لوحدنا.

يقولها ثم يضع الصحنين على الطاولة أمامنا، تتسع ابتسامته مبدلاً النظر بيني وبين هايا منتظرًا أية ردود.

- متشكرين قوي بجد، وربنا يوفقكم، ألف مبروك.

تنطقها هايا أخيرًا وتقتلعنا من بئر الصمت الذي وقع كلانا فيه.

- شكرًا.

يقولها الرجل مصحوبة بإيماءة رقيقة ثم يعود إلى أقرانه مرة أخرى، تدفع هايا الطبقين ناحيتي بيديها قائلة:

- كل.

- وأنا هاكل لوحدي؟ أنا طبق وإنتِ طبق.

مغمضة عينيها تهز رأسها نفيًا.

- إنتِ خايفة م التورتة؟

أغرز الشوكة في إحدى القطع ثم أوجهها ناحية فمها فتهز رأسها رفضًا، آكل أنا القطعة ببطء مكملاً:

- دي حلوة جدًا!

هزة أخرى من رأسها.

- جرى إيه يا بنتي، مش كنتِ جعانة!

أتناول قطعة أخرى من الكعكة أملأ بها فمي..

- مش هاينفع آكل التورتة، أنا نباتية.

- آآآآآه.. نباتية.. .اللّه طب وهى التورتة باللحمة؟

خيبة أمل كبيرة ترتسم على ملامحها، أعتقد أنني قلت شيئًا في غاية الغباء لتوي..

- التورتة فيها سمنة، وبيض، ولبن، و.. ..

- خلاص خلاص فهمت.. عشان كدة مكلتيش المارشملو.

أعيد الشوكة بجانب أطلال ما تبقي من قطعة الكعك، ثم أنفض يديَّ مكملاً:

- طيب هاتاكلي إيه؟ وأنا هاكل إيه؟ نشوف المينيو؟.

أفتح قائمة الطعام الكرتونية أمامي فتغلقها هي مقاطعة:

- من غير مينيو، أنا عارفة هناكل إيه.

●●●

لا أعرف من منا أجهز على الآخر، أنا أم «الفطيرة الغارقة في السمن البلدي» بصحبة القشدة، الجبن القديم، العسل الأسود، والعسل الأبيض، والنوتيلا.

ألقي بآخر لقيمة في فمي وأنا أرى هايا مازالت تأكل من طبق سلطة الفواكه أمامها في بطء سلحفاة حامل.

- إنتِ بالمعدل ده كدة ممكن نتحرك من هنا كمان سنتين ونص إن شاء الله.

- أنا شبعت أساسًا.

- هو إنتِ أكلتِ حاجة!

- يادوب.

- هو إنتِ بتعرفي تسوقي؟

- أكيد بس اشمعنى؟

- عشان بقيت حامل في الشهر السادس ومش هقدر أسوق.

أرد مربتًا على كرشي الذي ظهر فجأة في خلال النصف ساعة الأخيرة، استقر الفطير بداخله ونما وتشعب وتوغل! حتى صار كأنه كائنًا منفصلاً بحد ذاته.

- حد قال لك تاكل فطيرتين!

obeikandl.com

- أصل طعمه حلو قوي، عمرك ما جربتيه؟

تـزم شـفتيها في اشـمئزاز ناظـرة إلـى الصحـن الـذي يحـوي بقايا الفطير، أهـم أن أقـول شيئًا مـا حينمـا يقاطعنـي النـادل جالبًـا مشـروباتنا التـي طلبناهـا منـذ قليـل، الشـاي والقهـوة.

- ما تيجي نشرب الحاجة برة؟

- مفيش مشكلة.

أقولهـا وأطلـب الشـيك، أدفـع الحسـاب زائـدًا البقشـيش، ثـم أخـرج أنـا وهـايا لنجلس بالخـارج، لحسـن حظنـا أن عـددًا مـن الغيـوم قـد صنعـت حاجـزًا كثيفًـا أمـام الشـمس لحمياتنـا، نمـر بعـدد مـن الطـاولات، الأرائـك، المقاعـد الخشـبية عربيـة الطـراز.

- ما تيجي نأنتخ هنا حبة؟ والنبي والنبي؟

أقولهـا مشـيرًا إلـى إحدى الأرائـك التـي أتخيلهـا للحظـة وكأنهـا قـد نبتـت لهـا يـدان تمتـدان لـي في اشـتياق.

- عايش! انجر قدامي!

تقولهـا ممسـكة بسـاعدي دافعـة جسـدي دفعًـا إلـى الأمـام وكأننـي طفـل في أولـى أيامـه المدرسـية.

أسـير مترنحًـا كالسـكير بجانبهـا، نمـر بمدينـة مـلاهٍ مصغـرة فتغمـز لـي هـايا مبتسـمة في جـذل:

- الحق.

أبتسم أنا مجيبًا:

- اعقلي.

نستمر في السير، حتى نصل إلى حديقة حيوان صغيرة مكونة من عدة أقفاص متراصة جنبًا إلى جنب، بعض الغزلان، فرس قزم، لاما، بجع، ونعامة.

تتوقف هايا عن السير ثم تجلس قبالة النعامة في الناحية الأخرى على الرصيف، تربت على رقعة في الرصيف بجانبها مشيرة إليَّ بالجلوس فأجلس في هدوء، احتجبت الشمس خلف الغيامات التي احتلت السماء بأكملها، سأتذكر هذا اليوم يا هايا طيلة حياتي، سأتذكر جلوسي معكِ هنا.

- النعامة دي كل مرة آجي ألاقيها هنا.

تقولها هايا محدقة في النعامة دون أن يرمش لها جفن.

- وهي هاتروح فين يعني! هاتتجوز وتروح بيت جوزها مثلاً!

تنظر لي هايا باستحقار مما يشعرني بمدى غباء ما قلته، أحاول تغيير دفة الحديث قائلاً:

- صحيح إنتِ بتشتغلي؟

obeikandl.com

- اه.. فينترولكويست.

تقولها وهى ترتشف القهوة في بطء.

- إيه؟

- فينترلكويست..

تقولها وهى ترتشف القهوة مجددًا محدقة للنعامة بتركيز شديد، أرفع حاجبيَّ مندهشًا مما قالته قائلاً في سخرية:

- إنتِ ملبوسة يا هايا؟ ماشاء الله.. مجنونة وملبوسة.. ده يوم هايل، فنتر.. فنترو..

- فنترلكويست.. يعني.. هفهمك..

تضع كوب القهوة البلاستيكي أرضًا بجانبها ثم تأخذ كوب الشاي من يدي قائلة:

- اقلع..

- نعم؟

- اقلع القميص!

أخلع عني القميص غير مستوعب ما سيحدث، تتناول مني القميص، تلفه حول يدها وساعدها حتى صارتا كمومياء مصغرة تفتح فمها الكبير في وجهي.

obeikandl.com

وفجأة تكلمت المومياء!.. أقصد يدها قائلة بصوت طفولي:

- ها فهمت ولا لسة مافهمتش يا عبيط!

قالتها ثم هجمت على أنفي تلتهمه قائلة:

- هم هم هم يم يم..

متفاديًا فك المومياء المصغرة أقول مندهشًا لهايا:

- إيه ده إنتِ.. إنتِ.. !

- أيوة.. بتكلم من بطني.

- إزاى كدة.

بعينين متسعتين أقولها مبدلاً النظر بين هايا والمومياء الصغيرة/يدها وكأنني مازلت أعتقد أن يدها هي من تتكلم.

- عادي، ده فن، بالتدريب والممارسة، وأكيد الموهبة.

- بس أنا عمري ما شفت كدة في حياتي!

- بص هو مفيش ناس بتقدم الفن ده في مصر كتير، يتعدوا عالصوابع يمكن، بس في أوروبا وأمريكا، هوووو هوووو.. ناس كتير!

obeikandi.com

قالتها ثم أكملت محدثة المومياء المصغرة وأنا أنظر إليها منبهرًا وهى مستمرة في تأدية تلك المسرحية التي يتكون أبطالها منها ومن المومياء المصغرة، في النهاية تخرج يدها من القميص، تكوره وتقذفه في وجهي متخذة ملامحها تلك الابتسامة الشيطانية، أحاول تفادي القميص ممسكًا به، أضعه فوق كتفي ثم أنظر إلى الطريق أمامنا قائلاً:

- بس أنا كنت فاكرك بتشتغلي حاجة تانية.
- زي إيه؟
- ممثلة، مغنية، مودل.
- ممم كنت.
- كنتِ إيه؟
- فاشون مودل.
- وبعدين؟
- محبتش الموضوع..
- اشمعنى؟

تستل هي نفسًا عميقًا ثم تزفره بقوة وتبدأ في الكلام:

obeikandl.com

- كان لازم آكل أكل معين، وأشرب شرب معين، لدرجة إني ساعات كنت أخاف آكل أحسن وزني يزيد، وأترعب لو زاد جرام واحد.. لدرجة إني ممكن أرجع اللي أكلته. غير إن النوم بنظام والصحيان بنظام، ولازم أفضل محافظة على شكلي ٢٤ ساعة طول الأسبوع، مش بس ساعة العرض أو قدام الكاميرا، كأني حاجة قابلة للكسر، الموضوع كان مرهق جدًا، كمان كان مطلوب مني الطاعة العمياء من المصور أو الستايلست، اقفي كدة، ماتمشيش كدة، اعملي ده وما تعمليش ده.. روبوت من الآخر.

تصنع دوائرًا بقعر كوبها في التراب بين قدميها مكملة:

- ده غير إحساسي كل يوم إني ببقى فُرجة، كل العيون عليا، قصدي على الفستان اللي لابساه، كنت حاسة إني مانيكان متحرك، عروسة باربي بلاستيك.. تعرف إني كنت ممنوعة حتى إني ابتسم؟

- .. ..

- أطلع كل يوم عالمسرح الطويل ده، أعرض كام فستان وفي آخر اليوم أقبض، ولو فستان من اللي كنت لابساه اتباع باخد نسبة، بلياتشو بس شيك شوية، الفرق بيني وبينه

إن هو بيخبي دموعه ورا الماسك اللي بيضحك، أما أنا بخبي ضحكتي ورا الماسك إللي مكشر، كنت حاسة إني محبوسة جوة اللبس، زي النعامة دي بالظبط ماهي محبوسة جوة القفص.

تنهي كلماتها مشيرة بكفها إلى النعامة قبالتنا.

- بس متهيألي النعامة بتتبسط لما الناس بتجيلها.

- تتبسط؟

قالتها مستنكرة ثم نهضت مقتربة من قفص النعامة واضعة يدها على السياج الفاصل بيننا وبينها مكملةً:

- إيه الانبساط في كدة؟ تخيل نفسك مكانها.. مكان أي كائن حي فيهم.

قالتها بصوت أعلى نسبيًا مشيرة إلى أقفاص الحيوانات الأخرى، ثم أكملت:

- تخيل نفسك مكانهم كدة، محبوس ورا قضبان ملهاش نهاية، ليل نهار ما بتخرجش منها، فرجة للي رايح واللي جاي.. ده يضحك، وده يتريق، ده يرخم وده يحدفك بحاجة، وإنت لا حول ليك ولا قوة.. دي مش جنينة حيوانات، ده سجن حيوانات.

- ممم، عمري ما بصيت للموضوع بالطريقة دي، على كدة بقى إنتِ برضه ما بتحبيش السيرك؟

- السيرك! انت بتهزر صح!؟ في حالة السيرك إنت مش بس حابس الحيوانات، لا ده إنت حابسها ومحولها لمسوخ كمان، كائنات رخيصة، بلياتشوهات مبرمجة، تتنطط وتسقف لمجرد إنك تديها موزة ولا سمكة، علشان يعملوا الدور الماسخ بتاعهم كل يوم عشان الناس تكركع وتضحك وتتبسط وبس.

- غريبة.. مايبانش عليكِ.

- مايبانش عليا إيه؟ إني إنسانة؟

أصابتني في مقتل، لِمتَى ستشعرني تلك الفتاة بغبائي الرهيب.

- مش قصدي، أقصد يعني.. .

- أنا فاهمة قصدك، مش علشان بضحك وبتنطط وبلبس لبس معين، وضاربة شعري ألوان، أبقي سطحية وتافهة يا عايش.

أطأطئ رأسي ككلب يلوي ذيله بين قدميه معلنًا هزيمته، ثم أنهض مقتربًا منها ناظرًا إلى النعامة التي أنتبه أكثر إلى

obeikandl.com

تفاصيلها، سوداء ذات رقبة بيضاء طويلة، وساقين طويلتين بنفس لون الرقبة، وعينان طريفتان وكأنهما عينا كتكوت صغير، أميل هامسًا في أذن هايا:

- أنا آسف..

- يلا بينا نتحرك..

قالتها من دون أن تنظر إليَّ، محدقة للنعامة التي اقتربت هي الأخرى من السياج نحو هايا، وكأنهما يتخاطران ذهنيًا.

- ماشي يلا بينا.

- اسبقني عالعربية، دورها وخليك جاهز.

تقولها بلهجة غريبة كأننا على وشك سرقة بنك، لا أستريح أبدًا لتلك اللهجة.

بعد قليل أكون قد نفذت ما طلبت مني بالحرف الواحد، تمر الدقائق وأنا مازلت قيد الانتظار، أجلس متململاً، أهز قدميَّ، أهرش رأسي، أعدل من وضع المرآة الجانبية، أخشى أن تنتهي السبع دقائق ويصيبني الجزع، أفتح باب السيارة وأهم بالنزول بحثًا عن هايا حينما أسمع ضجة آتية من ناحية ما، أرى هايا تركض من بعيد ناحيتي مشيرة إليَّ بتشغيل السيارة، أقوم بتشغيلها غير مستوعب، أتساءل عن ماهية الكارثة التي

أوقعتنا بها هذه المرة وعن حجم الخسائر الناتجة عنها، يدور محرك السيارة وتنطلق معه أغنية Paradise لفريق Coldplay في المذياع. تقترب هايا أكثر من السيارة ومن خلفها تنطلق النعامة السوداء ذات الرقبة البيضاء والساقين الطويلتين. تتسع عيناي قائلاً بصوت عالٍ:

- يا بنت المجنونة!

أشعر وكأنني أرى المشهد بالتصوير البطيء، يظهر من خلف هايا والنعامة رجلا أمن بأطقمهما المميزة، ذات القمصان الزرقاء، السراويل السوداء، وقبعات بنفس اللون، يركضان خلف هايا والنعامة التي تنطلق بجنون في كل ناحية في المكان، تصل هايا إلى السيارة، تفتح الباب ثم تقف مشاهدة ما يحدث وهي تضحك كما لم تضحك من قبل، وكأنها لم تحرر النعامة من أسرها، بل حررت نفسها.

بعض زبائن المطعم من بينهم أصحاب الدراجات النارية خرجوا ليشاهدوا ما يحدث، تركض النعامة يسارًا فيركض وراءها رجلا الأمن، تنحرف عن مسارها متجهة إلى اليمين فينحرف الاثنان مرتطمين ببعضهما البعض وتتطاير قبعاتهما في الهواء، يتضاحك الجميع مصفقين في جذل خاصة الأطفال، يخرج المزيد من الزبائن، الجمهور يتزايد لمشاهدة ذلك السيرك المجاني.

obeikandl.com

يظهر رجل أمن ثالث من ناحية أخرى بصحبة رجل يرتدي بدلة رسمية، يشير رجل الأمن إلينا، فينظر الجميع ناحيتنا، تستقل هايا السيارة بسرعة، تضرب بيدها على لوحة القيادة صارخة:

- اطلع، اطلع بسرعة!

أغلق باب سيارتي وأضغط بقدميَّ على دواسة البنزين فتطلق السيارة صريرًا مرعبًا ثم تنطلق، تنظر هايا وراءها متابعة ما يحدث، وأحاول أنا اختطاف لمحات قصيرة من مرآة السيارة أمامي، توقف الاثنان عن الركض وراءنا ومازالت النعامة تركض وتقفز بلا هدف، فرحة بحريتها، هي فقط لا تعرف كيف تتصرف في مثل تلك المواقف، لا تملك كاتالوجًا للحرية، فلا يحدث كل يوم أن تأتي مجنونة ما وتحررها من محبسها.

تعتدل هايا في جلستها ناظرة إليَّ، تبتسم فأبتسم، تتسع ابتسامتها فتصيبني العدوى أنا أيضًا، ثم ينطلق كلانا في هستيريا من الضحك مستمعين إلى الكلمة التي تكررها الأغنية على مسامعنا:

Para-para-para-Paradise.. .. Para-para-para-Paradise

(جنة.. جنة)

●●●

اذا كان باستطاعة رجل واحد أن يغير العالم

فامرأة واحدة يمكنها أن تقلبه رأساً على عقب

عالمي أنا على الأقل

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر - القاهرة الآن

Chapter Thirteen – Cairo Now

يضرب عينيَّ ضوء ساطع فأصحو من إغفاءتي لأجد هايا التي ارتدت نظارتي الشمسية تعبث بالكاميرا وهي تقود السيارة في نفس الوقت، صوت أحد الإعلانات يأتي من مذياع السيارة، أتثاءب، أهرش في رأسي ناظرًا إلى الطريق أمامنا، أعتقد أننا اقتربنا من فترة الظهيرة، أعتدل في مقعدي ثم أسألها:

- هو أنا نمت كتير؟
- يوووه.. .نمت وشخرت.

تقولها ناظرةً إلى الطريق أمامها.

- شخَّرت؟ أنا مابشخَّرش!
- بتشخَّر زي الجواميس البلدي.
- هو فيه جواميس بلدي وجواميس أفرنجي؟

لا تجيب هايا على استفساري، وإنما تضع مرفقها على حافة النافذة المفتوحة ساندة وجهها على كفها، ناظرة إلى الطريق بلا مبالاة حقيقية. أمسك بالكاميرا وألتقط صورة لها على هذا

opoelkandil.com

الوضع، تخلع النظارات وتنظر لي بابتسامة هادئة فألتقط لها صورة أخرى، أعيد الكاميرا إلى موضعها هي والصورتان حديثتا الولادة.

- بتعرفي تسوقي ولا هناخد غطس المرة دي في الأسفلت؟

كانت هايا قد طلبت أن تقود هي السيارة حتى يتسنى لي أن أستريح قليلاً من المجهود الشاق الذي بذلته أنا منذ ليلة أمس، السقوط والهرولة في الملاهي، السباحة والهرولة من الريس حجازي، الهروب الكبير من واحة عمر، ليلة مليئة بالهرولة!

- عيب عليك.

تجيبني وهي تغلق مذياع السيارة.

- ما العيب كان عليا فعلاً المرة اللي فاتت، ها؟ عشان سبتك تسوقي اللانش.

- خلاص بقى إنت هاتمسكهالي ذلة، وبعدين مانا كنت سايقة اللانش زي الفل، لولا بس الصخرة اللي طلعت لنا من البحر فجأة، وبعدين حتى لو، مانت بتسوق العربية زى العيال الصغيرة.

أبتسم كاتمًا ضحكة تكاد تخرج مني فترفع هي أحد حاجبيها متسائلة:

- بتضحك ليه؟

- أصل ذكائك يخوف.

- بتتريق؟

- لا بتكلم بجد، أصل أنا فعلاً بسوق زى العيال الصغيرة.

- كويس إنك معترف بده.

- لأن آخر مرة سُقت كان عندي ١١ سنة.

- نعم!!؟

- بالظبط زى ما سمعتِ كدة.

نعم فقد علمني والدي القيادة حينما كنت في التاسعة من عمري، وظللت أتدرب على القيادة لسنتين حتى أصبت بعدها بذلك المرض اللعين.

تنظر لي بفم فاغر متناسية الطريق أمامنا فأكمل أنا:

- بصي قدامك.. بصي.. ما توديناش في داهية.

- وإنت ليه ماسقتش من يومها؟

- مجتش فرصة.

obeikandl.com

أهرش في صدري ثم أحاول تغيير دفة الحديث مكملاً:

- بس ما قلتليش، موضوع المودلنج ده مكانش ليه مميزات خالص؟

- أكيد كان ليه..

- زي؟

- السفر، كنت بسافر دول ياما، واتعلمت لغات كتير واحتكيت بثقافات كتير..

- بس إنتِ صغيرة أصلاً، عملت كل ده إمتى؟

- أنا مودل من وأنا عندي ١٢ سنة..

- عشان كدة..

- عشان كدة ايه؟

- عشان كدة إنتِ تشكيلة غريبة..

أصمت لثوان ثم أستطرد:

- إحنا فاضل قدامنا قد إيه ونوصل القاهرة؟

- يعني.. بتاع ربعاية كدة، لو كنت أنا اللي سايقة من الأول كان زماننا وصلنا من امبارح، إنت كنت سايق بينا زى السلحفة العيانة.

obeikandi.com

- هانقعد نسمعها لبعض بقى كل شوية، أنا مبعرفش أسوق، مبعرفش أسوق خلاص؟

- بمناسبة التسميع، إنت درست إيه صحيح؟

آه، هذا ما كنت أخشاه، فأنا لم أتعد المرحلة الثانوية قط! طبعًا تعرفون لماذا!

- آداب.

أقولها كاذبًا..

- برضه؟ قسم إيه؟

- عربي..

- بس أنا عمري ما شفتك يعني هناك؟

- مانا خلصت قبل إنتِ ما تدخلي، إنتِ ناسية إني أكبر منك ب ٤ سنين؟

- مممم.

كذبة أخرى يخبرني حدسي أن هايا لا تبتلعها أيضًا.

- بس إنتِ نباتية من إمتي؟ وإيه اللي خلاكِ نباتية؟

- أوريو..

obeikandl.com

- نعم؟

- كان عندي أرنب اسمه أوريو، وأنا عندي ٦ سنين، كنت مربياه معايا في الأوضة زي مايكون قطة، يوم ورا أسبوع ورا شهر، اتعلقت بيه جدًا، أأكله وأنيمه وأطبطب عليه، وعلى طول شايلاه، وفي يوم رجعت من المدرسة وكانوا طابخين ملوخية بال.. .حزر فزر؟

- لا.. مش ممكن!

أومأت لي برأسها مغمضة عينيها مبتسمة في ذبول.

تبطئ السيارة تدريجيًا حتى تتوقف، أنظر حولي لأجدنا في طابور طويل من السيارات وكأننا في حالة إجلاء جماعي بسبب كارثة ما تهدد الأرض، تدير هايا وجهها ناحيتي مبتسمة، ثم تقول بزهو:

- حمدلله عالسلامة، وصلنا القاهرة..

●●●

بعد قليل نكون قد توغلنا بالسيارة داخل أحياء القاهرة، نعلق بازدحام مروري كثيف على الطريق الدائري فتطفئ هايا محرك السيارة ثم تتناول قنينة مياه بلاستيكية تفتحها وتتجرع نصفها دفعة واحدة، تعيد رأسها إلى الخلف، تسكب بعض الماء فوق

جبهتها فينساب متسللاً إلى رقبتها وصدرها، تنفضه عن وجهها بقوة ناثرة بعض القطرات نحوي فأسبها لا إراديًا:

- يا بت ال.. .

- الإيه؟

تقولها وهى تهددني بفوَهة القنينة المفتوحة فأجفل مغتاظًا.

- بس.. !

- المية حلوة..

تقولها فأضحك لا إراديًا متذكرًا ما حدث لنا مسبقًا بين جزيرة نيلسون وأبي قير، تضحك هي الأخرى ثم تفرغ فجأة ما تبقى في الزجاجة بوجهي، ألعق الماء المتسرب على شفتيَّ مستسلمًا في صمت وأنا أصب اللعنات عليها. تبدأ السيارات في التحرك فتدير هايا محرك السيارة وتنطلق بها قائلة:

- هي الحفلة دي الساعة كام؟

- ٦

- ده الساعة لسة واحدة، بدري قوي عالحفلة، وكمان أنا محتاجة آخد شاور وأغير، مش معقولة أروح مبهدلة كدة، ده أنا فوضى متحركة.

obeikandl.com

آه لو تعرف كم هي جميلة فوضاها، بشعرها الفضي المرسل على كتفيها، وملابسها البسيطة وكأنها خِرق منسوجة في الجنة، جسدها النحيل وبشرتها الحريرية، عيناها الناعستان حد الكمال. سارحًا في ملامحها تشيح بيدها أمام عينيَّ قائلة:

- إيه! يا أخينا!

- إيه؟

- رحت فين؟

- أنا جيت أهو.

تلك الضحكة تنطلق منها مجددًا، ضحكة ذات علامة مسجلة تملكها هايا فقط!

- طب حمد لله عالسلامة.

تقولها خاتمة ضحكتها فأعاجلها:

- طب إيه هانروح فين؟

- ما تقلقش.. أنا عندي فكرة.

- أنا مش قلقان، أنا مرعوب.. .أبوس إيدك معادش فيا حيل أجري يا هايا.

obeikandi.com

- بطل جبن بقى، كله هايبقى زي الفل!

تقولها وهي تنقل السرعات و.. .كراش! يسمع كلانا صوت اصطدام مكتوم.

ندير أعيننا ناحية الصوت الآتي من الأمام، حيث صدمت سيارتنا سيارة أخرى من الخلف، يطفئ صاحبها المحرك ويترجل منها متجهًا ناحيتنا، لن أطيل في وصفه، فقط عليَّ أن أقول أنه يجعل ذا روك الممثل والمصارع (The Rock) يبدو وكأنه طفل مدلل في الثانية من عمره يبول في سرواله.

تواري هايا وجهها خلف مقود السيارة ناظرة إليَّ في خوف قائلة:

- يا نهار إسود... .

●●●

كان عليَّ أن أنقذ الموقف وهايا! من ذلك الخرتيت الذي يقترب موشكًا على فتح بابها، قررت النزول من السيارة والتوجه نحوه، يقترب مني هو أكثر بالتصوير البطيء، يتضخم صوت دبات قدمه على الأرض وكأنه جودزيلا وأشعر أنني أسمع موسيقى فيلم الفك المفترس المميزة (Jaws) ترن في مسامعي.

واقفًا أمامه أشعر أن ناطحة سحاب بشرية تظللني، لا أستطيع رؤية الشمس من هنا، رأسي بالكاد تطال ساعديه المنعقدين أمام صدره، أنظر إلى جميع من حولنا، صمت تام يخيم على المكان، المارة، السائقون، بائعو الكعك المحمص، حتى السيارات نفسها توقفت محركاتها عن التنفس، وأبواقها عن النفير، أنظر إلى هايا المرتعدة خلف مقود السيارة مودعًا إياها، أعيد النظر إلى ساعديه، أقصد إليه وأخيرًا أنطق:

- خير؟

- خير إيه!

هل تعرفون صوت صراخ الغوريلا؟ حسنًا إنه لا يرقى إلى صوته بأي شكل من الأشكال، أحاول الرد عليه ولكن بلا فائدة.

- انتم ❖❖❖❖❖❖ العربية!

لفظ جنسي قبيح للغاية لا أستطيع كتابته، فقط أطلقوا العنان لمخيلتكم لتخمينه.

- مايصحش كدة! حضرتك عايز إيه طيب؟

- إحنا نروح القسم.

يقولها خارقًا جدار الصوت وطبلتيَّ أذني، تدمع عيناي بفعل الرياح العاتية القادمة من الشمال الشرقي لفمه.

- قسم إيه بس، أنا بقول مفيش داعي للأقسام والمحاضر والكلام ده، شوف الموضوع يتكلف كام وأنا هدفع لك.

يزمجر دون رد فأعاجله:

- ٥٠٠ جنيه كويس؟

يزمجر بصوت أعلى، أشعر أن وحشًا ما سوف يخرج من بطنه ويبتلعني.

- ١٠٠٠ جنيه كويس؟

الوحش على وشك الخروج، ها هو يفتح فمه ويقول شيئًا:

- ١٠٠٠ جنيه إيه! دي عربية بنص مليون جنيه! ❖❖❖

ها هو لفظ قبيح آخر، واقفًا على أطراف حذائي أدنو منه هامسًا:

- هو حضرتك تقرب للريس حجازي؟

- اخلص!

أشعر أن كرامتي يتم اغتصابها وراء مصنع الكراسي الآن، الوضع أصبح لا يحتمل!

obeikandl.com

موليًا ظهري له أستدير مبتسمًا إلى هايا في زهو، أشيح بيديَّ في كل اتجاه وكأنني تناولت كيلوجرامًا كاملاً من حبوب الشجاعة:

- طب بص بقى، أنا أخري ألف ونص.. ولو مش عاجبك اخبط راسك في الحيط، عايز تروح القسم نروح القسم، وأعلى ما في.. .

تتسع عينا هايا في رعب ناظرة إلى ناطحة السحاب الجاثمة خلفي فأستدير و.. ..

ظلام تام.. تبًا إنه لا يحب ركوب الخيل..

●●●

حينما سألتهم لاحقًا ما الذي حدث لي عندما استدرت مواجهًا له، قالوا كلامًا مبهمًا يشبه المعارك الأسطورية لهرقل وزيوس. ها! تريدون معرفة من منا هرقل ومن منا زيوس؟

بالطبع هو هرقل وزيوس وآلهة الأوليمب كافة. باختصار أنا أشعر أن كرة تدمير المباني قد أطاحت بي في تلك اللحظة، من دون مايلي سايرس بالطبع.

oboeikandl.com

أستفيق من غيبوبتي لأجدني في حِجر هايا، كفها يضرب وجنتي برفق، أحدهم يناولها قنينة ماء فتسكبها على وجهي دفعة واحدة، أصبحت لديها تلك العادة اللطيفة في إغراقي اليوم كما تلاحظون، يسترجع عقلي ما حدث فأجفل قائلاً:

- هو فين، راح فين؟

- مشي مشي.

يقولها الجميع وكأنهم يخبرون طفلاً في الثالثة من عمره بأن «البوبع بح، مشي».

تساعدني هايا على النهوض بمساعدة شاب آخر، ثم تجعلني أستند عليها حتى أصل إلى السيارة، أستقلها متوجعًا مسندًا رأسي إلى المقعد، يناولني أحدهم كيسًا ممتلئًا بالثلج فأضعه على عيني اليسري، تشكر هي الجميع وتستقل السيارة مربتة على ركبتي فأتوجع:

- هو ضربني فين بالظبط الشيء ده.

- قول ما ضربكش فين.

- يعني أنا لما أحب أتوجع دلوقتي أقول آه يا إيه؟ آه يا إيه! آه يانا ياما يابا.. .

obeikandl.com

- ما خلاص بقى مكانتش علقة اللي كلتها يا عايش.

- إنتِ تسكتي خالص، لولا إني نزلت له كان زمانك إنتِ اللي متكومة عالأسفلت مكاني!

- بصراحة عندك حق، كان زماني بقيت عجة.

- هاتعملي فيا إيه تاني يا هايا أكتر من كدة؟ تنين مجنح؟ زومبيز؟ حُمم بركانية؟

- صبرك إنت لسة شفت حاجة.

- أنا ماشفتش شكلي صحيح بقى عامل إزاي.

- ما بلاش..

تقولها هايا ثم ترتشف القليل من علبة عصير في يدها، أزيح كيس الثلج وأنظر في مرآة السيارة الأمامية، عيني اليسرى يحيطها لون أزرق، وخدي الأيمن متورم كبطن امرأة حامل في الشهر السابع، والزاوية اليسرى لشفتيَّ تنزف كشلالات نياجرا.

- يا نهار منيل! مين ده؟

تضحك هايا دون رد وهي تكاد تبصق ما بفمها من عصير.

- إنتِ بتضحكي؟ ده أنا مش عارفني!

ترتشف مرة أخرى من العلبة ثم تهز رأسها وهى تغني:

- أنا مش عارفني.. أنا تهت مني.. أنا مش أنا.. لا دي ملامحي، ولا شكلي، ولا ده أنا..

- آه واللّه، ده أنا بقيت شبه أمنا الغولة.

تكمل هايا غناءها وهى ترتشف من العصير فأمسك بمعصمها قبل أن تأخذ رشفة جديدة قائلاً:

- إنتِ بتشربي مخدرات؟

- برتقان واللّه برتقان.

- لا العصير ده فيه حاجة، جبتيه منين؟

- تاخد شفطة؟

- هايا إنتِ ملكيش أهل يسألوا عليكِ؟

- ليا، أمي وأخويا ليه؟

- عشان أقتلك من غير شوشرة.

- مهونش عليك يا عيوشتي.

- عيوشتك؟ يا شيخة اتلهي.. قوليلي احنا قدامنا قد إيه ونوصل فين؟

obeikandl.com

- قدامنا نص ساعة ونوصل.. .افرد الخريطة كدة.

أفـرد لهـا الخريطـة فتتنـاول القلـم، تخلـع غطـاءه بأسـنانها، وتقـوم بوضـع علامـة (x) جديـدة في نقطـة مـا.

- مممم هنا.

- هنا اللي هو فين يعني؟

- هاتعـرف لما نوصـل، صحيـح إنـت مـا كلمتنيـش عـن أهلـك، مامتـك.. بابـاك، عنـدك كام أخ وكام أخـت.

- ماما وبابا، وعمر وعاليا، كلهم مسافرين.

- مابتشوفهمش؟

- بيجولي ساعات..

أقولها ناظرًا إلى الطريق أمامنا بابتسامة واسعة.

●●●

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر – أميرة وملك

Chapter Fourteen – Princess & A King

في الثالثة عصرًا نصل إلى وجهتنا الجديدة، واحد من أفخم فنادق القاهرة الشهيرة المطلة على النيل، «فندق فيرمونت»، تتوقف هايا بالسيارة قائلة:

- وصلنا.

- هنا؟

أقولها مشيرًا إلى الفندق الضخم الجاثم أمامنا كوحش أسطوري ينتمي إلى إحدى قصص Lord of The Rings.

- أيوة هنا، يلا بينا.

تقولها هايا مطفئة محرك السيارة، تأخذ المفاتيح ثم تترجل من السيارة، فأترجل أنا الآخر، تفتح الباب الخلفي، تتناول حقيبة ظهرها تفتحها لتخرج منها حقيبة أخرى صغيرة تلقي بها على المقعد الخلفي، ثم تلتقط بدلتي والشماعة الغامضة وتغلق السيارة، تسير بجانبي متأبطة ذراعي تتجه بي إلى باب الفندق رافعة أنفها في تكلف وكأنها زوجة أحد الوزراء، وبالطبع أنا ذلك الوزير. أدنو منها هامسًا:

obeikandi.com

- يا بنتي إنتِ عارفة الليلة هنا بكام؟

- وإنت مالك إنت هاتدفع حاجة.

تقولها وكأنها صاحبة الفندق، تمنح ابتسامة صفراء للعامل الواقف أمام الباب، ثم تجرني لنعبر من الباب الزجاجي الكبير.

- هايا! أنا مافياش حتة تانية للضرب!

- تعالى بس.

ندخل إلى البهو الفسيح ذو الأرضية الرخامية البيضاء. في الخلف تظهر مكاتب ذات واجهات فضية، يقف خلفها موظفو الاستقبال تطفوا على وجوههم ابتسامات بلاستيكية تشبه تمامًا الورود الموضوعة داخل جداريات بالحائط وراءهم.

في الاستراحة على اليسار تربض عدد من المقاعد والأرائك ذهبية اللون، وعلى اليمين تختبئ أبواب مصاعد سوداء داخل الجدران يحرسها عاملان يرتديان أزياءً بنفس اللون.

تجرني هايا جرًا ناحية الأرائك، تجلسني على إحداها ثم تجلس هي الأخرى واضعة حقيبتها، الشماعة الغامضة وبدلتي، تضع ساقًا على ساقٍ وتراقب مكاتب الاستقبال ومريديها بتركيز شديد.

- إحنا قاعدين بنعمل إيه؟

- بنستنى..

- بنستنى إيه؟

تدور بعينيها في المكان جيئة وذهابًا، نسمع صوت وصول المصعد فتذهب صوبه بعينيها، ينفتح المصعد خارجًا منه شخص يرتدي بدلة سوداء أنيقة ونظارات شمسية، ذو شعر أسود فاحم وذقن حليقة، وكأنه أحد أبطال أفلام جيمس بوند، يبتسم محييًا أحد موظفي مكتب الاستقبال في طريقه إلى الخروج، تبتسم هايا في ظفر قائلة:

- ده..

ثم تدنو مني هامسة:

- استنى هنا وما تتحركش من مكانك، وما تتكلمش، وماتتنفسش، مهما يحصل.

قالتها مشددة على آخر كلمتين.. .أشم رائحة كارثة قادمة، أكبر من أية كارثة مضت، لو أن بحوزتي كل الكتب السماوية لقرأتها حالاً ودعوت الله أن يخفف عني ما هو قادم.

تعدل من هندامها ثم تنطلق باتجاه الرجل معترضة خط سيره، تتوقف مترنحة وهي تتشبث به، ثم فجأة وبدون سابق إنذار تسقط أرضًا فاقدة الوعي..

●●●

أتخشب في مكاني مذهولاً وأنا أرى جميع من في البهو يتجمهر حولها خاصة الرجل ذو البدلة السوداء، يتحرك جسدها مرتجًا بعنف، تبيض عيناها ويغرغر حلقها طاردًا فمها زَبَدًا أبيضا، يا إلهي! أهم بالنهوض متجهًا نحوها حينما تتلوى هي موارية رأسها عن جميع من حولها ناظرة إليَّ مباشرة محركة حاجبيها بطريقة هزلية وهي تخرج لسانها، تتلوى مرة أخرى لتعود إلى ممارسة نوبتها القلبية المزيفة، الكلبة!

أتجه مسرعًا نحوها مدعيًا القلق أنا الآخر، أجثو بجانبها ممسكًا بيدها فيسألني أحد الموظفين في هلع:

- حضرتك تعرفها؟

- المدام.

أجيبه بنفس المقدار من الهلع دون أن أحرك عينيَّ عنها فيعاجلني:

- عمومًا إحنا اتصلنا بالإسعاف وزمانهم جايين.

تتوقف هي فجأة عن التلوي، فاتحة عيناها ببطء، تمسح الزبد المنطلق من فمها كفوهة بركان نشط، وبصوت تعب تهمس:

- ملوش لازمة، أزمة وعدت خلاص.. محتاجة أستريح بس.

ينظر إليَّ الجميع غير مستوعيبن ما يحدث، لا أعرف بماذا أجيب، لن تنجح حجة النوبة القلبية الآن، أفكر بسرعة ثم أهمس فيهم:

- صرع.. بييجي ويروح.

يتنفس الجميع الصعداء متفهمين ثم يتحركوا عائدين إلى أماكنهم، تنهض هي متكئة عليَّ، نتجه إلى الأريكة فتلتقط حاجياتنا ثم تجرني من جديد ناحية المصعد.

ساندة رأسها إلى كتفي، ندخل المصعد محاصرين بمصمصات الشفاه غير المعلنة، ينغلق باب المصعد فتستقيم قامة هايا كاتمة ضحكة تستغيث كي تخرج.

- إنتِ إيه! شيطانة!

- إيه رأيك! واللّه أنفع ممثلة!

obeikandi.com

- وإيه لازمة التمثيلية دي كلها؟ ومطلعانا فوق نعمل إيه!

- عشان نستريح في السويت بتاعنا يا بيبي.

- سويت إيه اللي بتاعنا؟

تمامًا وكما فعلتها من قبل في الملاهي تفعلها الآن مخرجة من خلف ظهرها بطاقة بلاستيكية بيضاء تحمل الرقم ٧١٤، تمسكها كورقة كوتشينة رابحة.

●●●

- ماينفعش! ماينفعش يا هايا!

تغتال كلماتي ضحكتها فورًا، فتدني يدها الممسكة بالبطاقة قائلةً:

- هو إيه اللي ماينفعش؟

أضغط زر توقف المصعد مكملاً:

- مش كل مكان نروح فيه تعملي لنا فيه مصيبة!

مرة بوليس، ومرة نغرق ونكسر قارب ويا عالم! زمان صاحبه بيدور علينا زي المسعور دلوقتي، ومرة تطلقي نعامة من الجنينة، وأكلت علقة بسببك، عاجبك منظري ده!

أقولها مشيراً إلى وجهي الذي تزينه الكدمات والجروح ثم أكمل:

- ودلوقتي عاملة جناية وسارقة مفتاح أوضة فندق زمانها بتاعة وزير ولا سفير، وهانروح في ستين داهية!

تفلت منها ضحكة قوية فأستشيط غضبًا:

- إنتِ بتضحكي!!

- هاتبطل إمتى تبقى جبان؟

- وإنتِ هاتبطلي إمتى تبقي عيلة؟! مش هاتكبري بقى؟ أنا تعبت!

ناظرين إلى بعضنا البعض تتجمد عيوننا على تلك الحال ويسود الصمت لبرهة من الوقت، تكسر بعدها هايا الصمت وهى تنظر جانبًا محاولة إخفاء بضع غيامات بدأت تتكون في عينيها، تضغط على زر نزول المصعد متحاشية النظر إليَّ، يضطرب قلبي وأحاول فهم مايدور في عقلها، أدنو منها قائلاً:

- إنتِ بتعملي إيه؟

- .. .. .

بدأت الأمطار في الهطول من غيامات عينيها.

obeikandi.com

- هـايا .. ردي عليا .. رايحة فين؟

- إنـت مـش قلـت لـيِ لـو ماحسـيتيش براحـة مـا تكمليـش اليـوم؟

تذبحنـي كلماتهـا كسـيف محـارب سـاموراى عتيـق، ثـم تكمـل طعناتهـا في صـدري:

- بس مادام إنت اللي تعبت فأنا هعفيك تكمل اليوم معايا.

تستخدم كلماتي الخاصة ضدي، هذا ليس نزالاً شريفًا.

ينفتـح بـاب المصعـد فتنـاولنـي بطاقـة الغرفـة وحـاجياتـي وتغـادر متجهـة ناحيـة بـاب الفنـدق ويبـدأ بـاب المصعـد في الانغـلاق خلفهـا.

●●●

قبـل أن ينغلـق البـاب تمامًـا أمـد يـدي لأمنعـه ثـم أخـرج ملاحقًـا هايـا قبـل أن تبتعـد، تخـرج مسـرعةً مـن البـاب الكبيـر فـأخـرج في إثرهـا، أضـع البطاقـة في جيبـي، وأنـاول حاجياتـي للعامـل الواقـف علـى البـاب ثـم أتجـه نحوهـا. تقـف علـى الرصيـف عاقـدة سـاعديها محاولـةً كبـح جمـاح عينيهـا مـن البـكاء، أقتـرب منهـا فتولنـي ظهرهـا، ألمـس كتفيهـا بيـديَّ فتجفـل.

- هـايا ..

يرتجف جسدها مصحوبًا بمزيد من البكاء.

- أنا آسف والله.. .

تبتعد خطوتين فأسير مقتربًا منها..

- كل الحاجات الغالية اللي في حياتي شفتها بتضيع قدام عينيا، مش عايزك تضيعي إنتِ كمان.. هضيع بعدك صدقيني..

تستدير ناظرة إليَّ بعينين معاتبتين يبللهما الدمع، تهمس بصوت مشروخ:

- الحياة ما بتقفش على حد يا عايش..

- أنا حياتي واقفة عليكِ.. حرفيًا.. إنتِ بالنسبة لي زي المخدرات يا هايا، لو بطلتها فجأة أموت.

- إزاي؟ وإنت مش قادر تستوعبني، إحنا عكس بعض في حاجات كتير، إنت هادي وأنا مجنونة، إنت عاقل وأنا متهورة، إنت سكوت، وأنا دوشة، إنت تلج.. و أنا نار..

- نكمل بعض..

- أنا صعبة عليك يا عايش..

- هتعلم، أنا لسة طفل في مدرستك..

تفلت منها ضحكة عفوية فأبتسم مقتربًا منها ماسحًا دموعها:

- مشكلتي إني طول عمري ماشي.. .

- جنب الحيط؟

وكأنها تقرأ أفكاري، تتسع ابتسامتي مجيبًا:

- أنا كنت الحيط نفسه.. متداري في ضلمة، عايزك تهدي الحيط، أنا عايز أدوب في إيديكِ، شكليني من جديد، طلعيني للنور، إعمليني حاجة تانية بتحب الحياة.

تبتسم مقتربة مني، يدها تقترب من وجهي، كفها الرقيقة تلامس وجنتي، تمسح دموعًا سالت من عينيَّ فأنتبه الآن فقط أنني أبكي..

●●●

نسير بالرواق المؤدي إلى الغرفة، صوت مكتوم يأتي من إحدى الغرف لأغنية لا أميزها تلعب، نصل إلى وجهتنا المنشودة بعد قليل، تمرر هايا البطاقة عبر قفل الباب فيصدر أزيزًا مميزًا معلنًا عن السماح لنا بالدخول.

المشكلة أنها ليست بغرفة، أشعر وكأنها جزء من ديكور أحد أفلام الخيال العلمي، أو أننا عبرنا للتو خلال بوابة زمكانية، إلى بعد آخر، مكان آخر وزمن آخر.

أتوقف لبضع لحظات عاجزًا عن الحركة أتفحص كل شيء.

الغرفة بأكملها تقريبًا منقوعة في اللون الأسود، السرير الخشبي الكبير، الثريا المدلاة من السقف، صوانان صغيران (كومود) على جانبيِّ السرير، وقبالته يحتل التلفاز الجزء الأكبر من الحائط مدفونًا به بشاشة تقترب من الستين إنشًا. في مواجهة الباب تخفي ستائر بلون شعر هايا الفضي نافذة كبيرة تطل على النيل من دون شك، بجانبها ينتظر مقعدان أسودان تتوسطهما طاولة إفطار صغيرة بنفس اللون وثلاجة قزمة «ميني بار».

تدخل هايا ملقية بأحمالها على السرير الذي يشي كل شبر فيه بالراحة والرفاهية، تلتقط الريموت كنترول وتشغل التلفاز بصوت يخرق الآذان، أغنية «Princess of China لـ Coldplay ft. Rihanna» تبدأ في اللعب على قناة MTV، يتردد صداها مع صوت التلفاز القادم من الغرفة الأخرى، تلقي هايا بالريموت على السرير ثم تتجه إلى الستائر تفتحها فتكشف عن النافذة المختبئة وراءها، تفتحها على اتساعها، تستل نفسًا عميقًا ثم تستدير مشيرة إليَّ بالذهاب إليها.

أغلق الباب وأخطو نحوها على السجاد الأسود الأشبه بالفرو، أصل واقفًا بجانبها، تشير بوجهها إلى المشهد أمامنا، تتكاتف الغيامات بكثافة في الأفق حاجبة جزءا كبيرا من الشمس التي تحاول الفكاك لتحيتنا، مرسلة بعض أشعتها على مياه النيل

التـي تلمـع بمزيـج مـن الأزرق الهـادئ والبرتقالـي الوهـاج، تسـبح فيـه بعـض القـوارب الضخمـة لتبـدو مـن بعيـد وكأنهـا مراكـب ورقيـة. علـى مـد البصـر تتـراص البنايـات والعمائـر علـى الناحيـة الأخـرى مـن النيـل لتبـدو صغيـرة، صغيـرة جـدًا مـن هنـا كبنايـات مـن الميكانـو.

المشـهد والموسـيقى التـي تضـخ نغماتهـا في الغرفـة، ورأس هايـا التـي أسـندتها إلـى كتفـي الآن يجعلنـي أشـعر وكأنّنـي ملكٌ بصحبـة أميـرة ولكـن ليسـت مـن الصيـن.

●●●

قاطعًـا الغرفـة جيئـة وذهابًـا في قلـق أنتظـر هايـا التـي دخلـت لتسـتحم منـذ أكثـر مـن نصـف سـاعة، في تـردد أقتـرب مـن البـاب، أسـمعها تغنـي بهمهمـات غيـر مفهومـة، أطـرق البـاب عـدة طرقـات هامسًـا:

- هايا..

- إيه!

تقولها صائحة ثم تعود إلى غنائها من جديد.

- يا بنتي اخلصي، الراجل ممكن يطب علينا في أي لحظة.

- طيب طيب

أقرر أن أعبث بالكاميرا قليلاً حتى تنتهي مما تفعله، أسمع الكثير من الجلبة وأصوات الاصطدامات ومايشبه صوت محرك الطائرات النفاثة داخل الحمام، من دون شك أعتقد أنها تقوم بتجارب نووية بالداخل، أسمع جلبة أخرى ثم تخرج هي أخيرًا بعد نصف ساعة أخرى.

لا أعرف كيف أصفها، فأنا لم أر امرأة تضج بمثل ذلك الجمال من قبل، هل سأقول إنها خرجت من إحدى القصص الأسطورية؟ لا.. هل أقول إنها إحدى آلهة الأوليمب؟ تشبيه مبتذل.. لم أر امرأة من قبل مشبعة بمثل ذلك السحر، متخمة بكل ذلك الجمال.. تتلخص فيها الروعة، وتجتمع كل تفاصيل الحسن..

ترتدي ثوبًا طويلاً بلون الليل، عاري الكتفين، يكشف عن جزء ضئيل من صدرها الذي يزينه عقد من الذهب الأبيض يتلاءم مع لون شعرها الذي صففته على شكل تموجات تنسدل على كتفيها، بيديها حقيبة يد سوداء صغيرة يخطها سطر فضي رقيق.

هذا هو ما يجب أن تلخصه عبارة: قنبلة محلية الصنع!

ترفع طرف ثوبها قليلاً إلى الأعلى فيظهر حذاءها الأسود ذو الكعب العالِ الذي ترتديه، تنظر لي متساءلة:

obeikandi.com

- إيه رأيك؟

تقولها ثم تغزُل في دورة قصيرة حول نفسها، أرفع الكاميرا نحوها لا إراديًا مصورًا ما يحدث، أود الاحتفاظ بتلك اللحظات إلى الأبد، تغزُل هي مرة تلو المرة في دوائر تتجه ناحيتي وهى تبتسم، سبع دورات ثم تتوقف بين يديَّ، تنظر إلى الكاميرا قائلة:

- بتصور إيه؟

دوران القمر حول نفسه ثم اصطدامه طوعًا بأحد الكويكبات المظلمة.

- الدنيا وهي حلوة.

تلكمني في صدري معاتبة:

- وهي مكانتش حلوة قبل كدة؟

- هي دايمًا حلوة، بس كدة ها تحتاج مليون فيلم عشان يكفوا أصورها..

تبتسم مغيرة دفة الحديث:

- بطل غلبة وادخل خد شاور عشان نلحق يلا.. هانتأخر!

تدفعني باتجاه الحمام وأنا أضرب كفًا بكف قائلاً:

- أنا بسببك هروح المعمورة!

obeikandi.com

- طب ماحنا رحناها..

- المستشفى يا ظريفة.

تضحك قائلة:

- طب اخلص، شنطتك جوة وحاجتك.

●●●

أنتهي من الاستحمام وارتداء ملابسي وفعل كل شيء آخر في عشرين دقيقة فقط، مرتديًا بدلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق كجناحيِّ فراشة سوداء، أخرج لأجدها ترقص على نغمات أغنية Moves Like Jagger التي تخرج من سماعات التلفاز بصوت Adam Levine وChristina Aguilera.

تتمايل في ثوبها الأسود مغمضة عينيها، تحاكي ما يقوله آدم بشفتيها ممسكة بفرشاة للشعر تغني خلالها وكأنها ميكروفون، كيف يتحمل ثوبها المسكين منحنياتها شديدة الخطورة تلك لدرجة تستوجب معها تعليق لافتة «Curvy Road» للتحذير من ذلك.

تشير لي بالاقتراب، ثم تمسك بيديَّ تحثني على الرقص، أحاول التجاوب معها راقصًا بسذاجة فتنفجر هي ضاحكة ثم تحاول تعليمي الخطوات من جديد فأنجح هذه المرة، بل وأقود الرقصة أيضًا مختطفًا منها فرشاة الشعر لأحاكي كلمات مقطع

obeikandl.com

الأغنيـة الـذي يتكـرر فقـد اسـتطعت حفظـه عـن ظهـر قلـب منـذ اللحظـة الأولـى لسـماعه.

هـذا مايفعلـه حضـور هايـا، بوجودهـا أتشـرب العالـم بأكملـه داخلـي دون إفـلات تفصيلـة واحـدة.

●●●

نخـرج مـن المصعـد تتأبـط هايـا ذراعـي، مرتديـة ذلـك الوجـه المتكلـف لزوجـة أحـد الـوزراء، تتفحصنـا عيـون الجميـع، أقصـد تتفحصهـا هـي، وتتبعهـا حتـى نخـرج مـن بـاب الفنـدق قاصديـن السـيارة.

- أنا اللي هسوق المرة دي.

أقولهـا وأنـا أفتـح لهـا بـاب السـيارة لتركـب، ثـم أتجـه لمقعـد القيـادة وأسـتقل السـيارة، أفـرد الخريطـة أدرس موقعنـا والوجهـة المنشـودة، أطويهـا مجـددًا ثـم أنطلـق بالسـيارة.

- بس إيه الشياكة دي؟

- أنا أول مرة ألبس بدلة في حياتي.

- إنت عمرك ما رحت أفراح ولا حفلات؟

- مجتش فرصة.

أقولها متهربًا..

- أنا ملاحظة إنك أول مرة في حياتك تعمل حاجات كتير النهاردة، أول مرة تروح المعمورة، أول مرة تسافر القاهرة، أول مرة تلبس بدلة!

- وأول مرة يتقلب بيا لانش، وأول مرة البوليس يجري ورايا، وأول مرة أسرق أوضة فندق، وأول مرة آكل علقة في حياتي، وحاسس إنها مش هاتكون الآخيرة.

- إحنا بقالنا تلات ساعات أهو ماحصلش حاجة، بطل افترا بقى!

- مانا مستغرب! ده رقم قياسي يا هايا، يدخل في موسوعة جينيس!، تلات ساعات من غير مصيبة، من غير كارثة، من غير بوليس، من غير جري ولا ضرب.

- شفت؟ عشان تعرف بس..

- لا إنتِ كدة تتحسدي.. حقيقي.. إنتِ فاكراني بتريق؟ لا أنا منبهر من الإنجاز ده..

- اتريق اتريق..

- بس صحيح.. إنتِ ساعة ما استموتي في اللوبي عملتِ الرغوة البيضا دي إزاي؟

- بونبون نعناع..

- يا بنت اللذينة.. إنتِ بتشتغلي شيطانة بعد الضهر يا هايا؟

تضحك هي متصنعة قرنين بسبابتيها فوق رأسها.. .

نستمر في الثرثرة والضحك ونحن نشاهد السماء تتلون بخليط من القرمزي والأرجواني يتداخلان معًا. الشمس طفل صغير سكب علبة ألوانه غضبًا لإجباره على النوم باكرًا.

متبعًا إرشادات هايا نصل إلى وجهتنا في النهاية فأركن السيارة ثم أفرد طيات الخريطة وأضع علامة (x) جديدة تدل على موقعنا الآن.

- عايش..

تقولها هايا بصوت خفيض.. .

- نعم..

- أنا عندي خبرين، خبر حلو، وخبر وحش..

- اللّه، مش قلت لك هاتتحسدي يا هايا؟ ما بخرتيش نفسك ليه يا ماما؟

- عايش بجد.. فيه شبه مصيبة..

أرفع كفيَّ مغطيًا وجهي محاولاً ألا أفقد أعصابي، أزفر بقوة ومن دون أن أزيل كفيَّ أنطق:

- اشجيني..
- الخبر الحلو ان إحنا وصلنا الحمد لله وزي الفل أهو.. و الخبر الوحش.. .
- إيه؟ وصلنا عنوان غلط في الفيوم؟
- ياريت..
- أمال.. ؟
- عارف الفندق، في الأوضة السودا الحلوة دي.. ؟
- أيوة؟
- في الحمام بتاعها بقى..
- ها؟
- نسينا الحاجات بتاعتنا..

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر - حلم

Chapter Fifteen – Dream

- **مكانش** ينفع اليوم يخلص من غير مصيبة جديدة.

أقولها سائرًا بجانبها يتجه كلانا إلى بوابة الأوبرا الكبيرة، على اليمين يظهر في الأفق برج القاهرة الشهير مضاءً بألوان متنوعة.

- احمد ربنا إنها جت على قد كدة، وبعدين ما تقلقش، نخلص الحفلة ونرجع ناخد الحاجة.
- يا حلاوة! بالسهولة دي، يا بنتي زمان الراجل رجع ولقى الشنط.
- حتى لو.. هانتصرف ما تقلقش..
- أبوس إيدك بلاش الكلمة دي..

أقولها ممسكًا بكفها أقبله..

- بص، خلينا نستمتع بس بالحفلة ونشوف بعدين هانعمل إيه، قوللي بقى جايينا حفلة مين؟ بحيرة البجع؟
- بجع في عينك..

oueikandil.com

- عمرو دياب؟ ولا عمر خيرت؟

- لا مفيش عمامير هنا..

- انريكي؟

- انريكك إيه، برضه لا..

- أمال مين؟ ايديت بياف؟

تقولها ساخرة..

- ايديت بياف ماتت يا هايا..

- احلف!

- بطلي لماضة يا هايا..

أقولها متململاً من دون أن أنظر إليها..

- أمال مين بس؟ شاكيرا؟

تلمع عيناي مبتسمًا ثم أنظر إليها قائلاً:

- أحلى.. .أحلى من شاكيرا.. .

نقترب من مبنى الأوبرا بجدرانه البيضاء الضخمة تعلوها القباب المفلطحة التي تحيلها أضواء الكشافات المسلطة عليها إلى لون ذهبي محبب إلى النفس. نتجه ناحية لافتة حديدية مثبتة

obeikandi.com

بالأرض خُطت عليها إرشادات توضح أماكن المسارح والقاعات المختلفة بالمكان، يشير أحد الأسهم المرسومة إلى اتجاه الوصول إلى المسرح الصغير فأسلكه جاذبًا هايا.

بعد السير لعدة دقائق يحيطنا اللون الأخضر ورائحته النفاذة من جميع الاتجاهات، تحدنا الزروع والأشجار يسارًا، الورود والحشائش والنخيل يمينًا. ألحظ تمثالاً لعبد الوهاب وآخر للسيدة أم كلثوم، نمر بجانب نافورة دائرية كبيرة فأشعر بنسيم بارد يهب علينا.. أتجه ناحية أحد رجال الأمن الواقفين سائلاً:

- لو سمحت المسرح الصغير فين؟

يرد مانحني الإرشادات اللازمة فأشكره ثم نسير أنا وهايا مجددًا حتى نصل إلى وجهتنا.

على باب المسرح الصغير، جالسة إحداهن خلف شباك تذاكر زجاجي، ترتدي ثوبًا بنيًا أنيقًا وعوينات طبية كبيرة، وابتسامة واسعة حقيقية.

- مساء النور يا فندم.

- مساء الخير.. أنا حاجز تذكرتين باسم عايش الحداد..

تتفحص القائمة على المكتب أمامها لثوان ثم تقول:

- مظبوط يا فندم..

تقولها مناولة التذاكرة لنا بصحبة ابتسامة أخرى رائعة.

- متشكر جدًا، هو العرض هايبتدي إمتي؟

- خمس دقايق بالكتير إن شاء الله، سهرة سعيدة..

تشكرها هايا بدلاً عني متأبطة ذراعي لندخل القاعة سويًا، القاعة صغيرة نسبيًا ولكنها تتسع لثلاثمائة شخص أو أقل تقريبًا، اللون الذهبي يغلب على المكان بأكمله، الجدران، السقف، والستائر، ما عدا المقاعد التي تتشح بالسواد، والأرض التي يغطيها السجاد الأحمر.

المقاعد ممتلئة عن آخرها بالمتفرجين، أقصد المتفرجات، أغلبهم هنا سيدات وشابات، عدد الذكور لا يتعدى الخمسة بالمئة، الكل يثرثر في ضوضاء بسيطة نسبيًا.

أنظر بالتذاكر وتنظر هايا هي الأخرى بها، تختطفها وتجرني وراءها إلى مقاعدنا المنشودة، تجلس وتجلسني بجانبها، بعد ثوان تنطفىء أنوار القاعة بأكملها، ثم يضاء كشافان كبيران مثبتان بأرضية خشبة المسرح، تخفت الضوضاء تدريجيًا حتى تغدوا همهمات بين مقعدين هنا أو مقعدين هناك، تزاح الستائر ببطء وتخرج من خلفها سيدة في الأربعينيات من عمرها ذات شعر

obeikandi.com

أشقر وعينان ضيقتان، ترتدي ثوبًا بلون البحر، تنتصب واقفة في منتصف المسرح تمامًا ممسكة بميكروفون لاسلكي وورقة، ترتدي عويناتها الطبية المعلقة بصدرها، ثم تبدأ القراءة من الورقة مقربة الميكروفون من فمها:

– حضرات السادة الحضور، بالنيابة عن أعضاء الجمعية والمسئولين بها، وبالنيابة عن كل الأطفال بالجمعية نشكركم. نشكركم على وجودكم معنا في هذه الليلة، ونشكر من تواجد معنا باسمه فقط متبرعًا بمبالغ نقدية أو تبرعات عينية، أو بتسخير جهوده من أجل جعل هذه الليلة حقيقة على أرض الواقع، نحن أبناء جمعية «بكرة» نشكركم جميعًا.

تلمع عيناها ثم تكمل بصوت متحشرج يغالبه البكاء:

– وبالنيابة عن كل العالم أشكر أطفال الجمعية لإصرارهم على مساعدة أنفسهم بأنفسهم بتقديم وآداء كل فقرات الحفل كاملةً من دون تدخل أى أحد، أترككم معهم لمدة ساعة كاملة، كل التحية لهم.

تنهي كلماتها وهى تصفق ممسكة بالورقة ثم تغادر خشبة المسرح وتُسدَل الستائر خلفها مرة ثانية، فتنتشر العدوى إلى جميع الحضور ويشتعل التصفيق لثوان معدودة قبل أن تهدأ أنوار الكشافات قليلاً استعدادًا لبدء أول فقرة.

تضع هايا يدها على ذراعي فأدير وجهي ناظرًا لها، فتهمس غير متفهمة:

- أنا مش فاهمة حاجة!

أبتسم مربتًا على يدها ثم أومىء لها مشيرًا ناحية خشبة المسرح التي أزيحت ستائرها مرة أخرى لتظهر تسعة مقاعد خشبية عديمة المسند وقد انتشرت في أرجاء خشبة المسرح بطريقة منظمة يقابلها ميكروفونات مثبتة على حوامل حديدية، بعد ثوان يخرج إليها عدد من الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، تسعة أطفال، خمسة أولاد وأربع بنات، كل يحمل آلة موسيقية مختلفة، يجلسون بالترتيب على المقاعد المخصصة لهم، ثم يبدأون في العزف أمام الميكروفونات. مقطوعة قصيرة من إحدى مقطوعات فريدريك شوبان، يعزفونها ببراعة متناهية، ينتهون من العزف ثم ينهض جميعهم مقتربين من طرف خشبة المسرح، ينحنون تحية لنا وسط تصفيق الجميع، ثم يغادرون خشبة المسرح وتسدل الستائر مجددًا.

تنظر لي هايا بعينين متسعتين دون أن تنطق بكلمة، لا أعرف ما يدور في عقلها، أعرف فقط أنها لا تستوعب ما يحدث.

تنزاح الستائر مرة أخرى ويظهر اثنا عشر ميكروفونًا من دون مقاعد هذه المرة، يخرج بضعة أطفال بعدد الميكروفونات

على المسرح يتراصون جنبًا إلى جنب، تنبعث موسيقي مسجلة لإحدي أغاني سيد درويش من سماعات المسرح ثم يبدأ جميعهم في الغناء.

تنتهي فقرتهم ويشتعل التصفيق مجددًا ويسدل الستار مرة أخرى، أحاول تحاشي نظرات هايا الذاهلة حتى تزاح الستائر مرة ثانية ليظهر المسرح وقد زين بالكامل بديكور غابة، سماء زرقاء تظللها بضع غيامات وشمس مبتسمة تمد أذرعها في ترحاب، أشجار كرتونية ذات ألوان خضراء زاهية، أعشاب قصيرة وشجيرات، وبحيرة صغيرة يتقافز السمك بها، أما الأرض فقد فرشت بالكامل بموكيت أخضر.

يخرج عدد من الأطفال يرتدي جميعهم أزياء حيوانات، أسد، نمر، فيل، زرافة، ثعلب، وغيرها، وبدأت مسرحيتهم الصغيرة المأخوذة عن إحدى قصص كليلة ودمنة وسط ضحكات الجميع تارة وتصفيقهم تارة أخرى، أرى بعض من حولنا يصور المسرحية بهاتفه المحمول أو كاميرا صغيرة، لابد أن أولئك هم أولياء أمورهم، أرى الدموع تترقرق في أعينهم.

انتهت المسرحية المصغرة ثم توالت بعد ذلك الفقرات، حتى وصلنا للفقرة الأخيرة، انزاحت الستائر وسُلطت الكشافات على منتصف المسرح تمامًا حيث ينتصب ميكروفون وحيد على حامل

حديدي قصير، تخرج طفلة صغيرة ذات ضفيرتين سوداوين، ترتدي قميصًا أبيضًا، ربطة عنق أرجوانية تتماشي مع تنورة أرجوانية قصيرة وحذاء بنفس اللون، تقف أمام الميكروفون حيث الأضواء مسلطة عليها، وتبدأ في الغناء.. من دون موسيقى مصاحبة تغني..

أغنية باللغة الفصحى عن الحياة من إحدى أغاني مسلسلات الرسوم المتحركة الشهيرة، يرن صوتها عذبًا بريئًا في كل سماعات المسرح المحيطة بنا وسط صمت الجميع التام.

تنظر هايا لي بعينين دامعتين، تتشبث يدها بذراعي، تسند جبينها إليه وهي ترتجف، ثم تدير رأسها ساندة صدغها على كتفي لتكمل مشاهدة الطفلة التي مازالت تغني في عذوبة ورقة.

دقيقتان ونصف من الروعة الصافية انتهت لينهض الجميع مصفقين في قوة لدقيقة كاملة، قبل أن يخرج باقي الأطفال ويكتمل التصفيق لدقيقة أخرى.

يتجه بعض الحضور إلى خشبة المسرح لاحتضان أبنائهم فأنهض ممسكًا بيد هايا لنتجه نحن الإثنان أيضًا إلى خشبة المسرح، نحو تلك الطفلة بالتحديد حيث تحملها والدتها ويقف والدها بجانبهما.

أدنو من الأم سائلاً:

- اسمها إيه؟

تجيبني وهى تدللها:

- حلم..

أمد يديَّ فتتناولها لي، أحملها في رقة قائلا لها:

- اللّه، إيه الإسم الكميل ده؟

تضحك في جذل محاولةً إخفاء وجهها خلف رأسي.

- إنتِ مكسوفة؟ استني بس سلمي طيب على طنط هايا..

تخرج من مخبئها ناظرة إلى هايا التي تمد لها يدها فتصافحها حلم في رقة.

أخاطب هايا ناظرًا إلى حلم قائلا:

- شايفة الجمال؟ وتقوليلي شاكيرا؟ شاكيرا إيه وبتاع إيه!

أطبع قبلة على خدها قائلاً:

- تتجوزيني يا حلم؟

من جديد تعود إلى مخبئها ضاحكة فأخاطبها غامزًا لوالدتها:

obeikandl.com

- ده أنا عريس لقطة واللّه، معايا شقة وعربية وبعرف أغسل وأمسح وأطبخ.

أسمع صوت ضحكاتها العذبة ينطلق من خلف رأسي، تدنو مني هايا تمد يديها لتحملها.

أناولها حلم فتتفحصها بعينين زائغتين، تطبع قبلة على وجنتها وأخرى على جبينها ثم تهمس قائلة لها:

- إنتِ بتغني حلو خالص يا حلم.. إنتِ نفسك تطلعي إيه لما تكبري؟

من دون تردد تجيب حلم:

- دكتورة..

- يا حبيبتي..

تقولها هايا هامسة، تطبع قبلة أخرى على وجنتها ثم تعيدها إلى والدتها وتنظر لي قائلة:

- هات مفاتيح العربية.

- ليه؟

أقولها غير متفهم ما تفعله..

- هاتها بس، استناني هنا..

obeikandl.com

أناولها مفاتيح السيارة فتأخذها وتهرول رافعة ثوبها حتى يتسنى لها الركض بحرية.

أقف جامدًا في مكاني كشجرة بلوط أنتظر عودتها خائفًا أن تذهب بغير رجعة.

تمر دقيقتان ثم تعود من جديد حاملة تلك الحقيبة الصغيرة التي تركتها في السيارة قبل دخولنا الفندق، تتخطى الجميع بما فيهم أنا وتصعد على خشبة المسرح، تضع الحقيبة أرضًا، تقف أمام الميكروفون، ثم تضربه مرتان برفق قائلة:

- لو سمحتوا..

يصمت جميع من بالقاعة منتبهًا إلى هايا التي تكمل بعد عن أن حازت على انتباه الجميع:

- أنا عارفة إن الليلة مخصصة للأطفال بس، وإنهم حبوا يعملوا هما بنفسهم كل حاجة فيها، يغنوا ويعزفوا ويمثلوا.. بس أتمنى تسمحوا لي باستثناء صغير.

الليلة دي فيه ناس قدمت تبرعات، وناس قدمت حضور، لمدة كام دقيقة بس أنا هقدم لهم حاجة بسيطة.

تنهي كلماتها ثم تنحني على الحقيبة الملقاة أرضًا تفتحها وتخرج منها دمية قطنية صغيرة على هيئة أرنب صغير، تلبسه في يدها وترفعه للأعلى ليراه جميع من في المسرح.

أعرف أن هناك عرضًا في غاية الروعة على وشك أن يُقدم فأشير للجميع بالجلوس في مقاعدهم ثم أجلس أنا أرضًا أمامها بمحاذاة الصف الأول..

و تبدأ هايا في عرض موهبتها وسط ذهول الجميع ودهشتهم، يتضاحك كل من في المسرح ويصفق، الكبير قبل الصغير، تتسع ابتسامتي ضاحكًا أنا الآخر، مصفقًا في جذل كطفل صغير.

ينتهي عرضها بعد عشر دقائق فتحيي الجميع ثم تنزل عن خشبة المسرح متجهة إلى الصف الأول حيث تجلس حلم ووالداها، تخلع الدمية عن يدها وتناولها لها ثم تقبل كفها الصغيرة وتنهض متراجعة للخلف مشيرة إليَّ بالنهوض، أنهض مربتًا على رأس حلم، أومىء لوالديها وألحق بهايا التي تمسك بيدي حتى نخرج من قاعة المسرح الصغير إلى الساحة الخارجية.

أدير وجهي ناحيتها كي أقول لها شيئًا:

- أنا.. .

تقفز هي لتحتضنني بقوة، يتهدج صوتها بكاءً، لا أدري ماذا أفعل، يداي معلقتان في الهواء خلفها، أضمهما عليها مربتًا على ظهرها، ممررًا كفي فوق خصلات شعرها كي تهدأ قليلاً ولكن بلا جدوى، تعتصرني مكسرةً ضلوعي..

- مالك يا هايا.. .؟

- .. ..

موجة أخرى من البكاء في صدري، أحيط وجهها بين كفيَّ هامسًا:

- هايا..

ترفع عينيها ناظرة إليَّ وبصوت متحشرج ترد:

- إنت ليه كدة؟

- كدة ازاي؟

- ده شيء مش كويس صدقني.. أنا كدة ممكن أحبك..

أشعر أن قلبي يهوي إلى قدميَّ كمصعد معطوب يسقط من ارتفاع مئة طابق دفعة واحدة!

تلجم المفاجأة لساني للحظات محاولاً البحث عن رد مناسب فلا أجد، وتكمل هي مستطردة:

- إنت خليتني متلخبطة، حاسة بمشاعر كتير مش قادرة أستوعبها.. مشاعر حزن على فرحة، أمل على وجع.. على حاجات كتير تانية..

obeikandi.com

- عارفة الأهم من كل ده إيه؟

تهز رأسها لمعرفة الإجابة..

- اللـي إنـتِ عملتيـه لنفسـك، حققـتِ أول أمنيـة في القايمـة بتاعتـك..

تضيَق عينيها غيـر مستوعبة فأذكرها بكلماتها وكأنني أقرأ مـن ورقـة:

- أقدم عرض قدام أحسن جمهور في العالم..

بعينين متسعتين ترفع حاجبيها في ذهول فأكمل أنا مشيرًا برأسـي إلـى المسـرح:

- ومتهيألي مفيش أحسن من الجمهور اللي جوة ده..

لحظـة، اثنتـان.. وفي الثالثـة تحيـط وجهـي بكفيها ثـم فجـأة تنفذ شفتاها عمـلاً انتحاريًـا مصطدمـة بشفتيّ فأتحول إلـى أشـلاء بـين يديهـا، ويبقـي الوضـع علـى ماهـو عليـه لمدة طويلـة.. أو هكـذا أظـن..

سفينة فضائيـة هبطـت للتـو علـى سـطح قلبـي، يغادرهـا رائـد فضـاء، يخلـع خوذتـه ويتنفـس الهـواء منتشـيًا، الدمـوع تتراقـص في عينيـه، يتصـل بالمحطـة الأرضيـة قائـلاً في جـذل « هـذا الكوكـب صالـح للحيـاة، أكـرر، هـذا الكوكـب صالـح للحيـاة».

وبعد وقت لا أعرف أجله، تفض اشتباك شفاهنا عائدة إلى الوراء خطوتين، تستل أنفاسًا عدة، ثم تزفر في قوة، تخلع حذاءها ممسكة به في يدها ثم تسير باتجاه بوابة الخروج شبه مترنحة، ألحقها فنسير جنبًا إلى جنب للحظات، تقترب مني بعدها متأبطة ذراعي ساندة رأسها على كتفي متجهين إلى السيارة.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس عشر – مهمة مستحيلة

Chapter Sixteen – Mission Impossible

نعود أنا وهايا إلى الفندق من جديد من أجل تنفيذ المهمة المستحيلة في استعادة حاجياتنا من دورة مياه الغرفة، سائرين في الممر الطويل المؤدي إلى الغرفة أكاد أسمع في أذنيَّ الموسيقى التصويرية المميزة لفيلم Mission Impossible أو مهمة مستحيلة، ناظرًا خلفي أسمعها تهمس:

- تفتكر رجع؟

- مش عارف، هي الساعة كام؟

تنظر في ساعتها قائلة:

- داخلة على تسعة.

- أكيد رجع.

أقولها متفاديًا عربة ترولي حديدية يدفعها أحد العمال بالفندق ذاهبًا بها إلى إحدى الغرف لتقديم وجبة العشاء على الأرجح، أدنو منها هامسًا:

- ما تسيبك من الحاجة ويلا بينا نمشي يا هايا.

OpelKandil.com

- ازاي يا عايش! حاجتنا كلها جوة مش اللبس بس، الموبايلات والآيبود، والمحافظ، والكاميرا والصور.. كل حاجة.

نصل إلى الغرفة مستندين إلى الحائط المواجه لبابها تتصاعد دقات قلوبنا وتضيق أنفاسنا.

«يوووه ده إيه اليوم ده ياربي! نسيت الأطباق»

يقولها ذلك العامل واقفًا أقصى يسارنا بالممر، يلتقط المنشفة من على ساعده ملقيًا بها على عربة الترولي، يسير بخطوات سريعة تجاهنا، يتخطانا متجهًا إلى المصعد، يستقله ويغادر.

أومىء لهايا برأسي مشيرًا لتفحص الغرفة، أسمع الموسيقى تتصاعد بداخلي، تنظر يمينًا ويسارًا لتتأكد من خلو الممر ثم تقترب من الباب، تكتم أنفاسها، تغمض عينيها واضعة كفيها وأذنها عليه، تظل على تلك الحال لثوان ثم تبتعد متراجعة بخطوات حذرة، تهز رأسها في استياء ثم تنظر لي قائلة:

- جوة..

- عرفتِ ازاى؟

- سامعة فيلم شغال..

أمسك برأسي محاولاً السيطرة على انفعالي، أشعر أنني أود أن أركل الحائط حتى ينهار.

- وبعدين.. هانعمل إيه؟

- سيبني أدخل له وأحاول أتصرف.

أنظر لها مطولاً، ثم أبتسم ناظرًا إلى باب الغرفة:

- لا سيبيلي أنا الطلعة دي..

أرفع صوت الموسيقى بداخلي، أطقطق أصابعي، فقرات ظهري وعنقي، أعدل من هندامي ومن وضع البابيون على ياقة قميصي، أنفض غبارًا وهميًا يعلق بكتفيَّ، أستل نفسًا عميقًا ثم أنظر إليها قائلاً:

- روحي هاتي الأسانسير وازنقي الباب بحاجة، ماتخليش حد يسحبه.. فاهمة؟

تومئ هايا برأسها غير مستوعبة وهي لا تزال في مكانها.

- يلا مستنية إيه!

أهتف هامسًا فتنطلق هي يمينًا ناحية المصعد لتؤدي الجزء الخاص بها من المهمة، وأنطلق أنا أيضًا إلى اليسار حتى أصل إلى عربة الترولي، أدفعها عائدًا بها إلى الغرفة، التقط المنشفة،

أضعها على ساعدي، أتأكد من تغطية المفرش الكبير لجميع جوانب العربة، أدني ذقني، ثم أدق على الباب دقتين قائلاً « روم سيرفس»، ثم أعود إلى الخلف.

أنظر يمينًا فأرى هايا ترفع لي إبهامها دليلاً على تنفيذ مهمتها بنجاح وقد وضعت أصيص نبات بلاستيكي كبير بين طرفي بوابة المصعد، ساندة عليه حذائها ذو الكعب العال وهي تعقد ساعديها أمام صدرها.

أسمع خطوات تقترب من الباب داخل الغرفة ثم ينفتح الباب ويظهر ذلك الرجل الذي قابلناه بردهة الفندق أثناء نوبة صرع هايا المزيفة، مازال يرتدي بدلته ما عدا السترة، أرجو ألا يتعرف عليَّ، أحاول أن أخفي وجهي واضعًا يدي على جبهتي. يتفحصني لثوان ثم يشير إليَّ بالدخول وهو يعود داخل الغرفة، أنظر إلى هايا بعينين متسعتين ثم أتبعه إلى الداخل.

- جايب لحضرتك هدية من الأوتيل.. كومبليمو.

يتوقف عن المشى مستديرًا لمواجهتي، يضيق عينيه قائلاً:

- بمناسبة إيه؟

- حضرتك عميل مميز، وتستاهل معاملة مميزة.

أقولها بطريقة أوتوماتيكية وكأنني في أحد إعلانات مساحيق الغسيل، أحاول أن أغذي غروره بقدر المستطاع، ينظر إلى نقطة وهمية جانبًا، تتزايد ضربات قلبي، فأخشى أن يسمعها، وأخيرًا يبتسم ناظرًا إليَّ:

- ميرسي.

يقولها ثم يجلس على أحد المقاعد مشيرًا لي بقرف نحو الطاولة، أسارع نحوها واضعًا فوقها الدلو المملوء بمكعبات الثلج تتوسطه زجاجة شامبانيا.

- سيبها ما تفتحهاش، مش هشرب دلوقت.

حمدًا لله، فأنا لا أعرف كيف أفتحها ولا أريد، أنظر في ساعتي، مرت أربع دقائق، أخشى أن تنتهي السبع دقائق وتقوم ذاكرتي بإعادة تشغيل نفسها، يجب أن أرى هايا قبل انتهاء السبع دقائق.

- أى خدمة تانية يا فندم.

- لا.. اتفضل..

يقولها واضعًا ساق على ساقٍ..

obeikandl.com

أومـىء لـه برأسـي ثـم أعـود إلـى الـوراء جاذبًـا الترولـي معـي حتـى أصـل إلـى بـاب الحمـام، أبلـع ريقـي في صعوبـة ثـم أرفـع رأسـي قائـلاً:

- معلش بس يا فندم هزود فوط في الحمام.
- مفيش مشكلة.. بس بسرعة.

صدقنـي أنـا أود أن أنتهـي مـن ذلـك بأسـرع مـا يمكـن. وفـوراً أدخـل الحمـام ثـم أركـن عربـة الترولـي بمحـاذاة البـاب بالضبـط، تـدور الموسـيقى في عقلـي مـن جديـد، أدور بعينـيَّ يمينًـا ويسـارًا بحثًـا عـن الحقائـب، مختبئـة أسـفل المرحـاض أجدهـا مغطـاه بمنشـفة، ألتقطهـا بسـرعة، ثـم أرفـع مفـرش عربـة الترولـي في حـذر وأضعهـا بالعربـة، أتأكـد أننـي لـم أنـس شـيئًا ثـم أخـرج مـن الغرفـة.

- كله تمام سيادتك، تؤمر بحاجة تانية؟

يهـز رأسـه نافيًـا فأخـرج دافعًـا العربـة أمامـي، لـم يتبـق إلا نصـف دقيقـة، تعبـر العربـة عتبـة البـاب، وأعبـر أنـا بقدمـي اليمنـى ثـم..

- استنى عندك!

أتجمـد في مكانـي، أتصبـب عرقًـا، أنهـار الأمـازون ترغـب في التدفـق مـن مثانتـي، ليـس مـن اللطيـف أن أبلـل نفسـي وأنـا بذلـك السـن، أشـعر أن قلبـي قـد توقـف عـن النبـض الآن، أسـمع خطواتـه

تقترب، يتوقف خلفي تمامًا، ينقر بأصابعه على كتفي فأدير وجهي ببطء، عشرين جنيهًا ألمحها في قبضة يده.

هذا الرجل مما لا شك فيه يتلاعب بأعصابي، أتناول العشرين جنيهًا مبتسمًا في ذبول:

- شكرًا يا فندم..

يشيح لي بيده أن اغرب عن وجهي، فأغرب مسرعًا، ثم أغلق الباب خلفي وأنا أنظر إلى هايا مع انتهاء الوقت تقريبًا ولكنها ليست هناك عند باب المصعد..

●●●

أريد أن ألطم، وأصرخ، ثم أقطع شراييني، هكذا أشعر في تلك اللحظة، سوف أنسى كل شيء وتحدث الكارثة، سوف..

- أنا هنا..

تربت هي على كتفي الأيمن فأجفل مفزوعًا ناظرًا إليها، أبلع ريقي في صعوبة زافرًا في بطء.

- يلا إنت لسة هاتريح!

تقولها ثم تنحني لتلتقط الحقائب من العربة ثم تدفعها جانبًا. نسمع صوت جلبة آتٍ من ناحية السلم، تقترب الجلبة شيئًا فشيئًا فتتضح الأصوات تدريجيًا:

obeikandl.com

«أيـوة، أنـا خـلاص وصلـت الـدور أهـو، هشـوف فيـه إيـه ـفي الأسانسـيـر.. حـول..»

- يا نهار اسود.. الأمن!

- تعالى ورايا.. تعالى بسرعة..

تقولهـا وهـي تناولنـي حقيبتـي وتركـض إلـى الناحيـة المقابلـة للمصعد والسلالم فأركض وراءها، نصل إلى نهاية الممر فتنحرف يسارًا فأنحرف وراءها، تتوقف أمام باب الطوارئ تفتحه وتشير إلـيَّ لأتبعها، ـفي نفس اللحظة التـي يصل فيها رجال الأمن إلى المصعد المعطل.

نستقل السلالم نازلين حتى نصل إلى الطابق السفلي فنخرج إلى الممر المشابه إلى ممر الغرف فوقنا، تتوقف هايا تستل أنفاسًا عدة ساندة بيديها على ركبتيها ثم تعتدل قائلة:

- افتح شنطتك وطلع كل اللي فيها.

- ليه؟

- افتح بس..

أفتح حقيبتي فتتناول ما بها من ملابس وأشياء أخرى، تقلبها رأسًا على عقب وتنفضها بقوة لتتأكد من خلوها تمامًا ثم

تلقي بها جانبًا، تلملم ما أخرجته منها ثم تفتح حقيبتها وتقحمه بداخلها، بالكاد تغلقها ثم تعلقها على كتفها وتشير لي بالتحرك.

●●●

بردهة الفندق، نسير بغطرسة متجهين إلى باب الخروج وقد أتممنا المهمة بنجاح. نخرج إلى الشارع وأكاد لا أصدق نفسي، أزفر متنفسًا الصُعداء..

- الحمد لله، جت سليمة.. نروَح بقى وكفى الله المؤمنين شر القتال..

أقولها سائرًا بجانب هايا التي تومىء برأسها مبتسمة في صمت، نمر بجانب رجل سمين أصلع، يرتدي بدلة بنية وعوينات طبية سميكة، يصرخ في الهاتف متحمسًا:

«إنت فين يا حسين! الله.. يابني الفرح بادىء بقاله نص ساعة! أماااال.. و حماقي مولعها فوق!، بص انت لما توصل رن عليا هطلع لك، وأنا هديهم خبر برة على باب القاعة، لما تيجي انت ومراتك قول لهم بس إنك تبع متولي وما تحملش هم، يلا مستنيك، مع السلامة.. مع السلامة.. مع السلامة».

تتجمد هايا في مكانها ناظرة إليَّ بعينين متسعتين فأستوعب على الفور ما يدور في عقلها، أعرف ذلك المطرب المدعو ب

«حماقـي» أينعـم لا أتذكـر أيًـا مـن أغانيـه ولكننـي دونـت اسـمه مـن ضمـن أسـماء مطربـين كُثُـر دونتهـم مـن قبـل في دفتـر أوراقـي.

أحاول إقنـاع هايا بالعدول عـن الكارثـة التـي تنـوي فعلهـا وجـري معهـا كخروف مسـكين.

- هـايا، نعقل ونستهدى باللّه كدة، ونروَح.

أقولهـا باسـطًا كفـيَّ أمامهـا وكأننـي أحـاول أن أهـدىء وحشًـا مفترسًـا.

- عايـش.. ربـع سـاعة بـس.. أشـوفه وأتصـور معـاه صـورة واحـدة بـس.. و نمشـي.

- هايـا.. لسـة بنقـول جـت سـليمة، الأمـن زمانـه بيـدور علينـا فـوق، اقصـري الشـر.

- ربع ساعة.. صورة واحدة.

- هـايا..

- عايش..

- مستحيل نطلع تاني، على جثتي يا هايا!

●●●

- هـايا، ربع ساعة، وصورة واحدة.. و نمشي..

obeikandl.com

أقولها سائرًا بخطوات سريعة بجانب هايا نتجه نحن الإثنان إلى القاعة المنشودة.

- ها نمشي على طول..

- هات العواقب سليمة يارب..

أقولها معدلاً من وضع الحقيبة على كتفي..

- عواقب إيه، هو انت بتولد..

- مش بعيد تحصل على إيدك، معاكِ ممكن تحصل أى حاجة، أتقلب ست، أتسخط قرد، أصحي ألاقيني فردة كاوتش..

- تفاءل بس انت وبلاش التشاؤم ده..

- طب هاندخل إزاي فهميني..

- بكل سهولة..

نصل إلى باب القاعة فيستوقفنا رجلا أمن، تدنو هايا من أحدهما قائلة بطريقة بوليسية:

- احنا تبع متولي..

- تمام يا فندم..

obeikandl.com

يقولها أحدهما سامحًا لها بالدخول، أتبعها فيمنعني ممررًا على جسدي عصًا بلاستيكية تصدر أصواتًا استاتيكية، يحاول استخدامها للكشف عن الأسلحة والمتفجرات.

يدنيها أخيرًا ثم يشير إلى الحقيبة فأناولها له، يفتحها منقبًا بداخلها عن أى شيء مريب ثم يناولها لي.

- آه صحيح، استنى أنا عايزة الموبايل.. عشان الصور..

تقولها هايا فأناولها الحقيبة وندخل القاعة سويًا تستقبلنا الأضواء المبهرة التي تتراقص منعكسة على كل شيء، الدخان الاصطناعي وفقاعات الصابون، الموسيقى الصاخبة التي تضخ في أنحاء القاعة بأكملها مصحوبة بضوضاء الحضور، ما يقرب من ألف شخص في قاعة لا تزيد عن ثلاثمائة متر، هل هذا هو الجحيم؟ يتجمهر أغلبهم على هيئة دائرة في منتصف القاعة يصفقون ويتقافزون في حماس، نقترب أكثر من تلك الدائرة محاولين اختراقها، عابرين وسط كتل من اللحم البشري، ألوان براقة، ولا أتكلم هنا عن ألوان الملابس فقط، بل ألوان دهانات الوجوه، لترات من العطور مختلطة بالعرق، تصفيق الجميع وصراخهم أقصد غنائهم مع أحد الأغاني التي تلعب، أعتقد أنها أغنية لذلك المطرب المدعو حماقي، نصل أخيرًا إلى

منتصف الدائرة، حيث العريس والعروس يرقصان بصحبة عدد من الشباب والفتيات، يظهر من خلفهم الشخص الوحيد الذي لا يرقص أو يصفق، وانما يغني ممسكًا بميكروفون، لابد أن ذاك الشخص هو..

- حماااااااااااقي.. .

تقولها هايا صارخة وهى ترفع ثوبها وتهرول متجهة إليه، تتخطى الجميع مندفعة فتتسبب في تساقط البعض وكأنها أحد لاعبي كرة القدم الأمريكية (الرجبي).

تصافحه بحرارة، تقف ملاصقة له، ثم ترفع هاتفها و.. كليك.. صورة سيلفي.. كليك.. صورة أخرى.. و كليك كليك كليك!.. .عدد لا متناهي من الصور.بمختلف الأوضاع الممكنة.

تعرف هايا كيف تفي بوعودها.. و عليَّ الآن أن أضيف حماقي إلى قائمة الغيرة.

يتدافع جميع من حولي فأجدني أتراجع إلى الخلف رُغمًا عني، أحاول أن أقاوم المد ولكن دون جدوى، أمواج من البشر تسحبني وفي لحظات أجدني خارج الدائرة تمامًا.. تبًا.

لا أعرف كيف أصل إلى هايا، أتراجع إلى الخلف خطوتين محاولاً أن أكتشف ثغرة هنا أو هناك أدخل منها، أعتقد أنني لو

حاولت اختراق الدائرة من جديد سيتم التحرش بي لا مناص من ذلك، أشاهدها في شاشة العرض الكبيرة في أقصي القاعة، مازالت تلتقط صورًا مع المطرب بل وتغني معه، أفكر في الإتصال بها على هاتفها، تبًا أين الحقيبة!

أتلفت يمينًا بحثًا عنها.. لا شيء.. أتلفت يسارًا.. .لا شيء.. لحظة.. يا إلهي..

تصطدم عيناى بعينيه، إنه هو.. ذلك الرجل الذي اقتحمنا غرفته اليوم.. اللعنة.. أحاول الإفلات منه متراجعًا إلى الخلف فيمسك بذراعي ناظرًا إلى بعينين يملؤهما الشر، أتخلص منه راكضًا ناحية الدائرة البشرية فأجد من يمسكني مجددًا.. .

- عايش.. يلا بينا..

بارزة من العدم تقولها هايا بصوت مرتفع ليتخطى صوت الضوضاء حولنا.

- وديتِ الشنطة فين؟

أقولها محاولاً البحث عن ذاك الرجل بعينيَّ.

- بتقول إيه؟

- الشنطة! وديتيها فين!

- تحت الترابيزة اللي هناك دي!

- ليه!

- تقيلة قوي! كتابي نملت والشنطة كانت هاتفرقع خلاص!

للأسف، قالتها هايا بأعلى درجات صوتها في نفس اللحظة التي توقفت فيها الموسيقى تمامًا عن اللعب من أجل الإعلان عن افتتاح البوفيه للحضور.

لكم أن تتخيلوا ما يمكن أن تفعله أربع كلمات بسيطة كتلك: الشنطة.. كانت هاتفرقع.. خلاص..

جحافل من الزومبي تهرول ناحية باب الخروج، رجال، نساء، أطفال، عجائز، حتى المقعدين منهم، الكل يحاول النفاذ بجلده، بعضهم يركض ثم يقع، ثم ينهض راكضًا ليقع مرة أخرى.

فيضان بشري اجتاح القاعة، مُسقطًا في طريقه الطاولات والمقاعد والبشر!

يهرول الرجل السمين الملقب بمتولي الذي التقيناه خارج الفندق بالأسفل، وبعد لحظات تهرول خلفه سيدة بنفس حجمه تصرخ في رعب: «يا متتتتتوووووللللي!»

هذا هو المعنى الحقيقي للمسخرة..

obeikandi.com

تهز هايا رأسها في عدم رضا غير مبالية بما يحدث حولنا والدمار الذي تسببت فيه للتو، متجهة إلى البوفيه، أتجه وراءها محاولاً السيطرة على أعصابي، أخلع سترة البدلة مستندًا إلى حافة المائدة غير مصدق ما يحدث. تقف بجانب طبق الفاكهة الكبير، تمد يدها وتتناول تفاحة حمراء كبيرة، تحظى بقضمة منها وتمضغ ما بفمها متلذذة.

من بعيد يظهر شبح شخص قادم نحونا سائرًا بين الدخان والفوضى، يبدو أنه الشخص الوحيد الذي لم يتحول إلى زومبي بعد، أقصد لم يفر مع بقية من فروا لتوهم، يا إلهي.. هل هو ذلك الرجل؟ يقترب أكثر فيتضح وجهه في الضوء، لحسن الحظ إنه ذلك المطرب، حماقي.

حاملاً الميكروفون في يده يقف بجوار هايا، ينظر حوله في أسف واضعًا يديه بخاصرته، يلقي بالميكروفون على مائدة البوفيه ناظرًا لها، ((كخاوم)) تقضم هي مرة أخرى من التفاحة ثم تقفز بظهرها جالسة إلى المائدة، تهز ساقيها بطريقة طفولية وكأنها تجلس على حافة حمام سباحة ثم تسأله:

- هم مالهم دول، بيجروا ليه؟
- مش عارف، بيقولوا فيه قنبلة باين.

يخلع هو الآخر سترته ملقيًا بها على أحد المقاعد، يفك أزرار أكمام قميصه محدقًا في شيء ما خلف هايا..

- إيه ده.. بجد؟

((كخاوم)) قضمة أخرى من التفاحة المسكينة ثم تكمل بفم ممتلئ:

- مش ممكن..

- آه والله، اديني.. .

يقولها هو مستلاً نفسًا عميقًا مضيقًا عينيه ثم يكمل ناظرًا إلى طبق الدجاج الموضوع بجانبها:

- اديني ورك الفرخة اللي جنبك ده..

●●●

على بوابة القاعة يظهر من بعيد ثلاثة رجال من النينجا، أجساد ضخمة، ملابس تتشح بالسواد، أقنعة تخفي وجوههم، أجهزة اتصال لاسلكية، وبالطبع بنادق آلية!.أشعر أن نهاية العالم تقترب.

«لقينا الإرهابيين يا فندم».. .يقولها أضخمهم.

«اتعامل فورًا!».. كان ذلك الصوت الآتي من جهاز اللاسلكي.

obeikandl.com

يقترب ثلاثتهم شاهرين أسلحتهم في حذر نحونا، أرفع يديَّ أمام وجهي كما يفعلون في السينما، وكذلك يفعل حماقي، أما هايا فمازالت تجلس فوق المائدة، تؤرجح ساقيها وتقضم التفاحة في ملل.

- فين الشنطة؟

يقولها أضخمهم فتشير له هايا نحو إحدى الطاولات، يقترب منها بحذر، تاركًا زميليه معنا.

جاثيًا على الأرض يسحب الحقيبة في حذر، يلتقط من حزامه جهازًا غريبًا يمرره على الحقيبة لبضع ثوان، ثم يفتحها في حذر، ويبدأ في إفراغ محتوياتها شيئًا فشيئًا.

بعد دقيقتين ينتهي تمامًا من مهمته فينظر إلينا قائلاً:

- اللّه! أمال فين القنبلة؟

دانيًا يديَّ بجانبي أجيب:

- قنبلة إيه سعادتك؟

- الناس سمعت زميلتك وهى بتقول الشنطة هاتفرقع خلاص!

- م التقل.. .

تقولها هايا وهى تلقي ببقايا التفاحة في أحد الأطباق..

- ها؟

يقولها هو مستغربًا..

- الشنطة كانت هاتفرقع من التقل، هما اللي فهموا غلط..

تقولها ثم تنزل عن الطاولة، تنفض يديها وتتجه نحو الحقيبة تعيد حاجياتنا بها، تحملها ثم تشير إليَّ:

- يلا يا عايش..

أسير وراءها بين الخرائب، طاولات ومقاعد محطمة، أطباق وكؤوس مهشمة، وذهول الرجال الثلاثة، أقصد رجلين، الثالث تركنا ليلتقط سيلفي محتضنًا حماقي في سعادة وحبور.

●●●

متجهين إلى باب ردهة الفندق بالأسفل للمرة الثانية أعدل من وضع الحقيبة على كتفي قائلاً:

- جبتِ درفها إنتِ، الليلة كانت ناقصة فعلاً حاجة زي دي، نبوظ فرح.

- هما اللي متخلفين..

- يا هايا إنتِ اللي مغناطيس مشاكل.. كعبورة شر.

- كع إيه؟

- كعبورة شر..

تضحك قائلة:

- طب والله حلو الاسم ده، كعبورة شر..

- أنا مش مصدق إننا بننفد بجلدنا للمرة التانية من الفندق ده..

- قصدك التالتة.. تيجي نطلع كمان مرة؟

«هما دول.. هما دووووول»

يأتي الصوت من خلفنا، نستدير سويًا في نفس اللحظة لنجد الرجل صاحب الغرفة يشير إلى أحد رجال الأمن نحونا.

نظرة واحدة نتبادلها أنا وهايا لنستوعب الأمر ثم نركض بأقصى سرعة خارجين من الفندق متجهين نحو السيارة تلاحقنا الطلقات النارية.

●●●

الفصل السابع عشر – سفينة ضائعة

Chapter Seventeen – A Lost Ship

منطلقين بالسيارة نفر للمرة المليون من الملاحقين لنا، هذه المرة كان ذلك الرجل صاحب الغرفة وعدد من رجال الأمن، وبضع طلقات نارية. نبتعد بالسيارة كثيرًا عن الفندق، متوغلين داخل الأزقة والأحياء، تبتلعنا القاهرة ويبتلعنا ليلها، أقود أنا هذه المرة وتمارس هايا هوايتها المفضلة وتقوم بتوصيل الآيبود بالسيارة وتقوم بتشغيل إحدى الأغنيات، Midnight City لفريق M83.

نجوب الشوارع الممتلئة بالمارة، والإعلانات النيونية الضخمة المعلقة على البنايات، أضواء السيارات، المحلات والمطاعم المختلفة المتراصة جنبًا إلى جنب.

أنظر إلى هايا وأفكر للمرة الثانية، من منا اصطحب الآخر في هذه الرحلة، أنا أم هي.. ؟ من منا اختطف الآخر، سؤال إجابته لا تحتاج إلى كثير من الذكاء!

اثنان ضد العالم بأكمله في رحلة مجنونة أتمنى أن تستمر حتى تتوقف الأرض عن الدوران.

www.ibelkandi.com

لا أشعر أنني اختبرت سعادة مثل التي أشعر بها الآن من قبل، برغم كل الأحداث الجنونية والخطرة التي تعرضنا لها، لقد أحالت هايا كل وجهة ارتحلنا إليها محطة رسمية للسعادة.

حينما دعوتها لقضاء اليوم معي، لم أكن أتخيل أبدًا أن يحدث كل ذلك لنا، وأن ينتهي بنا اليوم كما انتهى، حينما دعوتها لم أكن أحلم حتى بمصافحتها، والليلة عانقتني، أغرقتني، أحرقتني، ثم أنهالت عليَّ بشفتيها، اغتالتني.. أردتني قتيلاً، في ليلة واحدة جعلت مني أبًا وأخًا وابنًا وحبيبًا..

سابقًا كنت أرغب في خريطة ترشدني إليها، والآن وقد وجدتها.. .أدرك أنني لا أحتاج خرائط وأنا معها، هي خريطتي لأجوب العالم والدنيا، لأعيش الأيام وأتنفس..

سفينة تائهة أنا تتقاذفها الأمواج، ضاعت بوصلتي فضعت في البحار لسنين طويلة، تكسرت أشرعتي، وتحطمت قلوعي، ونهبني القراصنة آلاف المرات.. صرت بلا مرسى، بلا شطآن ترغبني، والآن وقد اهتديت إليها لم أعد أخشى الأمواج، صارت أشرعتي أقوى من ذي قبل، تهابني القراصنة لأنني أصحبت تحت حمايتها، وماعدت أرغب شطآنًا تنشدني، فهي وجهتي وإليها سأرسو.. .منارتي الصغيرة.. .هايا..

●●●

نعلق في إشارة مرورية فأوقف السيارة منتظرًا انتهاء التسعين ثانية، أسند رأسي إلى المقعد ورائي وأغمض عينيَّ.

- شايف الاتنين اللي على يميننا دول؟

تقولها هايا فأنظر إلى الثنائي بالسيارة على يميننا، تقودها فتاة ذات ملامح أجنبية فادحة، شعر أشقر طويل، عينان زرقاوان وغمازة يتيمة، الشاب ذو ملامح مصرية، شعر أسود فاحم، عينان سوداوان وذقن غير حليقة، أومىء برأسي قائلاً:

- مالهم؟

- كيوت قوي، البنت شكلها أجنبي.

- آه، تقريبًا.

- تراهن؟

- وأراهن ليه؟ أنا متأكد إنها أجنبية بس هو مصري.

- استنى أعرف.

تقولها وقبل أن أجيبها تخرج رأسها قليلاً من النافذة مخاطبة الفتاة (سأترجم ما قالته!):

- هل إنتِ أميريكية؟

obeikandl.com

لهجتها الأمريكية متقنة!

- لا .. أنا رومانية

ترد الفتاة بلكنة أمريكية أوروبية.

- وماذا عن حبيبك؟

تبتسم الفتاة ناظرة للشاب بجانبها الذي يبادلها النظر في خجل، ثم تعيد النظر إلينا قائلة:

- إنه مصري

تنظر هايا لي هامسة:

- أنا صح، عليك ١٠٠ جنيه!

- ١٠٠ جنيه إيه! أنا ما اتراهنتش معاكِ أصلاً!

أقولها هامسًا بغضب.

- سررت لمقابلتك، أنا هايا وهذا عايش.

- وأنا أيضًا، هذا ناير وأنا إيميليا .

- أسماؤكما لطيفة، استمتعا بيومكما .

- شكرًا، وأنتما أيضًا .

obeikandl.com

تقولها الفتاة (إيميليا) ناظرة إلينا هي والشاب (ناير) فأبتسم لهما أنا وهايا، ينتهي مؤقت الإشارة متلونًا بالأخضر فتنطلق سياراتنا وسيارتهما.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن عشر – العودة

Chapter Eighteen – Going Back

عائدان من جديد إلى الإسكندرية على طريق القاهرة – إسكندرية الصحراوي، ننطلق بالسيارة تغطينا السماء الواسعة وترقبنا النجوم، أخطف نظرة سريعة إلى هايا التي ذهبت في سبات عميق متكورة على نفسها في المقعد بجانبي كقطة سيامية. أجاهد كي لا يغلبني النعاس وأتسبب في هلاكنا نحن الاثنان، ممسكًا مقود السيارة بيدي اليسرى، أفتح زجاجة المياه بجانبي بيدي اليمنى، أرتشف القليل منها ثم أصب بعض الماء على وجهي.

أدير المذياع فتلعب أغنية Two Of Us On The Run لفريق Lucius. حقًا نحن إثنان هاربان على الطريق!

أعتقد أننا عبرنا نصف المسافة، في النهاية سنصل سالمين و..

.. كرررك.. كرررك.. ششش..

كان هذا صوت السيارة التي تباطأت تدريجيًا حتى توقفت عن العمل تمامًا.. و كما يقول الأمريكيون « أنا وفمي الكبير! ».

أنظر في عدادات السيارة، لقد نفد الوقود.. اللعنة.. هذا ما ينقصنا.. حسنًا على الأقل أنا في الجانب الأيمن من الطريق.. أضرب المقود برأسي فينطلق نفير السيارة بغير قصد مني..

تتململ هايا متثائبة، تفتح عينيها ببطء، تمسك بفمها فأعرف ما ينتابها، أناولها كيسًا بلاستيكيًا أسود، فتدني وجهها منه وتتقيًا.. تهدأ قليلاً ثم تغلقه وتلقي به أسفل قدميها. بعد أن تنتهي أناولها منديلاً، تمسح به فمها ثم تنظر لي بوجه شاحب مازالت به ملامح شيطانية، تبتسم في ذبول قائلة وهي تكور شفتيها:

- ما تجيب بوسة!

- يا شيخة اللّه يقرفك، حتى وإنتِ عيانة برضه شيطانة، توبي بقى يا بت، اتهدي شوية.

تبتسم في ذبول فأعاجلها:

- إنتِ كويسة؟

- حماقي كان باصص لي في التفاحة باين.. إنت وقفت ليه؟

- البنزين خلص، احنا محطيناش بنزين خالص.. معرفش ازاي نسينا..

تعتدل هايا جالسة في مقعدها، تهرش في رأسها قائلة:

- طب احنا فين؟

opeikandi.com

- تقريبًا في نص المسافة بين القاهرة وإسكندرية..

تترك رأسها يصطدم بمسند المقعد خلفها. نجلس صامتين لدقائق، نشاهد السيارات التي تتخطانا على الطريق.. بعد قليل تمر عدد من الدراجات النارية التي تتخطانا ثم تبطئ سرعتها تدريجيًا وتتوقف أمامنا ببضعة مترات.. من بعيد أرى أحد قائدي تلك الدراجات يترجل عن دراجته، يخلع خوذته قادمًا نحونا.. يقترب أكثر منحنيًا إلى نافذة هايا يتفحصنا قائلاً:

- خير؟

- البنزين خلص..

أقولها أوتوماتيكيًا وكأنني أنتظر ذلك السؤال.

- مش انتم اللي طلقتوا النعامة؟

أنظر إلى هايا متشككًا ثم أنظر له، يلاحظ قلقي فينفجر ضاحكًا:

- انتم جامدين آخر حاجة، دي اتقلبت سيرك بعد انتم ما مشيتوا.. والنعامة هربت.. مسخرة!

نضحك أنا وهايا متنفسين الصعداء، أود أن أخبرها أنني كدت أن أبلل سروالي الآن.

- بص مادام البنزين تبقى سهلة.. الماستر بعد ٥ كيلو.

يقولها متوقفًا عن الضحك فجأة فأعاجله قائلاً:

- طيب كويس.. أروح أملا بنزين وأرجع.

- وتسيبني لوحدي؟

تقولها هايا وهى على وشك الانفجار.

- طيب ما تيجي معايا.

- هانمشي ٥ كيلو ونرجع ٥ كيلو؟ طب ولبسي ده؟

أمسك برأسي محاولاً اعتصار أية أفكار بداخله.

- كان ممكن أقول لك أروح أنا أجيب لك بنزين وأرجع، بس صعب، مفيش دوران لحد ١٠ كيلو قدام، وصعب أعدي من فوق الرصيف ده خصوصًا والدنيا الليل كدة.

يقولها قائد الدراجة النارية وهو ينظر إلى الطريق ثم يرفع رأسه ساندًا على السيارة، يعيدها من جديد ناظرًا إلينا:

- طب اسمع.. أنا عندي فكرة.. بس خليني أتكلم مع صحابي وأرجع لك.

يغادر هو قبل أن أجيبه، يعود إلى أصدقائه، يثرثر معهم مشيرًا إلى الطريق تارة وإلينا تارة أخرى، ثم يهز الجميع رؤوسهم

obeikandl.com

موافقين على شيء ما، يعود إلينا من جديد بصحبة اثنين آخرين، أترجل من السيارة، أصافح ثلاثتهم ثم يبدأ صديقنا في شرح خطته:

- بص احنا لحسن الحظ معانا حبال، هانربط العربية بالموتوسيكلات وهانجرك ورانا لحد الماستر.

- أيوة بس..

- بس ايه؟

- مش تعب؟ مش خطر عليكم؟

- ما تقلقش.. أعرفك بنفسي، رامي ١٥ سنة خبرة في السكوترز.

يقولها مشيرًا إلى أحد أصدقائه ثم يكمل:

- وفادي ١١ سنة خبرة، وأنا ربيع.. ٩ سنين خبرة.. تمام؟

- خلاص مفيش مشكلة.. يلا بينا..

- اسمع، احنا هانساعدك بس عشان حاجة واحدة..

أهز رأسي منتظرًا إجابته فيقول:

- عشان عجبنا اللي عملته صاحبتك في النعامة.

obeikandl.com

أبتسم لهم، ثم أدير وجهي ناظرًا إليها للحظات، أواجههم قائلاً:

- ماشي.. متشكر جدًا.

يذهب ثلاثتهم لدقيقة يعودون بعدها متراجعين بدراجاتهم إلى الخلف، يترجلون منها ومعهم عدد من الحبال التي يبدئون في ربطها بالسيارة بإحكام شديد ثم يفعلون المثل بدراجاتهم الثلاث. أستقل أنا السيارة شارحًا لهايا كل شيء، يستقل ثلاثتهم الدراجات مشيرًا لي ربيع بإبهامه، ثم يبدأوا في زيادة سرعاتهم تدريجيًا ساحبين سيارتنا وراءهم..

- عايش..

- إيه؟

- مش احنا بس اللي مجانين..

تقولها هايا عاقدة ساعديها أمام صدرها، آخذة ابتسامتها في الاتساع تدريجيًا.

●●●

الفصل التاسع عشر - الجنة الآن في قلبي..

Chapter Nineteen – Paradise Now in My Heart

بعد ربع ساعة تقريبًا نصل إلى الماستر، الذي أتفهم ما هو لاحقًا، نحل ما ربطناه من حبال، وأشكرهم أنا وهايا، ثم يودعنا الجميع متجهين إلى الأسكندرية.

بعد أن أملأ السيارة بالوقود أعود مجددًا إليها مديرًا مفتاح التشغيل و..

- عايش أنا جعانة!

وللحظة أشعر وكأنني أب في الخمسين من عمره تستغيث به طفلته الجائعة ذات الثلاث سنوات.

- طب أعمل ايه؟

- ماهو فيه أكل هنا في الماستر.

- الماستر ده فيه حيوانات؟ يعني نعام، غزلان، سيد قشطة؟

أقولها في قلق مقتربًا منها فتضحك هي بعفوية دون أن تعطيني إجابة شافية فأكمل أنا:

- خلاص هدخل أجيب لك أكل.

obeikandl.com

- وانت مش جعان؟

- مظنش.. استني هنا، هآجي على طول.

أتركها وأغادر مسرعًا محاولاً ألا أكسر حاجز السبع دقائق نسيان، أدخل إلى الماركت الصغير، ألقي التحية على البائع، ثم أحاول أن أنتقي لها شيئًا يناسبها لتأكله، شطيرة لا تحتوي على أية لحوم، أو بيض أو منتجات ألبان، أو أى منتجات حيوانية فأنا أعرف أنها.. .

- نباتية.. ما تنساش إني نباتية..

تقولها هي هامسة في أذني فأستدير لأجدها واقفة خلفي، أفكر في ما قالته منذ ثوان وأقول لنفسي.. كيف لي أن أنسى؟ أى شيء يتعلق بها ينطبع في ذاكرتي للأبد، ولكن بدلاً من ذلك أقول:

- إنتِ إيه اللي جابك؟ مش قلت لك تستني؟

- أصل أنا بصراحة.. .

تقطع جملتها مقتربة مني ناظرة حولها في قلق ثم تهمس مكملة:

- كنت عايزة أعمل بيبي

- وعملتِ بيبي؟

أقولها بصوت مرتفع نسبيًا فتضع يدها على فمي بسرعة، وبعينين متسعتين عن آخرها تعاجلني:

- ششششش.. هاتفضحني.. أيوة اتنيلت..

- طيب تمام، أنا جبت لك شوية باتيهات وعصاير.. عايزة حاجة تاني؟

- لا تمام كدة.. بس اتأكدت ان مفيهاش..

- مفيهاش بيض وسمنة ولبن ونيلة..

- تمام..

- ما تاكلي ورق جرايد أحسن يا هايا!

تخرج لسانها اشمئزازًا وألاحظ الآيبود في يدها فأكمل:

- وإنتِ جايبة البتاع ده معاكِ ليه؟ هو البيبي بيطلب بمزيكا؟

- ايه القرف ده، اخلص يلا!

- طيب استني أحاسب ونمشي سوا.

أقولها ثم أذهب إلى البائع، أدفع ثمن ما اشتريت ثم أستدير مخاطبًا إياها:

- هاتي المفاتيح بقى، ولا إنتِ اللي هاتسوقي؟

- مفاتيح ايه؟ هي مش معاك؟

- معايا أعمل بيها ايه؟ مانا كنت سايبك في العربية يا هايا!

- مانا افتكرت انك خدتها!

- حلاوتك.. طيب يلا بسرعة أحسن العربية.. .

أقولها مهرولاً خارج المكان في سرعة لأجد أحدهم يفر بسيارتنا مبتعداً بها على الطريق، فأكمل أنا جملتي الناقصة..

- تتسرق..

أجلس مفترشًا الرصيف أمام المكان في استسلام، تقترب هي مني في خجل مشوب بالندم، من دون أن أرفع رأسي أنظر لها في لوم، ثم أرفع يدي مناولها كيس الأطعمة، تأخذه ثم تجلس على الرصيف بجانبي، واضعة الكيس بيننا تهمس:

- أنا آســ.. .

- مفيش داعي تتأسفي، احنا الاتنين غلطانين..

- بس مكانش ينفع أسيب العربية، انت قلت لي خليكِ.

- كله يهون عشان خاطر البيبي.

أقولها متهكمًا فتضحك هي ضحكة مكسورة ثم تضع يدها على كتفي قائلة:

- عايش بجد أنا آسفة، بص لما نروح ان شاء الله هانحاول نشوف حل عشان نرجع عربيتك في أسرع وقت.. .

- عربيتي؟

متشككة ترد:

- اه اللي هى.. .اتسرقت دي..

أهز كتفيّ مبتسمًا:

- بس دي مش عربيتي..

- أمال دي عربية مين؟

- مأجرها..

- أيوة بس.. .

- وعليها تأمين..

- ياخي وقعت قلبي وقاعدة كنت خلاص هاعملها على روحي من كتر الاحساس بالذنب..

obeikandl.com

- إنتِ مش لسة عاملاها جوة، هي سيرة بقى يا هايا!

تنفلت منها ضحكة كخيل أطلقوا سراحها في حقل أخضر واسع للتو..

- اللّه، بلاشي ألبي يعني نداء الطبيعة؟

- لا ازاي! بس خلي الطبيعة ترجع لنا الحاجات اللي راحت مع العربية بقى، يلا! هي الشنطة أصلاً كان نفسها تضيع من الصبح.

- الكاميرا! والصور!..

- والموبايلات، واللبس..

- و..

لا تكمل هي ما كانت على وشك قوله ثم تبدأ في الضحك لتعلوا ضحكاتها تدريجيًا حتى تصل إلى درجة الهستيريا مصحوبة بالدموع..

- اللّه؟ بتضحكي على ايه؟ إنتِ اتجننتِ يا هايا؟

تضحك هي أكثر فأمسك كتفها أهزها فتنطق أخيرًا:

- أصل.. أصل أنا بتخيل منظر اللي سرقها لما يفتح الكيسة السودا اللي فيها ال.. .

obeikandl.com

لثوان قليلة لا أفهم شيئًا مما تقصده، ثم أستوعب أخيرًا أنها تقصد الكيس الذي يحتوي على.. .القيء.. فأنطلق ضاحكًا أنا الآخر وتعود هي مجددًا إلى نوبة الضحك لننطلق سويًا في هستيريا ثنائية..

●●●

بعد دقيقة تنتهي عاصفة الضحك التي انتابتنا وتبدأ هايا في تناول طعامها، أنقل أنا بصري بينها وبين الطريق أمامنا مُشاهدًا السيارات المسرعة بكافة أشكالها، أمد يدي مقتطعًا جزءًا من الشطيرة في يدها، ألقي بها في فمي، بمذاق التوت وشفتيها، أبتسم قائلاً:

- حلو البتاع ده

- آه.. كل معايا..

تقولها وهي تقتطع جزءًا كبيرًا من شطيرتها فأمسك يدها قائلاً:

- مش جعان كلي انتِ.

أمضغ ما بفمي ثم أنظر إلى الطريق أمامنا قائلاً:

- وبعدين هانعمل إيه؟

obeikandi.com

تـزدرد مـا قـد مضغتـه، تلعـق فتـات الشـطيرة العالقـة بزاويـة شـفتيها ثـم تأخـذ نفسًـا عميقًـا وهـى تنظـر لـي وكأنهـا علـى وشـك قـول شـيء عميـق:

- ايك انيبيموس اوبيت يمي..

ها قد قالت شيئًا عميقًا بالفعل..

- آه، أنـا قلـت إنـك ملبوسـة بـس كدبـت نفسـي، فوتـك بعافيـة يـا هايـا.

أنهـض وأنفـض التـراب عـن سـروالي ثـم أهـم بتركهـا، تضحـك هـي تلـك الضحكـة القاتلـة، تجذبنـي مـن معصمـي لتعيدنـي جالسًـا علـى الرصيـف ثـم تقـول:

- استني بس، دي جملة باللاتيني.

- ممم ودي معناها إيه بقى؟

- يعني أقصى حاجة ممكن نعملها إننا نستنى هنا.

- لحد ما نخلل؟

- لا لحد ما نلاقي حد يساعدنا.

- وماله، هايحصل إيه يعني أسوأ من كدة.

obeikandi.com

وما إن أكمل جملتي حتى يرسم البرق خطًا متعرجًا في السماء متبوعًا بقنبلة صوتية من الرعد ثم تبدأ الأمطار في الهطول وبغزارة.

تنظر هي لي في حنق مكبوت قائلة:

- حقيقي مش عارفة من غيرك كنت هاعمل ايه!

- أنا آسف مش هاتكلم تاني.

تنهال الأمطار علينا ومازلنا كما نحن، لم نتحرك قيد أنملة، أنظر إلى الطريق أمامي، وتغتال هي الشطيرة بين يديها، لحظات من الصمت أقتلها أنا متحدثًا من جديد:

- بس إيه موضوع اللاتيني ده؟

تنفخ هي في ضيق قائلة:

- مانا كنت قسم لاتيني.

- ممم، قلتيلي الجملة اسمها إيه؟ ايك ابولوموس اوبترا باين؟

- اوبترا؟

تقولها وكأنها على وشك إخراج بندقية آلية وإفراغ خزانتها بالكامل في صدغي فأعاجلها:

- يعني أبولوموس هي اللي عادي يعني؟

- إيك.. أنيبيموس أوبيت يمي..

- اه اه، هي أبولوموس اوربت.

أقولها مستفزًا إياها مهرولاً لتنهض هي راكضة ورائي حتى تلحقني محاصرة رقبتي بكلتا يديها محاولة خنقي برقة قائلة:

- هقتلك يا عايش، هقتلك والله!

- كل ده عشان قلت كلمتين غلط باللاتيني!

- انت شلفطت اللاتيني!

- طب اهدي بس، مش هقول حلمبص تاني.

أقولها ماسكًا يديها بيديَّ الاثنتين مجاهدًا لأفتح عينيَّ تحت المطر المنهمر ثم أنظر إليها بعينين يملؤهما الغزل قائلاً:

- طب إيه؟

- نعم.. أؤمر؟

تقولها في استنكار فأكمل ومازال الغزل يتقافز في عينيَّ محاولاً أكثر التشبث بيديها التي تحاول الهرب من قبضتيَّ:

- يعني.. مطر، وصحرا.. و المكان رومانسي.. و احنا الاتنين لابسين سواريه.. تفتكري ربنا عايز يقول حاجة

obeikandl.com

- عايش..

- نعم..

- اتلم..

- والنبي عسل.. لا بجد ما نفسكيش ترقصي تحت المطر وكدة؟

- إيه الجو الرخيص ده.. بلاش جنان.

تقولها مشيحة بوجهها محاولة إخفاء الخجل الذي احتل ملامحها.

- يا سلام؟! حوش حوش العقل.. إنتِ من الصبح مبهدلانا ولحد دلوقتي مطلوبين من العدالة في قضيتين وجناية وجت على دي وبقت جنان.. طب ده أنا.. .

أقولها وأنا أكاد ألطم أمامها في غيظ مكتوم فتعاجلني مقاطعة:

- خلاص خلاص، انت هاتفتح لي محضر، عايز إيه؟

تنظر إلى الأرض في انتصار يختبيء داخل قلعة من الخجل فأبتسم أنا دون رد ثم أضع يديها فوق كتفيَّ، وأذهب بيدي إلى ذقنها أرفع وجهها ناظرًا إلى عينيها، أضع كلتا يديَّ على خصرها ثم أهمس قائلاً:

- نرقص..

بنظرة ماكرة ترد:

- من غير مزيكا؟

أقف أنا حائرًا لا أعرف كيف أرد وأشعر أن اللحظة تفلت من بين يديَّ خاصة وأنا أرى يديها تغادر كتفيَّ كطائرة تقلع بلا عودة، ولكنها تبتسم باسطة راحة يدها فأرى الآيبود وسماعات الأذن الداخلية، تعبث به لثوان، تضعه بجيب سترتي، ثم تضع في أذني سماعة وفي أذنها السماعة الأخرى، ثم تعيد يديها فوق كتفيَّ من جديد قائلة:

- كدة ممكن نرقص..

في أذني تفاجئني أغنية Lost Stars التي أحبها منذ التقيت بهايا لأول مرة، ولكن هذه المرة تلعب الأغنية بصوت Keira Knightley.

والآن أشعر أن الأمطار لا تسقط من السماء فقط، ولكن تسقط داخل قلبي، على أرضه القاحلة لسنين عجاف كُثُر، الآن أشعر أن أرضه استحالت خضراء، آلاف الزهور نبتت وأينعت به. أميال من الحدائق الغناء ملأته في لحظة..

أشعر أن.. .الجنة الآن في قلبي..

●●●

obeikandi.com

الفصل العشرون – إشارة مرور

Chapter Twenty – Traffic Light

لنصف ساعة نقف على قارعة الطريق محاولين استيقاف أية سيارة لاصطحابنا إلى الأسكندرية ولكن بلا جدوى.

- بقول لك إيه.. استخبى..

- نعم؟

أقولها لهايا غير متفهم..

- اتدارى بس في أي حتة وهاتفهم بعدين..

أختبئ خلف إحدى الشجيرات مشاهدًا هايا تحاول من جديد استيقاف أية سيارة، بعد قليل تقترب شاحنة نصف نقل صفراء عتيقة تتخطى هايا، تبطىء سرعتها تدريجيًا ثم تعود إلى الخلف بمحاذاة هايا مطلقة صفارة مزعجة.

- إسكندرية؟

تقولها هايا دون أن أسمع رد سائق الشاحنة من ثم ترد هي مجددًا:

- هاركب على ضهر العربية مش مشكلة.

obeikandi.com

تشـير لـي بالظهـور فأقفـز مـن مخبـأي مقتربًـا منهـا ومـن الشـاحنة التـي أرى سـائقها النحيـل الأسـمر، يرتـدي معطفًـا جلديًـا، قبعـة شـتوية سـوداء ووشـاحًا قماشـيًا أبيـض يلفـه حـول رقبتـه وفمـه، وبجانبـه يجلس مسـاعده على الأرجـح، يرتـدي نفس الملابس تقريبًا، هـل هـم في فريق كرة واحـد؟ ينظـران لنـا باشـمئزاز لخداعنـا لهمـا.

- مش هاتعرفي تطلعي بالفستان ده.

أقولها واقفًا خلف الشاحنة واضعًا يديَّ على خاصرتي.

- طب هانعمل إيه؟

مـن دون تفكيـر أحملهـا فجـأة وكأننـا في ليلـة الزفـاف، تضحـك دهشـةً فأهمـس فيهـا:

- كان نفسـي أشـيلك في ظـروف أحسـن مـن كـدة ومـكان رومانسـي أكتـر مـن كـدة.

- اخلص هايسيبونا ويمشوا.

أضعهـا برفـق علـى ظهـر الشـاحنة ثـم أقفـز بجانبهـا، يزحـف كلانـا حتـى نسـتند إلـى نوافـذ الشـاحنة الخلفيـة، ثـم أضـرب بيـدي علـى النافـذة صائحًـا:

- يلا يا اسطى!

أقولها فينطلق السائق بالشاحنة مزمجرًا.

بعد قليل يختبيء القمر خلف سحابات إبريل التي تتكدس مانعة إياه من الوصول إلينا، وتصل بنا الشاحنة إلى مفترق طرق تحدوه من اليمين إشارة مرور تنتصب في وهن، بومضات صفراء متقطعة تسألنا الإشارة أن نتمهل وننتظر قليلاً.

- بيتريكور (Petrichor)

- اتلبستِ تاني يا هايا؟

- بتريكور يعني ريحة الأرض بعد المطر.

تغمض عينيها وهي تتشرب الرائحة حولنا بأنفها قبل أن تبدأ الأمطار في التساقط مجددًا ويرتفع نسقها تدريجيًا، تتكور هايا محتضنة كتفيها العاريتين.

أخلع سترتي ثم ألبسها لها، يسقط الآيبود بجانبنا فتلتقطه، تشغل إحدى الأغاني، ترتدي سماعة وتلبسني الأخرى، ثم تلاصقني مختبئة في صدري، يزدحم قلبي بدقاته المتسارعة.

في السماعات.. تلعب أغنية Promise ل Ben Howard.. بالتزامن مع اخضرار الإشارة وانطلاق السيارة من جديد..

●●●

obeikandl.com

الفصل الحادي والعشرون – تسعون يومًا

Chapter Twenty One – Ninety Days

في الليالي التسعين التي تلت تلك الليلة حظيت مع هايا بحياة أقرب إلى الجنة، قضينا أغلب أوقاتنا سويًا، اختبرت معها أشياءً جنونية كثيرة، ورطتني في متاعب جمة كعادتها، كان آخرها محاولتها تحرير زرافة من حديقة الحيوانات.. هل تتخيلون؟ زرافة!

اختبرت معها أيضًا أشياءً حياتية عادية، كمشاهدة فيلم سينمائي بالكامل، قراءة رواية طويلة، حضور مسرحية كوميدية، يعتبرها الجميع أشياءً مفروغ منها، ولكنها بالنسبة لي مستحيلة.

سافرنا هنا وهناك، داخل مصر وخارجها، إلى أشد المناطق حرارة، وأقساها برودة، افترشنا الرمال والأسفلت والقرميد.. عانقنا الليل ودثرتنا النجوم، أحرقتنا الشمس، أغرقتنا السحابات، ودللنا القمر، عقدنا صداقات مع شحاذين ومجاذيب، وتسكعنا في الأزقة بصحبة مشردين وغرباء، حلقنا بصحبة الصقور، غُصنا مع الدلافين وركضنا خلف الغزلان..

oboeikandi.com

اكتسبنا عادات جديدة وهجرنا أخرى، ولكن هايا ظلت هايا.. قنبلة موقوتة.. آه نسيت، أقلعت أنا عن السجائر تمامًا بفضل هايا..

تعرفت أكثر عليها وعلى عائلتها، والدتها المقعدة، وأخيها الأصغر، كلبها الجولدن ريتريفر «بابلو» ومنزلهم الحميم.. تعرفت أيضًا على صديقتيها، جومانا ومُلك.

لم أستطع إخبارها بعد بمرضي، لا أريد اجترار المشاكل وهز القارب الصغير الهادىء، ليس الآن على الأقل.

أتذكر كل تلك الأحداث جالسًا الآن في قارب يتجه إلى جزيرة نيلسون، بقعتي المفضلة، قاطعًا نصف المسافة إلى هناك، ولحسن حظي لم يعد هناك ما يسمى الريس حجازي، لا أعلم ما الذي حدث له منذ آخر مطاردة تمت بيننا.

يرن هاتفي كاتمًا صوت JP Cooper وهو يغني Color Me in Gold، رقم غريب، أجيب:

- ألو؟

- ألو.. عايش؟

صوت فتاة يرتعش.

obeikandi.com

- أيوة.. مين معايا؟

- أنا جومانا صاحبة هايا، هايا عملت مشكلة كبيرة واتاخدت عالقسم يا عايش.

أطفىء محرك القارب لأستمع بإنصات.

- مشكلة إيه؟ وقسم إيه؟

- مفيش وقت يا عايش، هي في قسم المنتزه، وممعهاش بطاقة، لازم تروح لها حالاً قبل ما تتحول عالنيابة.

- طب هي ما اتصلتش بيا ليه؟

- موبايلها مش معاها، لحسن حظها إنها حافظة رقمي اتصلت بيا من شوية قالت لي اللي حصل لها، أنا مش عارفة أروح عشان أنا ومُلك في الأقصر من امبارح وأخوها بيمتحن ثانوية عامة دلوقتي، والحمد لله إن معايا نمرتك، إنت قريب منها؟

- أيوة أيوة، أنا عند جزيرة نيلسون، ساعة بالكتير وأكون عندها إن شاء الله.

- بسرعة يا عايش وابقي كلمني لما توصل لها، سلام.

- سلام.

obeikandi.com

أقولها وأنهي المكالمة وبيدي التي تمسك المحمول أحاول إعادة تشغيل محرك القارب من جديد، يرفض فأديره مرة أخرى، يدور ثم يخمد مرة أخرى، أديره بقوة مضاعفة فيدور مزمجرًا ولكن.. يفلت الهاتف من يدي ساقطًا في الماء.

لا! لا.. .أحاول مد يدي لالتقاطه في هلع، أفتش هنا وهناك، أمد يدي أكثر.. لا شيء.

أحتاج إلى الهاتف كي أدون ما تم إخباري به للتو وإلا سيتبخر كل شيء بغضون سبع دقائق!

أقفز في الماء دون أي تردد، أستل نفسًا عميقًا ثم أحبسه وأغوص تحت الماء..

في البداية لا أرى شيئًا، ولكن بعد عدة ثوان تبدأ عيناى في التأقلم على الماء والرؤية الجديدة، أفتش بعينيَّ باحثًا عن الهاتف حتى ألمحه يغوص بالأسفل مبتعدًا عني شيئًا فشيئًا..

أغوص محاولاً اللحاق به، أدفع جسدي أكثر مقاومًا ثقل الماء تجاهي، أجاهد كي أحتفظ بأنفاسي لأكبر وقت ممكن، أشعر برئتيَّ تتمزقان، اقتربت كثيرًا من الهاتف، لا أستطيع الاستسلام الآن. أخيرًا أمسك به ثم أدفع جسدي بسرعة عائدًا إلى السطح، كم يا تري مرت من الدقائق السبع، وكم تبقى؟

أصل أخيرًا إلى السطح مستلاً أنفاسًا عدة، أصعد مجددًا على سطح القارب، أحاول تشغيل الهاتف الغارق، أحاول تجفيفه بقميصي، وأعيد تشغيله من جديد.. لا شيء..

أضربه عدة مرات بيدي، وأحاول تشغيله.. لا شيء. أنفخ في فتحاته ربما يجف ما به من ماء، ياليت التنفس الصناعي يجدي معه.. لا شيء.. لا شيء.. لا شيء.. .يجب ألا أنسى، تحتاجني هايا الآن أكثر من أي وقت مضى..

أحاول كتابة ما قالته لي جومانا على الماء بإصبعي، ربما ينجح الأمر.. أكتب بالعامية:

«هايا في قسم المنتزة الحقها»

لا أعرف إن كان الأمر سيجدي، يجب أن أتحرك الآن، أن أصل إلى الشاطئ وأكتب على الرمال.. أقوم بإدارة دفة القارب إلى الناحية العكسية وأنطلق به..

●●●

obeikandl.com

أصل الآن إلى شاطئ أبي قير، لا أعرف ما الذي جاء بي إلى هنا، أتذكر أنني كنت أود الذهاب إلى جزيرة نيلسون، دونت ذلك في هاتفي صباحًا، ولا أتذكر أنني ذهبت إلى هناك، لم أدون شيئًا في هاتفي يدل على ذلك.. مهلاً.. أين هو؟

أتفحص جيوب بنطالي وقميصي.. مهلاً.. لماذا أنا عاري الصدر؟ ولماذا بنطالي مبلل؟

و أين هاتفي؟ أسقط على الرمال جاثيًا على ركبتيَّ، يا ليت هايا تنقذني.. أحتاجها الآن أكثر من أي وقت مضى.. ما الذي يحدث؟ وما الذي أتى بي إلى هنا؟ أنا لا أتذكر أي شيء..

لقد نسيت.. نسيت تمامًا.. .و كأن كل ما حدث في الساعة الماضية كان نقش على الماء..

●●●

obeikandl.com

الفصل الثاني و العشرون- إعدام

Chapter Twenty Two - Execution

يمر يومان وأنا أحاول الاتصال بهايا من هاتفي الجديد الذي ابتعته. يومان مرا من دون أن ترد أو تتصل، يومان مرا دون أن أعرف عنها شيئًا، يستبد بي القلق، هل ضايقتها؟ هل فعلت شيئًا يغضبها؟ أم هي تتجاهلني؟ تقطع ما بيننا من خيوط! أحدث نفسي..

أتصل بأخيها، لا يرد، صديقاتها.. لا ردود أيضًا.. هل غضب الجميع مني فجأة؟ هل صرت منبوذًا؟ أم هل أصبحت كائنًا غير مرئي؟ لن أنتظر أكثر من ذلك، لابد أن أفعل شيئًا حيال ذلك الأمر. أستحم، وأرتدي ملابسي، وبالطبع قبل كل ذلك أدون في دفتري ما أنا على وشك فعله..

بائس أنا وفقيرة حياتي من دونها، الألوان تُنفذ فرارًا جماعيًا من لوحة أيامي.

أنتهي مما أفعله وأغادر منزلي، أستقل سيارة أجرة، وأتجه إلى أحد متاجر الهدايا، أشتري لها دبًا قطنيًا، وبضعة بالونات هيليوم، ثم أتجه إلى منزلها. أترجل من السيارة واقفًا تحت

بيتها، أتصل بها.. لا رد.. أبعث لها برسالة نصية فحواها: أنا تحت البيت..

ارفع رأسي ناظرًا إلى نافذتها، ألمح طيفها يتحرك خلف الستائر، ثم يختفي..

تمر الدقائق من دون أن يحدث شيء، أتصل بها من جديد فتلغي المكالمة، أتصل مرة أخرى فأجد هاتفها مغلقًا، الجحيم تستعر داخلي، أعصابي تحترق، قلبي يُشوى على نار تتعدى حرارتها ألفيَّ فهرنهايت. أقرر أن أصعد إلى بيتها في الدقيقة التي أراها تخرج هي من باب المصعد قادمة نحوي بخطوات سريعة تحمل غضب الدنيا.

أقترب من مدخل البناية فتطردني خارجًا بإشارة من يدها تشي بالاشمئزاز، أتراجع خطوتين واقفًا على الرصيف وتخرج هي، تستند إلى حائط المدخل في ملل، مرتدية منامة سوداء ذات قلنسوة تغطي رأسها، ونعل منزلي بسيط.

أنا وهي والليل الذي حل فجأة وكأنه يكسب المشهد مزيدًا من الدراما، وعمود الإنارة الذي ينتصب بجانبي بوجه منكفىء وكأنه يشاهد ما يحدث في انكسار.

تعقد ساعديها قائلة:

- نعم؟

لم أتعود أبدًا على تلك اللهجة منها، منذ ذلك اليوم في الاستاد، غرباء كنا يومها، واليوم نعود غرباء، والكارثة الأكبر أنني لا أعلم لمَ!

محتضنًا الدب في خشية، متشبثًا بالبالونات التي ترغب في الإفلات من بين أصابعي في هلع، أرد مُتهتهًا:

- ما بترديش.. على.. .موبايلك ليه.. .بقالك يومين؟

ترفع عينيها ناظرة إلى وجه عامود الإنارة وكأنها أيضًا تعرف أنه يراقبنا، تبتسم في سخرية قائلة:

- تصدق أنا عمري ما شفت بجاحة كدة يا أخي!

- هايا أنا مش فاهم حاجة، فهميني أنا غلطت في إيه؟!

أدنو منها فتوقفني براحة يدها المبسوطة في وجهي.

- أنت بتستعبط يا عايش؟

للمرة الأولى يخرج اسمي من بين شفتيها جافًا، قاحلاً، عديم اللون.. خشنًا.. صدئًا.. مدببًا في وجهي، ثقيلاً على مسامعي.

- هايا، أرجوكِ خديني على قد عقلي وفهميني أنا عملت إيه، اعتبريني كنت ميت وصحيت تاني.

- ياريتك كنت ميت، أصل اللي أنت عملته ده ملوش عذر تاني غير كدة.

ترتعش إضاءة العامود، يتوتر الجو، يهوي قلبي من حالق، ويهوي الدب من يدي متدحرجًا على الأرض خلفي.

- عملت إيه بس فهميني.. .

وكأن أمطار يناير قررت أن تهطل فجأة الآن من عينيها، أمطار سوداء، يخرج صوتها مشروخا:

- أبقى في القسم متبهدلة، وأخلي صاحبتي تتصل تستنجد بيك عشان تلحقني م البهدلة اللي أنا فيها، محجوزة مع بنات الليل والحرامية، أنا كان فاضل شوية ويــ.. .

تمسك بياقة منامتها تغلق طرفيها مخفية صدرها، تكتم بيدها شهقة فتخرج شهقة أخرى مكلومة من بين جنبات صدرها، الأمطار في عينيها صارت فيضانات تغرق وجهها، أحاول الاقتراب فتسدد لي نظرة تقتلني عتابًا وهى تكمل:

- أستنجد بيك وحضرتك مريَّح في الجزيرة ولا كأن حصل حاجة؟!

obeikandl.com

سيارة مسرعة تغتال الدب الملقى على الأرض دهسًا، تنفجر أحشاءه القطنية أرضًا، هل أغتيل أم هل تراه انتحر إثر سماعه بفعلتي المشينة تخرج من بين شفتيها. أود أن أتلاشى الآن، أتبخر في الهواء. أطرق برأسي محاولاً تحاشي عينيها المصوبة إليَّ كالخناجر، هذا ما كنت أخشاه، أن يتسبب مرضي في كارثة لهايا، وأية كارثة!

- لما يأست كلمت جومانا تاني عشان تديني نمرتك، كلمتك لقيتك قفلت موبايلك..

أفتح فمي محاولاً الرد فتخرسني:

- وعشان فقدت الأمل فيك، خليتها تكلم أخويا، ساب امتحانه وجه لحقني في آخر لحظة وطلعني من القسم، تقدر تفهمني إيه عذرك بقي؟

يفلت بالونان من يدي صاعدين إلى السماء ثم يلحق بهما الثالث، كم الأشياء التي تنتحر هربًا من عاري أصبحت كثيرة، أقرر أن أخبرها بكل شيء، مهما كلفني الأمر.

- هايا، أنا هافهمك.

- تفهمني؟ تفهمني إيه؟ بعد كل اللي عشناه سوا تعمل فيا كدة؟ وده ليه؟ زهقت؟ تعبت؟ لعبة اتسليت بيها وعايز تريح

دماغك منها؟ طب وجاي دلوقتي ليه؟ اللعبة وحشتك؟ وجايب لي دبدوب وبلالين؟ أنت فاكرني عيلة عندها ١٤ سنة متخانق معاها عشان شالتك من عالفيسبوك.. .

تتوقف دموعها لجفاف منابعها وتصرخ هي:

- أنت متخلف يابني آدم أنت!

ترتعش إضاءة العامود مجددًا، ويرتجف جسدي، أتخيل نفسي جاثيًا على الأرض ألملم شظايا كبريائي التي تناثرت أرضًا، تستدير هي مولية لي ظهرها وتبدأ في المغادرة فأصرخ:

- هايا.. أنا بافقد الذاكرة كل سبع دقايق.

تتوقف عن السير، تدير وجهها ناحيتي في اشمئزاز، وبعينين دامعتين أكمل:

- دي الحقيقة، أنا حصلت لي حادثة عربية وأنا صغير ومن ساعتها وأنا عندي حاجة اسمها فقدان الذاكرة قصيرة المدى، بانسى كل سبع دقايق اللي بيحصل لي أو اللي عايز أعمله، إلا لو كتبته في ورقة، أكيد لما جومانا كلمتني حصل حاجة ومعرفتش أكتب كل ده، عشان كدة مش فاكر أي حاجة، أنا حتى لقيت موبايلي غرقان مية ومش فاكر غرق إزاي.

تستدير متجهة نحوي مضيقة عينيها في حنق:

- أنت هاتمثل!؟ مانت تلات شهور معايا عمري ما شفتك بتعمل كدة!

أمسك بكتفيها في تضرع قائلاً:

- معاكِ كان الموضوع مختلف يا هايا، من ساعة ما شفتك أول مرة وفيه حاجة غريبة بتحصل لي وأنا معاكِ، مابنساش حاجة، ومابحتاجش أكتب أى حاجة، بالعكس، أنا بافتكر كل حاجة عشتها أو شفتها بوجودك، كل تفصيلة صغيرة بتتحفر جوايا..

- واشمعنى أنا!

تسألني والاستنكار يحتل عينيها فأجيب وأنا أحاصرهما بعينيّ:

- سألت نفسي كتير السؤال ده ما لقيتلوش غير إجابة واحدة.. إني بحبك..

تنفضني عنها متراجعة إلى الوراء.

- كفاية كدب بقى، اتخليت عني وقت ما كنت محتاجاك، وجاي تألف تمثيلية سخيفة فاكر إنك هاتضحك عليا بيها!

obeikandl.com

- أتضاءل أنا أمام اتهاماتها، أنكمش، أتحول إلى عقلة إصبع. أنظر لها مطولاً ثم أخرج دفتر أوراقي من جيب قميصي مناولها إياه.

- افتحي واقري.

تتناول الدفتر مني في حذر، تفتحه وتبدأ في تقليب الصفحات التي أعرف ما بها:

«غير ملاية السرير، ريحتها مش تمام»

«فيه نمل في البلكونة ابقى هات رش»

«الأكل اللي في التلاجة قرب يحمض، ماتاكلش منه»

«الموبايل بتاعك باظ، هات موبايل غيره»

حتى تصل إلى آخر ملاحظة كتبتها اليوم منذ ساعات:

«استحمى والبس وانزل هات هدايا من محل الهدايا اللي في سان ستيفانو وروح شوف هايا وصالحها وما ترجعش غير لما تعرف هي مالها»

تسقط جالسة على الرصيف خلفها تتساقط الدموع من عينيها مجددًا.

- وإنت ما قلتليش ليه؟

obeikandl.com

- خُفت.

- خُفت؟

- خفت من حاجات كتير، خفت تسيبيني أما تعرفي، أو الأسوأ.. تفضلي معايا عشان صعبان عليكِ، فا سكِت..

تنهض هي بنوبة جديدة من الغضب.

- سِكِت؟ ودي حاجة يتسكت عليها!

- ماهو معاكِ المشكلة كانت بتختفي يا هايا.. كنت بعيش حياة طبيعية..

تبتسم في شر لم أعهده منها قائلة:

- آه! قول كدة بقى! يعني إنت كنت محتاجني أبقى معاك لمجرد إن سيادتك تعيش حياة طبيعية!

- يا هايا أنا محتاجك معايا علشان بحبك، مش علشان حاجة تانية!

محتاجك تبقي معايا لما أتجنن م الفرحة، وأما الحزن يموتني، لما الدنيا تيجي عليا، وأما تصالحني.. لما أنجح وأبقي فوق العالم، وأما أفشل ويدوسني تحت رجليه..

obeikandl.com

لما أبقى ضعيف، وأما أبقى هرقل.. محتاجك لما أكون مهزوم، وأما أكسب كل الدنيا، عايزك تبقي في كل لحظة من حياتي الجاية، الحلوة قبل المُرة.. وعايز أبقى في كل لحظة من حياتك الجاية، المُرة قبل الحلوة.. محتاجك تبقي معايا وأنا بعيش، وتبقي جنبي لما أموت..

أمسح دموعي التي تنهال في تلك اللحظة ثم أدنو منها مكملاً:

- هايا، أنا كنت ناسي الدنيا قبلك وبقيت أفتكرها بيكِ..

تصمت هي محاولة منع ذلك البحر من الإفلات من عينيها، تغمضهما فيفلت حارقًا خديها بمياهه المالحة، تفتح عينيها مجددًا، تزم شفتيها ثم تفتحهما قائلة:

- أنا آسفة.. بس أنا مش نوتة يا عايش..

تلقي بالجملة في وجهي وتستدير متجهة إلى الداخل، لا تنتظر المصعد بل تنهب بقدميها السلالم نهبًا، تتركني بصحبة عامود الإنارة الذي انطفأ ليهجرني وحيدًا هو الآخر..

قلبي معصوب العينين، مكتوف الأيدي، يقف مواجهًا كتيبة إعدام صغيرة، قائدها يرفع يده إلى الأعلى، تتسارع دقات الطبول في الخلفية، ثم يدني القائد يده بحركة سريعة، الرصاصات تنطلق بلا رحمة من فوهات البنادق المصوبة إليه وتتوقف دقات الطبول. يسقط قلبي صريعًا، تم تنفيذ حكم الإعدام به، الخميس في الثامنة مساءً بتوقيت الإسكندرية.

obeikandl.com

حتى في أخبث نسخك

تظلين صالحة في نظري

obeikandl.com

الفصل الثالث والعشرون – عودة إلى الوراء
Chapter Twenty Three - Rewind

هناك قانون متعارف عليه في الرياضيات:

.If it seems easy, you're doing it wrong

بمعنى إذا بدا كل شيء سهلاً فأنت تحل المسألة بشكل خاطيء، إذن كان عليَّ أن أعرف أن الأمور لا تجري بمثل تلك السهولة. كل شيء كان يسير معها بشكل ممتاز، كان عليَّ أن آخذ حذري من مكر الدنيا، أن أشك أن القادم أسوأ.

ببساطة لدى السعادة حساسية مني، أو على الأصح أنا لست على رادارها من الأساس.

السعادة عدوى لن أصاب بها لأنني تناولت اللقاح ضدها حينما كنت صغيرًا.

أنا مغناطيس قوي لكل تعاسة العالم، تزورني الأخبار السيئة يوميًا وكأنني متحف للعذاب.

طعام أنا عديم النكهة، عديم الرائحة، عديم الحياة، انسكبت هي فجأة فوق تلك الوصفة الفاشلة لتعطي لها نكهة بمذاق الفانيليا.

obeikandl.com

عندما كانت تنتهي لقاءاتنا أنا وهايا كنت أعمد إلى عدم تدوين شئ بين اللقاء والآخر، حرصًا على عدم تلويث عالمي بأشياء غيرها، والآن أنا منقوع في ذلك العالم الملوث من دونها. مقلب قمامة كبير ذلك العالم من دون جنونها، ضحكاتها، صوتها، رائحتها، قبلاتها، تفاصيلها كافة. والآن تمر الأيام بلا أي مذاق، بلا لون أو رائحة، عدت إلى عالمي الرديء مجددًا، تشوش إرسالي وضاعت خارطتي، سفينة أنا أضاعت منارتها فضاعت في عرض البحر.

منبوذ أنا خارج حدود الجنة.. مطرود أنا من أرض الفانيليا.

أعتقد أن حياتي كفيلم سيء طويل، مهما حاولت أن أعيد مشاهدته مئات المرات، سيظل هو ذلك الفيلم السيء، بنفس أحداثة البشعة، لا يحقق البطل أبدًا ما يريده، ولا يحظى بمن يتمناها..

وجاءت هي كفاصل إعلاني مبهج في منتصف الفيلم ثم انتهى الوقت المحدد له، لأعود أنا إلى فيلمي الكئيب الممل.

أنا وهايا كوكبان يسيران في مدارات مختلفة، أحدهما كبير جدًا والآخر بالغ الصغر، وفجأة يقرر القدر أن تتلاقى مداراتهما معًا، وحدث الاصطدام، ولسوء حظي كنت أنا الكوكب الأصغر،

أزاحني الكوكب الكبير من طريقه مكملاً مداره، أما أنا فتهت في الفضاء بلا مدار يؤويني.

و ها أنا لم أحاول فعل أي شيء لإرجاعها، أنا فقط قررت أن أستسلم، أن أظل هائمًا في فضاء التيه مهشم ومظلم.

كم حلمًا من حياتك قد شطبت؟ واحد؟ اثنان؟ عشرة؟ حسنًا فلتشطب حلمًا آخر من القائمة، أفضلهم على الإطلاق.. و هل كنت تظن أن الحياة ستدعك تهنأ به؟ كم أنت سخيف..

أملاً آخر أدفنه تحت تراب الواقع، وأكتب على شاهد قبره مات مقهورًا.

نحن لا نفقد إلا الأشياء التي تجعلنا نرغب بالاستمرار أحياءً، وكأن الحياة تجبرنا طوعًا على الانتحار.

تخرج من سماعات الحاسوب أغنية ما.. Hunger يغنيها Ross Copperman.

وبملابس رثة اتسعت على جسدي النحيل، لحية عمرها شهران، وأعقاب السجائر التي تجاورني أرضًا، أجلس مستندًا إلى الحائط حاملاً الكاميرا بين يديَّ، أشاهد فيديوهاتنا سويًا، كلما مرت لقطة أقوم بإعادتها إلى الوراء من جديد وأفكر.. كم أتمنى لو أن هناك زر في الحياة مثل ذلك الزر، زر العودة إلى

الـوراء أو Rewind، كـي أقـوم بإعـادة كل اللحظـات السـعيدة معهـا وأعيشـها مـن جديـد، مـرة تلـو المـرة تلـو المـرة.

و مـاذا عـن زر Pause، كـم أتمنـى لـو أن هنـاك زر مماثـل، لـو قمـت بالبحـث عـن معنـى ذلـك في القامـوس سـتجد الآتـي:

Pause: *a temporary stop in action or speech*

توقـف مؤقـت عـن العمـل أو الـكلام.. توقـف مؤقـت؟ ولمـاذا أرغـب في التوقـف المؤقـت لتلـك اللحظـات؟ لمـا لا أرغـب في التوقـف الدائـم لهـا، أن أعـود للـوراء، أن أذهـب إلـى لحظـة معينـة مـن الزمـن، أيـة لحظـة معهـا سـتفي بالغـرض، وأضغـط علـى زر Pause، وأظـل كمـا أنـا للأبـد، حبيسًـا لتلـك اللحظـة.

يسـألني عقلي عن زر الإلغاء Delete، أمسـحها؟ أنسـاها؟ وحتى إذا نسـيتها، سـيرفض قلبـي أن يخضـع لغيـر حكمهـا، فجدارياتهـا محفـورة بـين ثنايـاه، منتشـرة معابدهـا في كل أنحـاء جسـدي، الكهنـة مازالـوا يقيمـون الشـعائر مـن أجلهـا، عهـد الملكـة هايـا الأولـى والأخيـرة لـم ينتـه ولـن ينتهـي أبـدًا.. يقولـون..

الشـعوب في خلايـاي تنـدد، أشـعلوا الثـورات مطالبـين بعودتهـا، ولا أعـرف كيفيـة إخمادهـا..

وكيف أخمدها وأنا القائد الحقيقي لكل تلك الثورات؟ مستحيل..

أسمع Ross يؤكد على كلامي مغنيًا:

..Cause I'm on fire like a thousand suns

بالضبط، لأنني أحترق كألف شمس..

●●●

اليوم التاسع والستين منذ أن أقلعت عن هايا، وقررت الدنيا أن تمنحني جرعة صغيرة منها، يرن هاتفي فأهرع إليه، رقم غريب يتصل.. أرد:

- ألو

- أستاذ عايش؟

- أيوة.

- احنا شركة ترامكو، احنا رجعنا العربية المسروقة الحمد لله.

- فعلاً؟ طيب كويس.. مبروك.

- حاجتك اللي كانت في العربية موجودة عندنا، تعالى خدها في أى وقت.

●●●

obeikandi.com

حمـدًا للّه أن السـارقين لـم يلمسـوا الحقيبـة، ولـم يعبـث أحـد منهـم بمحتوياتهـا، كانـت كمـا تركناهـا بالسـيارة.

جاثيًـا علـى سـجادة الغرفـة، أفتـح الحقيبـة وأفـرغ محتوياتهـا أرضًـا بعشـوائية، ملابسـي وحاجياتـي.. لا أهتـم.. ثـم أرى حاجياتهـا، مصاصـات، ملـون شـفاه، مجفـف شـعر، ملابسـها؛ سـروالها القصيـر، البلـوزة البيضـاء عديمـة الأكمـام، والصديـري الكحلـي. الكاميـرا البولارويـد، وعشـرات الصـور.

ينبعث في أنحاء الغرفة صوت أغنية

Creep - Scala & Kolacny Brothers

بينمـا أشـتَم بلوزتهـا مغمضًـا عينـيَّ، أسـتنشـق عبيرهـا الـذي مـازال عالقـاً بهـا، تتضـوع رائحتهـا في الغرفـة، تنفـذ إلـى مسـامي متسـللةً إلـى كل خليـة مـن جسـدي، أتعاطـى هايـا تخيـلاً، نـوع مـن أنـواع الإدمـان الجديـدة التـي تعلمتـه علـى يديهـا، هيرويـن شـرعي هـي، تتـم صناعتـه في الجنـة خصيصًـا مـن أجلـي. أحتضـن البلـوزة في قـوة معتصـرًا إياهـا، كذبـة صغيـرة أكذبهـا علـى نفسـي، محـاولاً إقناعهـا أن هايـا داخـل تلـك البلـوزة بـين يـديَّ. أضعهـا جانبًـا ثـم أمـد يديَّ إلـى الصـور المطروحـة أرضًـا، أفردهـا وأمسـك بهـا الواحـدة تلـو الأخـرى، أشـعر بهـا تتحـول مـن لحظـات ثابتـة إلـى مشـاهـد مفعمـة بالحيـاة، وكأنهـا فيديوهـات تذكرنـي بوقـت التقـاط تلـك الصـور.

تجذب انتباهي إحدى الصور فأمسك بها، كانت الصورة لها في مدينة الملاهي، تقف هي على الحصان ممسكة بذلك العمود الحديدي مغمضة عينيها ورأسها إلى الخلف، يتطاير شعرها الفضي خلفها في جنون، تبتسم هي وكأنها في جنات عدن.

صورة أخرى ألتقطها من فوق السجادة، كانت لها أيضًا، تبتسم لي بعينين مغمضتين نصف إغماضة بسبب الشمس وهى تمسك مقود السيارة بيد واحدة، تسند رأسها إلى اليد الأخرى واضعة مرفقها على حافة النافذة بجانبها، تقود السيارة في غير اكتراث، تمامًا كما تقود حياتها.

صورة أخرى لي وأنا نائم بالسيارة فاتحًا فمي كالأبله، تظهر هي في ركن الصورة مخرجة لسانها وهى ترفع علامة النصر وكأنها تقول «نلت منه، تمت المهمة بنجاح»

أقلب الصورة لتظهر خلفها بعض الكلمات المكتوبة بخطها:

Ha Ha Ha! Got You!

أضع الصورة جانبًا وأمسك بأخرى التقطناها حينما كنا في واحة عمر، نظهر فيها متلاصقين جنبًا إلى جنب، ترتدي هي قبعة رجالي سوداء، عوينات طبية ذات إطار أحمر، واضعة شاربًا بلاستيكيا، بعينين متسعتين تضع يديها على خديها في دهشة مصطنعة مخلوطة بخزي غير حقيقي وأرتدي أنا شعرًا

نسائيًا مستعارا ذا لون وردي فاقع، مكورًا شفتيَّ كفتاة مراهقة في السادسة عشر. أمسك الصورة بكلتا يديَّ وأضحك باكيًا، الدموع ماتزال تتساقط من عينيَّ بحرًا، والضحكات تخرج من صدري، ذلك الخليط مؤلم، مؤلم جدًا.

أعيد الصورة على الأرض، واضعًا إياها بجانب مثيلاتها، أفردهم جميعًا جنبًا إلى جنب، لتصير السجادة صفحة ألبوم كبيرة تضمهم، أمسح بيديَّ عليهم جميعًا وكأنهم أطفال صغار، وتختلط دموعي بضحكاتي من جديد. تلك الصور عذابات صغيرة أرسلها القدر من أجل تذكيري بخسارة هايا.

مكوم أنا على رف منسي مظلم، محاط بجبال من الغبار.. داخل قلبها، هكذا أشعر الآن. عليل أنا بها، وكيف أُشفى وهى المسكن والوجع؟ هي السم والترياق.

المشاهد تزدحم في رأسي.. أشعر أنني أرى الصور تتحول أمامي إلى فيديوهات، أتذكر وقت كل صورة واللحظات التي سبقت تصويرها، وبرغم رداءة جودة بعض الصور إلا أنها تضج بالروعة الخالصة. أتذكر كلماتها الآن ترن داخل مسامعي:

«تؤ تؤ تؤ، أحلى حاجة إنك تصور اللحظة وتسيبها زي ما هي من غير تعديل، من غير كدب وتزوير، إنك تصور اللحظة من غير ما تعمل لها ميك أب ولا فوتوشوب.»

اذا كان باستطاعة رجل واحد أن يغير العالم

فامرأة واحدة يمكنها أن تقلبه رأساً على عقب

obeikandl.com

الفصل الرابع والعشرون – عم باسليوس

Chapter Twenty Four – Uncle Pasillios

صدق من قال أن المصائب لا تأتي فرادى..

مجددًا يعود هاتفي إلى الحياة بعد موتٍ دام عشرين يومًا، أستيقظ على صوت بكاءه الحزين، هل قلت بكاء؟ حسنًا، اتصال من شخص غريب.. لا.. لسوء الحظ ليست هي من تتصل، صوت لشخص آخر، الكلمات مقتضبة.. قصيرة.. و لكنها قاتلة.. عم باسليوس تعيش إنت.. الجنازة النهاردة.. الساعة ٦.. كنيسة (.. .. .. ..).

جالسًا على السرير أتلقى الخبر، أظل جالسًا وكأن الصدمة شلت أطرافي، وفي صمت أبكي لأشياء كثيرات. لو جاءني ذاك الاتصال منذ شهرين فقط لما كنت سأحزن بتلك الضراوة، ولكن بسبب هايا فأنا أتذكره بذلك الشكل الحي، بكل تفاصيله، أتذكر مشاعره، صوته المتجعد، عيناه التي كانت تلمع حينما يقفز اسم حبيبته بين كلماته ناظرًا إلى السماء مشتاقًا لرؤيتها، لم أكن لأحتفظ بكل تلك التفاصيل لو لم تكن هي معي يومها.. تبًا لها..

أنظر في الساعة، لم يتبق الكثير حتى وقت الجنازة.. و قبل أن أنسى أتناول ورقة جديدة، وأكتب عليها.. عم باسليوس مات.. الجنازة الساعة ٦ في كنيسة (.. .. .). أكتبها وأنظر إلى فجاعة ما كتبت، وأبكي..

كان يمكنني ألا أكتب شيئًا وسأنسى ذلك الخبر في ثوانٍ معدودات، ولكنني كل ما يملك الرجل في ذلك العالم، أعرف أنه ينتظرني..

و بعد أن يلتهم الحزن وجبتة المؤقتة من أحشائي.. أرتدي شيئًا من الأسود وأذهب إلى هناك..

المكان قديم، مظلم وكئيب، أصوب سؤالاً إلى صدغي لا أجد إجابة له؛ هل يرتدي المكان عباءة الكآبة تلك في مراسم الأفراح أيضًا؟ إذا كان الأمر كذلك إذن فقلبي مع أولئك الذين يتزوجون هنا.

من الواضح أنني أتيت باكرًا، لأنني لا أرى أحدًا هنا سواي.. ربما لن يأتي أحد على الإطلاق..

أجلس إلى أحد المقاعد المتهالكة، يصدر صريرًا كالبكاء.. أعتذر ممررًا يديَّ عليه برقة..

هل تبكي رثاءً لعم باسليوس أنت أيضًا؟ هل كنت تعرفه؟ أم أنك تبكي لأن وزني ثقيلٌ عليك؟

ليس هـذا وزنـي الصحيح، ولكـن الأحـزان تثقلنـا أحيانًـا فنصيـر وكأننـا نسـير حاملـين أثقـالاً إضافيـة فـوق أكتافنـا، وكأن الجاذبيـة الأرضيـة قـد صـارت أضعـاف أضعـاف المعـدل الطبيعـي.

أسـمع جلبـة، أنتبـه رافعًـا عينـيَّ إلـى مصـدر الصـوت. مـن أحـد الأركان الأماميـة يدخـل.. عـم باسـليوس.. محمـولاً داخـل سـجن خشـبي بنـي داكـن صغيـر.. ركوبتـه إلـى العالـم الآخـر، تذكرتـه إلـى هنـاك. يضعونـه أمـام المذبـح، يفتحـون غطـاء محبسـه ويغـادرون في صمـت.. أريـد أن أراه لمـرة أخيـرة..

أريـد النهـوض.. تخونانـي قدمـاي، يئـنُّ كل شـيء بداخلـي، جنـازة صغيـرة يتـم تشـييعها بداخلـي أنـا أيضًـا، يئـنُّ المقعـد هـو الآخـر ربمـا لأنـه غيـر مدعـو.. أنهـض متجهًـا إلـى المذبـح، وبخطـوات بطيئـة كسـلحفاة مريضـة أصـل..

في بدلتـه السـوداء القديمـة يغفـو مبتسـمًا كعريـس يعـرف أنـه سـوف يُـزف إلـى عروسـته بعـد قليـل..

تلقائيًـا أنظـر إلـى السـماء وكأننـي أرى الملائكـة ينتظرونـه. واضعًـا يـديَّ علـى سـور محبسـه الخشـبي.. أرفـض أن أقـول تلـك الكلمـة.. . ك.. ف.. ن..

أبكي من جديد مقدمًا وجبة جديدة للحزن بداخلي، سيزداد وزنك في الأيام القادمة يا حزن!

اللعين يسمع أفكاري ويضحك، ملتهمًا قطعة جديدة من قلبي.. أبكي أكثر..

أنظر إلى عم باسليوس متأملاً إياه.. رحل ليلقاها، بعد أن انتظرته عشرين عامًا هنا وأكثر من خمسين عامًا هناك.. و انتظرها هو سبعين عامًا هنا وأكثر.. أبكي هذه المرة فرحًا، مشيعي الجنازة الصغيرة بداخلي يصفقون تحية له. واضعًا يدي على صدره أنطق بأنفاس متقطعة:

- دي عملة تعملها فيا يا راجل يا طيب؟ ده أنا معرفش غيرك هنا.. خلاص مش قادر تستنى أكتر من كدة؟ إيه يعني خمسة وسبعين سنة؟ وحشتك هي أنا عارف.. .بس ابقى سلم لي عليها..

ما عدت أرى من الدموع، ألمس يديه قائلاً من جديد:

- طب واللي وحشاني أروح لها إزاي؟ طب ده أنا كنت بقول إنت اللي هاترجعهالي، مين هايوصيها عليا طيب؟ مين يا عم باسليوس.

obeikandl.com

أسـقط جاثيًـا علـى الأرض ويـداي مازالتـا ممسـكتان بذلـك السـور الخشـبي..

النشـيج يرتفـع، الحـزن أصابتـه تخمـة، ومـازال اللعـين يـأكل. أحدهـم يربـت على كتفـي، ينتزعنـي مـن الأرض، ومـن أنيـاب الحـزن الجائـع. ألتفـت لأجـد أحـد القساوسـة يبتسـم في ذبـول بنظـرة تشـي بجملـة: مـا تعملـش في نفسـك كـدة.

أعـود إلـى المقعـد متجاهـلاً صريـره هـذه المرة.. بعـد قليـل تبـدأ المراسـم وتنتهـي بسـرعة، فـلا يوجـد حضـور. يعـود الاثنـان مـن جديـد، يغلقـان المحبـس، يحملانـه ويغـادران.

أشـعر وكأننـي في إحـدى مسـرحيات سـامويل بيكيـت العبثيـة. أغـادر الكنيسـة، وقبـل أن أخـرج مـن البـاب تروادنـي فكـرة؛ محظـوظ هـو عـم باسـليوس سـيلقى أخيـرًا مـن أحبهـا، أمـا أنـا فـلا أسـتطيع، أملـي الوحيـد في اسـترجاعها قـد رحـل.. .

●●●

obeikandl.com

الفصل الخامس والعشرون - عيد

Chapter Twenty Five - Feast

أستيقظ بعد إغفاءة قصيرة، ويستيقظ الوجع معي، تظن أنك ستخلد إلى النوم وتهرب منه؟ كم أنت ظريف! الوجع سيشاركك الفراش، شئت أم أبيت، سيلاصقك كجاثوم وقح يتغذى على بقايا روحك حتى ينسكب الظلام منه إليك، يمتصك حتى تصبح كائنًا هشًا، خرقة بالية، ويصير هو إدمانًا لديك.

تريد أن تصرخ في وجه الدنيا، أن تخمش جدران العالم من حولك، أن تقتلع نفسك من جذورها، أن تتحرر. يخبرونك أنك حي، ولكنك تؤمن بكذبهم، أنت جنين ميت مشوه لفظه رحم ما قبل أن يكتمل.. .لا موضع لك في هذه الحياة، ولا عودة لك إلى ذلك الرحم، أنت معلق ها هنا حتى إشعار آخر..

أنا روح كهلة تتنكر في هيئة جسد شاب منذ آلاف السنين، هذه هي حقيقتي.

أنظر إلى جدران غرفتي، ألصقت عليها بالأمس صورنا أنا وهايا فصارت تعمل كورق حائط يحجب كل إنشٍ منها ويجعل الغرفة كمعزل مؤقت للسعادة أو كنصب تذكاري لحكايتنا التي تم قتلها عمدًا وهي مازالت طفلة.

أخاطب هايا في عقلي قائلاً : أتمنى أن أخرجكِ من بين أوراقي و جدراني، أتلمس وجنتيكِ، أمرر أصابعي بين خصلات شعرك الفضي، أتمنى أن أعانقك باشتياق ألف عام..

أنفض أفكاري اليابسة وأنتبه إلى الأصوات الآتية من الشارع لا أعرف كنهها، في البداية أظنها النداءات إلى صلاة الجمعة، ولكنني أتذكر أن اليوم ليس الجمعة، دونت ذلك بالأمس، البارحة كان الأحد، ثم أن الساعة الآن السادسة صباحًا، أتأكد من ذلك حينما أنظر في ساعة الهاتف وساعة الحاسوب.

أخرج إلى شرفة المنزل محاولاً فهم الأمر، وأخيرًا أستوعب كل شيء دفعة واحدة، المآذن تصدح بالتكبير، تكبيرات العيد. لم أذهب إلى صلاة العيد أو أية صلاة جماعية منذ أن كنت صغيرًا، تعرفون لمَ بالطبع، فلو زادت الصلاة عن سبع دقائق لتحول الأمر إلى كارثة، ولكنني سأحاول هذه المرة على أية حال.

الصلاة؟ لم لا.. أقولها لنفسي وأدخل إلى غرفتي مسرعًا، أنزع ورقة وأدون عليها:

استحم، ارتدي شيئًا نظيفًا، ضع قليلاً من العطر واذهب إلى صلاة العيد.

بعد قليل أكون قد فعلت كل ذلك، وأخرج إلى الصلاة. في الشارع أمشي بلا وجهة محددة، لا أعرف أى مسجد أختار للصلاة

به، أخيرًا أختار الأقرب. أمشي متجهًا إليه مبتسمًا، أستل نفسًا عميقًا وكأنني أتشرب العالم داخلي، تصدمني رائحته، تحرقني من الداخل، خليط من عوادم السيارات، القمامة، عرق البشر، ودماء الحيوانات المذبوحة حديثًا، إذن لابد أن ذلك هو العيد الكبير. أبحث عن مصدر تلك الرائحة، على اليسار أجد نهرًا صغيرًا من الدماء يتدفق بمحاذاة الرصيف، شيء ما يصرخ بداخلي، أغلق عينيَّ محاولاً كتم أنفاسي، دقائق وأنسى كل ذلك، فلأصمد قليلاً. محظوظة هايا لا تأكل اللحم!. جيش من السحابات يتكاثف مواريًا السماء، هل ستمطر في سبتمبر؟.

الجميع يقف استعدادًا لبدء الصلاة، أحث الخطى متجهًا إلى جموع المصلين، أصل مصطفًا بينهم متمنيًا أن تنتهي الصلاة قبل أن تنتهي ذاكرتي ذاتية التدمير ذات السبع دقائق.

●●●

تنتهي الصلاة لحسن حظي قبل موت ذاكرتي، أقف مستعدًا للمغادرة حينما يمد لي أحدهم يده لمصافحتي كسُنة ما بعد الصلاة، أسلم عليه ثم أتأهب للمغادرة فيمسك بساعدي قائلاً في هدوء:

- مايصحش، استنى واسمع الخطبة، عشان تاخد الثواب كامل.

لا أعرف ما الذي يدفعني لاحترام رغبته فأجلس بجانبه على الأرض مجدداً، أنتقل ببصري بين من تبقوا متناثرين حولنا، البعض يستمع للخطبة في شغف حقيقي، والبعض الآخر ينتظر ما بعد الخطبة آملين في اختيار أسمائهم في يانصيب للجوائز كما ألاحظ.

عن يميني يجلس رجل يبدو في الخمسين من عمره، اشتعل رأسه شيبًا، يفرد يديه في وضع أفقي أمامه مشيراً إلى أحدهم بالمجيء إليه، أمد بصري إلى من يشير إليه فأجد طفلاً صغيرًا لا يتعد الثلاث سنوات يضحك مهرولاً نحوه في خطوات عشوائية، يصل إليه ملقيًا بنفسه بين ذراعيه. رجل آخر أصغر سنًا من الأول يأتي إليهما، يحمل الطفل، يرمي به عاليًا في الهواء ملتقطًا إياه مجددًا، يقبله ثم يمسك بيده مشيرًا ناحية الرجل الأول قائلاً:

- قول باي لجدو.

يطيعه الطفل قائلاً باي قصيرة، ثم يمضي الرجل متجهًا إلى امرأة تقف بعيدًا، يناولها الطفل ثم يمضي ثلاثتهم بعيدًا.

الأصوات الآتية من السماعات الكبيرة المثبتة في أركان الشارع تخرجني من ذلك العالم، لا أميز كلمة من الخطبة، فقط أصوات وصرخات مختلطة غير مفهومة تخترق طبلتيَ أذنيَّ، العذاب في

obeikandi.com

أنقـى صـوره، لا أسـتطيع البقـاء أكثـر. أتسـلل عائـدًا إلـى الـوراء محـاولاً عـدم تنبيـه جـاري الجالـس أرضًـا، أقـف مغـادرًا في هـدوء، أجـد حذائـي، أرتديـه وأمضـي، أصطـدم بكتـف أحدهـم يهاتـف حبيبتـه:

– أيوة يـا روحـي، كل سـنة وإنـتِ طيبـة، لسـة مخلص صـلاة، هاشـوفك بالليـل؟.. ..

أبتسـم عفويًـا وأمضـي بخطـوات سـريعة. قطرة مـاء تبلل ذراعي، وأخـرى تسـقط فـوق جبينـي، أنظـر إلـى السـماء مـادًا كفـيَّ أمامـي، إنهـا تمطـر، تمطـر بغـزارة، حسـنًا لعلهـا تغسـل تعاسـتي. مـن قـال أن الشـتاء دائمًـا مـا يكـون رومانسـيًا؟ هـذا خطـأ ابتدعـه العشـاق، الصحيـح في الأمـر أن الحـب والحـزن همـا وجهـان لعملـة واحـدة اسـمها الشـتاء، هـو رومانسـي لمـن يلتقـي بحبيبتـه في صبـاح شـتوي كهـذا، يرتجفـان معًـا، يتدثـران ببعضهـا البعـض، يرتشـفان قهوتهمـا سـويًا. وحزيـن جدًا لمـن هـو مثلـي، يذكـره بوحدتـه، ضعفـه، تعاسـته، يذكرنـي أنـا بليلـة أن رقصنـا سـويًا تحـت المطـر، يجعلنـي أكتـوي وجعًـا. كئيـب جـدًا اللـون الأسـود إذا مـا اقتـرن بالمـوت والجنـازات، أنيـق جـدًا إذا مـا ارتبـط بفسـاتين السـهرة وحفـلات الزفـاف.

حينما أصل إلى باب المصعد تهاجمني روائح الطعام الآتية من شقق البناية، بالطبع! الجميع مشغولون بإعداد لحوم الحيوانات التي تم ذبحها منذ قليل، الجميع سيتناول الغداء في السابعة صباحًا!

بعض من عادوا من الصلاة وصلوا إلى باب المصعد بجانبي، الكل يصافحني مناديني باسمي، لا أعرف أحدًا، أقصد لا أتذكر.. .فقط أصافح من يصافحني وأبتسم مجاملة.

أدخل شقتي بعد قليل، ألقي بالمفاتيح على إحدى الطاولات، وأجلس مفكرًا.

لا أب يقف بجانبي في الصلاة، لا أم تقدم لي حساء اللحم الذي أعدته منتظرةً رجوعي من الصلاة، لا أخ يسابقني إلى مصعد البناية، ولا أخت تقبل خدي تهنئة بالعيد، ولا حبيبة أهاتفها الآن، كم تبقى من السبع دقائق لتدمر ذاكرتي نفسها الآن؟

دقات متسارعة على الباب تخرجني من أفكاري، من يدق على بابي الآن في هذه الساعة المبكرة؟ أو في أى ساعة أصلاً! أفتح الباب في حذر لأجد أحدهم يحمل في يديه طبقًا كبيرًا محاط بورق الألومينيوم، ويحمل على وجهه ابتسامة عريضة:

obeikandi.com

- أستاذ عايش، إحنا عارفين إنك لوحدك، والمدام أصرت إنك لازم تاكل معانا من لحمة الدبيح، اتفضل.

- أيوة بس..

- مفيش بس، أرجوك ما تكسفنيش، دي حاجة بسيطة يعني، كل سنة وإنت طيب.

يقولها لتزيد ابتسامته اتساعًا، سينفجر فمه إذا حاول أن يبتسم أكثر،أمد يدي متناولاً الصحن منه.

- متشكر، وإنت طيب وبألف خير.

- مش محتاج أى حاجة تانية؟ مخلل؟ بيبسي؟

- لا متشكر قوي.

أقولها محاولاً محاكاة ابتسامته، فيتسبب الأمر في ولادة ابتسامة مشوهة تهلك فور خروجها إلى الحياة.

- بالهنا والشفا، يلا يا رحمة.

يقولها الرجل مغادرًا وهو يمسك بيد طفلته التي ظهرت من مخبئها الصغير خلفه.

أغلق الباب، أتجه إلى المطبخ، ألتقط ملعقة نظيفة ثم أخرج إلى الصالة وأجلس إلى الطاولة التي ألقيت عليها بالمفاتيح، وأفض الغلاف الفضي عن الطبق.

obeikandi.com

طبق أرز كبير يكفي ثلاثة أشخاص مغطى بالخبز ومرق التوابل، وسبع قطع من اللحم الضأن. لم آكل شيئًا منذ وقت طويل، ممتلئة معدتي بالماء، الوجع والمسكنات. أبدأ في تناول الطعام ببطء، ملعقة أرز، قطعة لحم، ممم الطعام شهي، آكل أكثر، ملعقة تلو الملعقة، وقطعة لحم تلو القطعة، ولكن هناك شيء ما لا يبدو صحيحًا..

معدتي تقرقر.. .أشعر بالغثيان، أشعر أنني.. أريد.. .أن..

أتجه مسرعًا إلى دورة المياة، أفتح غطاء مقعد المرحاض.. وأفرغ معدتي بأكملها.. .

أستل أنفاسًا قصيرة، ثم أفرغ عصارة صفراء.. منهكًا أجلس أرضًا بجانب المرحاض محاولاً استيعاب ما حدث.. تبًا، أستوعب تقريبًا الأمر الذي لا أتذكره.. أخرج دفتر أوراقي وقلمي، وأكتب.. «معدتي لا تطيق لحم الضأن..»

●●●

opeikandi.com

أمطار أكتوبر..

و آثار الطبشور المغسولة حديثا..

للعبة حجلة من ليلة أمس..

عواميد إنارة تومض بتردد..

و بائع يوسفي يرتجف بشدة..

أصوات السيارات المندفعة في برك الماء..

تفاصيل حكاية تنقصنا..

obeikan.com

obeikandl.com

الفصل السادس والعشرون - أتذكر

Chapter Twenty Six – I Remember

أستفيق من إغماءتي لأجدني ممددًا على أرضية الحمام، تفوح من فمي رائحة أسوأ من رائحة المرحاض، لا أعرف كم من الأيام مر وأنا راقد هنا، تاريخ اليوم السابع والعشرين من أكتوبر، هكذا يقول الهاتف الممدد بجانبي. يستغيث، بطاريته تحتاج إلى شحن، استغاثة أخرى ثم تظلم شاشته ويفقد الوعي. ثلاثة أيام مرت وأنا راقد هنا في إغماءتي.

أنهض متجهًا إلى المرآة الصغيرة أعلى الحوض، نما شعري وتشابكت خصلاته، وكذلك ذقني، أصبحت مثل رجال الكهف، ندبة كبيرة في صدغي لا أعرف كيف حصلت عليها.

لا أتذكر الخمسة أشهر الماضية من حياتي، خمسة أشهر تقريبًا مرت بدون حياة، هايا أقصد.

أتحسس بقية جسدي بحثًا عن أى ندوب أو جروح، لا شيء، ولكن بنطالي مبلل، رائحته كريهة، أتجه إلى غرفتي بحثًا عن ملابس نظيفة.

ألتقط بنطالاً وقميصًا وغيارات داخلية من الدولاب أمامي، أستحم وأرتدي ملابسي، أشحن الهاتف ثم أنتبه إلى شيء خطير! منذ ربع ساعة تقريبًا وأنا أتذكر كل شيء، أتذكر استيقاظي في ذلك الحمام، استحمامي، وتبديل ملابسي وشحن الهاتف! مهلاً! أنا أتذكر كل شيء يحدث، حكاية السبع دقائق لم تعد موجودة! هل شفيت؟ لقد شفيت! لا أحتاج إلى أوراق ودفاتر! أضحك.. أضحك في هستيريا! أبعثر الأوراق الموضوعة على مكتبي، أبعثر الأوراق المتكورة في سلة المهملات، أقفز صارخًا «أنا خفيت! واللّه خفيت! «

باكيًا أضرب على جدران غرفتي المغطاة تمامًا بالصور: «أنا فاكر!.. .أنا فاكر.. .أنا فاكر.. !»

أضرب رأسي بالجدار مرة واثنتان وثلاث حتى تؤلمني نزفًا، أبكي، وأسقط جاثيًا أمام الجدار.

و ما الفائدة إن لم تكن هي معي؟ الحياة بدونها ليست بحياة. تبتسم الدنيا لنا بعد أن تسلبنا كل ما نملك.

الحقيقة إعلان نيوني ضخم وضع على لافتة بطول سور الصين العظيم وارتفاع برج الخليفة بالإمارات، يضيء بومضات متقطعة: ستظل وحدك للنهاية»

●●●

بعد نصف ساعة أقرر أن أتناول فطوري ثم أقوم بحلاقة شعري وذقني. يتكون فطوري من «باتيه بالتوت» وكوب شاي، أفتح غلاف الباتيه وأتناول قضمة فأتذكر أنه نفس النوع الذي تناولناه سويًا أنا وهايا بعد سرقة السيارة في الماستر، أتناول قضمة أخرى، ليست بنفس الحلاوة من دون مذاق شفتيها، ألقي ببقيته جانبًا في حسرة وأنهض متجهًا للحمام، ممسكًا بماكينة الحلاقة الكهربائية أقف أمام المرآة مبتسمًا، ثم أبدأ في تشذيب شعري أولاً ثم ذقني.

بعد أن أنتهي، أقرر أن أقوم بحلاقة ذقني بالماكينة العادية كي أصير حليق الذقن تمامًا.

أدهن الكريم الخاص، أبلله بقليل من الماء ثم أبدأ في الحلاقة، في نعومة ويسر أزيل الشعر الذي يغطي خدي الأيمن، خدي الأيسر، شاربي، ذقني، ثم عنقي.. .و.. أي.. الجرح في عنقي يتسع، والدماء تسيل بغزارة. شفرة الحلاقة والدم السائل من عنقي يستحضران في عقلي مشاهدًا مرعبة لم أشاهدها من قبل، مشاهد لطفل يُذبح. رؤيتي تزدوج، تصير ضبابية، أشعر بالدوار، تتحشر أنفاسي، أتماسك كي لا أسقط. أجلس على طرف حوض الاستحمام لثوان حتى أعود لطبيعتي، أقف من جديد ناظرًا في المرآة، يتوقف نزيف عنقي، أكمل حلاقتي حذرًا حتى أنتهي تمامًا.

أشطف وجهي بالماء، ألتقط منشفة وأقوم بتجفيف وجهي، أفكر والمنشفة على وجهي، ما هذا الذي رأيته؟ لابد أنني متعب وبحاجة إلى راحة، أزيح المنشفة عن وجهي ناظرًا في المرآة فأجد خلفي رجلاً أربعينيًا ينظر لي بعينين مجوفتين سوادًا وعنق مذبوح ينسكب منه الدم بغزارة، أجفل ناظرًا خلفي في فزع فلا أجد أحدًا، أخرج مسرعًا من الحمام متجهًا إلى الغرفة. أقرر ألا أدخل الحمام مجددًا لبقية اليوم، هل شفيت من داء الذاكرة لأصاب بالهلاوس؟ تبًا!! يجب أن أخرج حالاً، إلى أى مكان.. الآن!

أفتح دولابي لأنتقي ملابسًا صالحة للخروج، بنطال أسود لطيف، وتيشرت أبيض يتماشى معه، أصَفِر محاولاً تشتيت عقلي من التفكير في تلك الهلاوس.

أبدل ملابسي في سرعة واقفًا أمام المرآة لأعدل من هندامي قليلاً وأمشط شعري حينما ألمح انعكاس شئ ما يتحرك في المرآة ورائي. أنظر خلفي فلا أجد أثرًا له، لابد أنني أهذي، أنفخ بقوة ثم أستدير مكملاً ما كنت أفعله حينما يقشعر بدني لما أراه بالمرآة.

و كأن المرآة بداخلها عالم آخر غير عالمنا، تعكس غرفة أخرى غير غرفتي، غرفة مظلمة ذات جدران سوداء متشققة، يتسرب

الدم من جدرانها، وعلى أريكة سوداء كبيرة تجلس عائلة كاملة مكونة من رجل وسيدة، طفل وطفلة، جميعم ملطخون بالدماء، أعناقهم مذبوحة تسيل منها الدماء بغزارة، ينظرون لي وعلى وجوههم أكثر الابتسامات ريبة على الإطلاق.

تتشقق المرآة، وتتسع الشقوق، وكأن أحد ما قد هشمها من الداخل، أضع كفي على بؤرة تلك الشقوق فأجدني أنصهر داخلها، أذوب، حتى تبتلعني تلك الشقوق تمامًا إلى داخل المرآة.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع والعشرون – المنزل
Chapter Twenty Seven – The House

عادت ذاكرتي وعاد معها كل شيء حاولت دفنه داخل غرف عقلي المغلقة، انفتحت الأبواب على وسعها، وتسرب منها كل شيء قمت بحبسه لسنين طويلة، انفلات أمني رهيب لذكرياتي.

واليوم أقرر الذهاب إلى هناك، إلى منبع تلك الذكريات، محاولاً إغلاق أبوابها مجددًا، سدها وإقامة متاريس قوية أمامها.. للمرة الأولى منذ ما حدث.. أعود، أمام ذلك البيت الصيفي، بحديقته الجرداء والأرجوحة الكهلة التي تضيف إلى المشهد رهبة حقيقية.

لا أجرؤ على الاقتراب أكثر.. أجلس على مقربة من المنزل مفترشًا الرمال، أختلس النظرات بطرف عينيّ، وكأنه شخص أحاول أن أتحاشى النظر إليه..

جدرانه القرميدية المتصدعة التي تملؤها الشقوق، وتقشر عنها معظم ما كان عليها من طبقات الدهان الأزرق والأبيض وكأنه أحد تلك البيوت الصيفية في مدينة شفشاون بالمغرب، «عايزين نخليه سماوي يا نزار» ترن الكلمات في أذني بصوت أنثوي دافئ.. أبتسم.

obeikandi.com

تهب نسمة باردة على المكان فتتطاير أوراق الأشجار الميتة أرضًا ويهتز مقعد الأرجوحة الخشبي المثبت إلى قاعدتها بسلاسل حديدية صدئة مدلاة من الأعلى، يتأرجح المقعد للأمام وللخلف وكأن هناك شخصًا خفيًا يدفعه، تصدر سلاسله صريرًا أشبه بتهويدة حزينة تجعل قلبي ينكمش وجعًا في صدري.

يناديني صوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ الصخري فأنظر إلى البحر، رمادي داكن بلون السماء، وبلون قلبي الآن.

أعود بعينيّ إلى البيت ناظرًا إلى الباب الخشبي المتهالك.. الحشائش نمت على أعتابه، وتسلقت إلى نصفه محتضنة إياه، وكأنها تمسك بساقيه، تستجديه ألا يفتح مجددًا لأي شخصٍ كان. ذلك الغراب الواقف أعلى البيت يؤكد على ذلك بنحيبه الغير مرحِب على الدخول..

أنهض، أقترب بخطىً متثاقلة ناحية البيت وكأنني أتجه إلى منصة إعدامي الشخصية..

ناظرًا إلى الباب في خشية، أصعد الثلاث درجات المؤدية إليه ثم أخرج مفتاحه من جيبي بيدٍ مرتعشة، أولج المفتاح فيه، فيصرخ كلاهما مصدرين قرقعات من الوجع، مرة واثنتان وثلاثة، الآن أستطيع فتحه.

أحاول دفع الباب بيدي الأخرى، الحشائش تتشبث به، أدفع أكثر، الحشائش تتشبث أكثر..

أدفع بقوة أكبر، الحشائش تتشبث بساقي الباب الوهمية لمرة أخيرة ثم تتمزق تاركةً إياه.

ينفتح الباب ببطء مصدرًا صرير أشبه بالعويل، لا أرى شيئًا، الظلام يلف كل شيء بالداخل كستار أسود ثقيل. رائحة التراب، الدم، والألم تشن هجومًا على أنفي.. أجفل متراجعًا خطوة إلى الخلف، محاولاً حماية أنفي براحة يدي. أخطو إلى الداخل في حذر، خشب الأرضية يستغيث تحت ثقل قدميَّ.. كل الأشياء في البيت تصرخ، تعوي، تستغيث.. و كأنها تنعي شيئًا ما..

على ضوء الشمس المتسرب من الباب، أتجه إلى النافذة المقابلة أفتحها، كي أستطيع الرؤية بشكل أفضل، في الطريق إليها تتعثر قدماي بأشياء لا أدري كنهها..

إلى النافذة أصل، أزيح الستائر التي تخبئها وأحاول فتحها، يستجديني المقبض ألا أفعل..

أفتح النافذة الزجاجية على مصراعيها، ليظهر من خلفها نافذة خشبية بمفصل، يتسرب ضوء الشمس من بين فتحاتها، تمتد يداي لتعبث بالمفصل، فتنفتح النافذة أخيرًا وتتساقط

obeikandi.com

ملايين ذرات التراب متطايرة في الهواء، تنسكب أشعة الشمس إلى داخل الغرفة ملتهمة عينيَّ فأغلقهما بقوة.

تأخذ عيناي بعض الوقت حتى تعتاد على الإضاءة الجديدة، ثم أستدير ناظرًا إلى داخل البيت.

أدور بعينيَّ في المكان حتى يستوقفني شيء ما في أحد الأركان، كرسي خشبي هزاز يقبع بجانب مدفأة على الطراز الأمريكي وبجانبه شيء ما مغطى بملاءة بنية.

أقترب تبعدني عنه خطوتين فقط، الأتربة تعلوه، وفي حجره يقبع كتاب ما، ألتقطه وأزيح عنه الأتربة ببطء ليظهر عنوانه: « القرآن الكريم « أقبله وأعيده لموضعه. هنا كان يجلس.

أسفل قدميَّ ألمح شيئًا ما، عوينات طبية مهشم زجاجها، ألتقطها وأضعها بجانب المصحف على الكرسي.

إلى اليسار، حيث يقبع الشيء الآخر مغطى بالملاءة أقترب مزيحًا إياها ليظهر كرسي هزاز آخر أرى فوقه إبرتيَّ حياكة، ومشروع وشاح لم يكتمل، كان الوشاح يُحاك لي، أستطيع أن أتذكر، مزدان بألوانه التي أحبها، الأسود، والرمادي. أتحسس الوشاح بشغف، أعيده مكانه وأبتعد.. هنا كانت تجلس..

أعـود إلـى الـوراء خطوتـين فتتعثـر قدمـاي مجـددًا ببعـض الأشـياء، أتوقـف ناظـرًا إلـى الأرض..

أجثـو علـى ركبتـيَّ، أمـد يـديَّ محـاولاً معرفـة مـا الـذي تعثـرت بـه، دميـة بلاسـتيكية، بشـعر أشـقر وعينـان زرقـاوان، تعلوهـا الأتربـة، أحملهـا في يديَّ مزيحًـا عنهـا الأتربـة، فائقـة الجمـال هـي، ولكنهـا.. مخضبـة بالدمـاء الجافـة، أجفـل تـاركًا إياهـا تسـقط وأنـا أنظـر إلـى يـديَّ وكأننـي قـد ذبحـت الدميـة لتـوي.. ضحكـة بريئـة تنطلـق مـن خلفـي.. .أسـتدير..

طفلـة في السـابعة مـن عمرهـا ألمحهـا تركـض إلـى إحـدى الغـرف وشـعرها الأسـود يتطاير مـن خلفهـا.. لابـد أن تلـك دميتهـا.. عليـاء..

أنهـض ذاهبًـا وراءهـا فتتعثـر قدمـيَّ بشـيء آخـر، أجثـو علـى ركبتـيَّ أتفحصـه، سـيارة بلاسـتيكية بيضـاء تناثـرت عليهـا بقـع مـن الدمـاء.. لابـد أنهـا سـيارته.. عمـر..

ألتقطهـا هـي والدميـة وأنهـض متجهًـا صـوب الغرفـة التـي دخلتهـا عليـاء..

علـى بـاب الغرفـة أقـف متفحصًـا إياهـا.. سـريران صغيـران، أحدهمـا أزرق، والآخـر وردي..

ملاءات الأسرة بيضاء ملوثة باللون الأحمر.. في وسط الغرفة على سجادة دائرية بيضاء يجلسان.. علياء وعمر.. يلعبان سويًا.. واللون الأحمر يحاصرهما. تضحك علياء وهى تصب شايًا وهميًا من فنجان بلاستيكي صغير وتناوله لعمر، يمسكه بيده الصغيرة ويتظاهر أنه يشرب ما به مستمتعًا. تعيد هي شعرها إلى الوراء كسيدة ناضجة ثم يدور بينهما حوارًا ما لا أسمعه.. فجأة.. يدير وجهه ناحيتي ببطء، ينظر إليَّ مبتسمًا، ثم يتلاشى كلاهما تمامًا..

أدخل إلى الغرفة متجهًا إلى هناك، وعلي طرف تلك السجادة أجثو على ركبتيَّ مجددًا.. أتحسس موضع مجلسهما.. أغلق عينيَّ وأبكي في صمت..

أمسك بالدمية والسيارة بين يديَّ، أحتضنهما باكيًا ثم أضعهما على السجادة وكأنها ضريحهما، أنتظر هناك للحظات ثم أنهض مغادرًا الغرفة..

قبل أن أغادرها تمامًا أتوقف ملتفتًا إلى الداخل، ناظرًا إلى السجادة واللعب للمرة الأخيرة، ثم أغلق الباب مُسندًا رأسي إليه.

●●●

أخرج متجهًا إلى الصالة التي أتيت منها، مديرًا عينيَّ في أنحاء المكان، الآن أتذكر أشياءً ظننت أني نسيتها، أرى المشاهد تعود إلى الحياة أمامي، وكأن البيت أصبح شاشة عرض كبيرة للزمن.. لا أعرف من ضغط زر العودة إلى الوراء..

أمام التلفاز هنا أرانا نجلس في انبهار متابعين إحدى المسرحيات.. الضحكات تنطلق من أفواهنا كألعاب نارية تنير سماء الليل.. الرجل والمرأة والأطفال الثلاث.

في المطبخ، بجانب الموقد تقف هي مراقبة الطعام كي لا يحترق، يفاجئها هو من الخلف في رقة فتبتسم، بمعلقة كبيرة تجعله يتذوق ما تطبخه فيبدي تلذذه ثم ينتبه الاثنان إلى المرق الذي سال على قميصه فيضحكا، ثم يضع هو قبلة على خدها الأيسر انتقاما منها لذلك.

على الحوائط أرى.. الصور التي قامت بالتقاطها واللوحات التي اعتادت هي أن ترسمها، أتذكر من أين ورثت أنا تلك الموهبة إذن. العود المعلق يبكي موليًا وجهه للحائط، وكأنه لا يرغب في رؤية العالم من خلفه.. فصاحبه لم يعد موجودًا. يظهر تحته الشخبطات التي اعتاد الاثنان أن يوبخانا على رسمها أنا وعمر وعلياء..

الجدران تتلون بالأسود وتنزف، الشقوق والتصدعات تنتشر في البيت بأكمله، وكأن البيت يتمزق، يتحطم، ينهار على نفسه منذ ذلك اليوم. أشعر بها، الشقوق.. تمتد إليَّ، تطالني، ذلك ما رأيته في المرآة، الوجع لا يحتمل.. أقرر أن أغادر..

أتجه إلى نافذة الصالة، أغلقها، وأخبئها خلف الستائر مرة أخرى. أعود إلى الباب على ضوء الشمس المتسرب منه، وقبل أن أخرج يعبر من خلالي طفل صغير يمسك بطائرة ورقية بكلتا يديه متجهًا إلى البحر بثياب الشاطيء.

هذا الطفل يشبهني إلى حد كبير، يشبه الشخص الذي بداخلي، وليس الشيء الذي أراه في المرآة دائمًا، الطفل الذي خرج من الباب منذ سنوات، عاد الآن.. هذا الطفل هو أنا..

أودع البيت بنظرات أخيرة، ثم أخرج وراء الطفل مغلقًا الباب ليصدر آخر صراخ له قبل أن أغادر.. .الآن بت أعرف من كانت الأشياء تنعي..

كانت تنعي أهل ذلك البيت.. عائلتي..

●●●

obeikandl.com

كم أفتقد ذلك الطفل الذي يغني تحت المطر..

فارداً ذراعيه للسماء يحتضن العالَم بأكمله..

يلتقط صوراً لقوس قزح المولود حديثاً لتوه

حيث الشمس شقت طريقها عائدة إلى الأفق

أفتقدني..

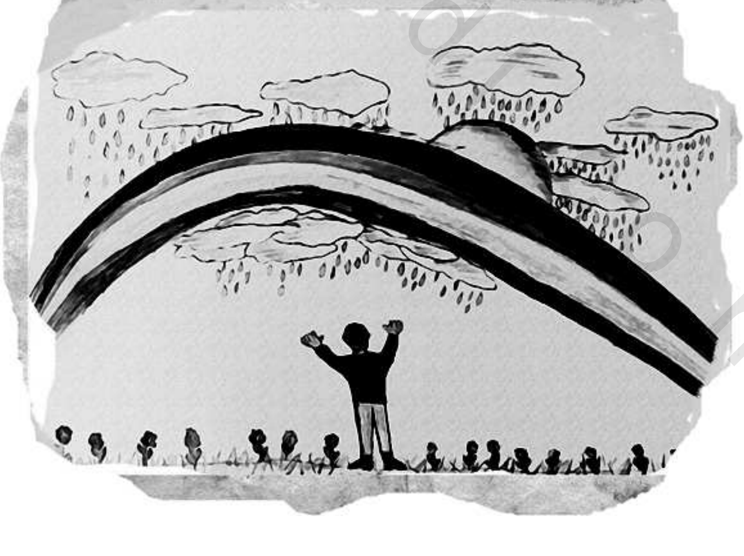

obeikandl.com

obeikandl.com

نهـايـة الجـزء الأول

obeikandi.com

obeikandl.com

الجـــزء الثـــاني

تحكيه حياة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن والعشرون – البطل

Chapter Twenty Eight – The Hero

ستة أشهر قد مرت منذ أن قتلته تلك الليلة بيديَّ ودفنته أسفل منزلي، هشمت كرامته ومثلت بها، لملمت أشلاء مشاعره وعلقتها على كل مدخل من مداخل شارعنا.

اختفى ولا أعلم عنه شيئًا منذ تلك الليلة، لم يحاول الاتصال وكذلك لم أفعل أنا.

فبرغم عذره المقنع، لم أستطع مسامحته، فذلك اليوم في القسم كان من أبشع أيام حياتي، إن لم يكن أبشعها بالفعل. فقط أحمد الله أن أخي جاء لنجدتي قبل أن تحدث أية كارثة.

يخرجني الهاتف الذي يرن من شرودي، رقم خاص، أرد فأسمع صوت رجل وقور:

- الآنسة حياة؟

- مممم أيوة.. ؟.

- لو سمحتِ عايزينك في مديرية الأمن عشان نقفل التحقيق بخصوص قضية عندنا.

يقشعر بدني لسماع تلك الجملة، أرتجف بالعة ريقي في صعوبة، تتلاحق أنفاسي وتتسارع نبضات قلبي.

- آنسة حياة؟ معايا؟

- أيوة أيوة.. قضية إيه؟ كان فيه قضية من ٦ شهور واتقفلت خلاص.

- لا يا فندم، دي قضية تانية حضرتك مطلوبة فيها كشاهدة مش أكتر، هاستنى حضرتك تشرفينا بكرة الصبح إن شاء اللّٰه، المقدم مدحت الشربيني.

- تمام.

- في انتظارك إن شاء اللّٰه.

●●●

في الصباح التالي أقف مترقبة في قلق خارج مكتب ذلك الضابط في انتظار السماح لي بالدخول، بعد قليل يخرج أحدهم من المكتب، قصير ذو بنية عريضة وكرشٍ صغير، عينان واسعتان وشارب كث، يشير لي بالدخول قائلاً:

- اتفضلي المقدم مدحت مستنيكِ.

obeikandl.com

أنظر له في ريبة ثم أدلف إلى المكتب فيغلق هو الباب خلفي في هدوء.

- اتفضلي استريحي.

يقولها الضابط الجالس خلف مكتبه، يرتدي بزته الرسمية، عينان سوداوان ضيقتان وشعر أسود مرتب بعناية، إلى جانبه يجلس شاب آخر يستعد لكتابة المحضر. أجلس إلى المقعد في تحفز، يضغط زرًا أمامه فيدخل الرجل ذو الكرش الصغير متربصا على الباب.

- تشربي إيه يا آنسة حياة؟

- ميرسي مش عايزة حاجة.

- طب روح انت يا رمضان.

يخرج رمضان مختفيًا وراء الباب وينهض الضابط متجهًا ناحية ثلاجة صغيرة (ميني بار) في أحد أركان الغرفة يفتحها ثم يخرج علبتين صفيحتين من المياة الغازية، يعود واضعًا إحداها أمامي ويفتح الأخرى ويبدأ في الشرب منها، يرتشف قليلاً ثم يجلس واضعًا إياها على المكتب أمامه.

- اشربي.

@beikandi.com

يقولها مزيحًا العلبة ناحيتي.

- ممكن أعرف أنا هنا بعمل إيه؟

يتراجع في مقعده قليلاً إلى الوراء، يرتشف مجددًا من علبته، يضعها ثم يفتح ملفًا ضخمًا أمامه، يقلب عددًا من الصفحات حتى يتوقف عند صفحة معينة، يمنع نفسه من التجشؤ ثم يبدأ في قراءة ما بالملف أمامه:

- يوم الخميس ١٦ إبريل اللي فات.. كنتِ إنتِ والمدعو.. ..

يقرب وجهه من الملف مكملاً:

- عايش.. عايش نزار الحداد في جزيرة نيلسون الساعة الرابعة فجرًا.. صح كدة؟

أتذكر تمامًا ذلك التاريخ وذلك اليوم، كيف لي أن أنساه؟

- آنسة حياة.. لو سمحتِ خليكِ معايا..

- حاضر حاضر، تمام فعلاً كنا هناك يومها..

- تمام، نكمل.. في الساعة الخامسة فجرًا، سبتوا الجزيرة وركبتوا لانش كنتم راجعين بيه لأبو قير، مظبوط؟

- مظبوط..

- وبعدين اللانش اتقلب بيكم بعد تلات ارباع المسافة

تقريبًا بين الجزيرة وشط أبو قير.. و كملتوا بعد كدة عوم لحد ما وصلتوا لحد الشط..

- تمام..

- ممكن تقوليلي حصل إيه بالظبط لما وصلتوا ولما قابلتوا الريس حجازي؟

- احنا بعد ما وصلنا، الريس حجازي قابلنا بغضب شديد جدًا لما مرجعناش باللانش، واضطرينا نكدب عليه ونقول له ان احنا سبناه عالجزيرة، بس طبعًا هو ما صدقناش، وكان تقريبًا هياخدنا رهينة لحد ما القارب يبان، حاولنا نديله تعويض.. بس رد فعله كان مبالغ فيه جدًا، وحسيت للحظة انه على استعداد يقتلنا.

- جميل، وبعدين حصل ايه؟

لا أعرف ما الجميل فيما قصصته لتوي؟ اختطافنا أم محاولة قتلنا!

يشعل هو سيجارة نافثًا دخانها في سقف الغرفة فأكمل:

- بعدين جت له مكالمه من حد واتلبخ فيها وعايش استغل اللخمة اللي كان فيها وهربنا.

- بس كدة؟

أومـيء برأسـي مراقبـة يـده التـي تطعـم منفضـة السـجائر أمامـه رمـاد السـيجارة بهـدوء.

- لـو كان عالقـارب احنـا مكانـش قصدنـا، وعمومـًا أنـا ممكـن أدفـع التعويـض المناسـب و..

يقاطعني بحدة: فيجفل الشاب بجانبه فزعاً:

- لا انتم كان قصدكم، مش انتِ، اللي كان معاكِ.. عايش.

- ازاى؟ أنا اللي كنت ماسكة الـ... ..

يهز رأسيًا نافيا:

- راجعـي في دماغـك اللـي حصـل، هاتلاقيـه غيـر اتجـاه القـارب في آخـر لحظـة مـن غيـر إنـتِ مـا تحسـي.

أحـاول اسـترجاع مـا حـدث في تلـك اللحظـة، وأتذكـر فعـلاً أننـي شـعرت بقـوة تجـذب دفـة القـارب إلـى اتجـاه الصخـرة.

- طب وعايش هايعمل كدة ليه؟ كان عايز يموتنـي؟

يضرب بيده على مكتبه بانفعال قائلا:

- بالعكـس، لـولا اللـي عايـش عملـه ده كان زمانكـم انتـم الاتنـين ميتـين.

يطفيء سيجارته في المنفضة كوجبة أخيرة لها ثم ينظر لعينيَّ المتسعتين في ذهول قائلاً:

- لما كنتم عالجزيرة وعايش شاف اللانشات اللي جاية عليكم هرب بالقارب من الناحية التانية صح؟

- أيوة، قاللي ان الصيادين بييجوا الجزيرة بس يظهر جم بدري ليلتها.

- دول مكانوش صيادين، دول كانوا رجالة المعلم مدبولي، جايين ياخدوا الحاجة اللي كانت في القارب اللي كان معاكم ويخلّصوا عليكم انتم الاتنين.

- مدبولي إيه وحاجة إيه أنا مش فاهمة؟

- أنا هفهمك..

يشعل سيجارة أخرى مكملاً حديثه دخانًا وكلمات:

- الريس حجازي كان مخبي شحنة مخدرات في بطن القارب اللي اداه لكم علشان يسلمها للمعلم مدبولي بعدين، واحد من رجالته سرب المعلومة دي لرجالة المعلم مدبولي، اللي قرر إنه ليه يدفع في البضاعة ملايين لما ممكن ياخدها ببلاش؟

ينفث دخان سيجارته بقوة مضيقًا عينيه:

- عايش كان عارف إن في اليوم ده بالذات الصيادين مش بيطلعوا يصطادوا، عشان كدة شك لما لقاهم جايين، واتأكد شكه لما شاف لفة غريبة في بطن القارب وبعدين لقاهم جم بدري وبأعداد كبيرة، فقرر يهرب من الجزيرة معاكِ، ولما حس إن اللانشات جت وراه، قرر يعمل اللي عمله ويقلب اللانش وتكملوا عوم، وبكدة يضرب عصفورين بحجر، يسيب لهم اللانش يتلهوا فيه، ويبقى مش متشاف في البحر.

- طب وليه ماقاليش وكنا نطينا وخلاص.

- محبش يخوفك، إنتِ متخيلة يعني إيه تقعي في ايدين تجار مخدرات؟

- بس انتم عرفتوا منين كل ده؟

- احنا قبضنا على الاتنين، مدبولي وحجازي، بعد انتم ما هربتوا يومها، وعشان نقفل التحقيق اليومين دول، احتاجنا شهادتك زي كنا محتاجين شهادته قبلك، حاولنا نتصل بيه معرفناش، ولما رحناله لقينا باب شقته مفتوح، دخلنا لقينا المكان فوضى، شكينا إن يكون حصل له

حاجـة، فتشـنا اوضتـه ولقينـا مذكراتـه اللـي بيحكـي فيهـا كل اللـي قلتهولـك ده.

- باب شقته كان مفتوح وهو مش هناك؟

- أيوة، عموماً احنا كدة خلصنا ومش محتاجينك في حاجة.

ينهض مستنداً على سطح المكتب بيديه ثم يشيراً إلى الملف بيد الشاب مكملاً:

- امضـي هنـا.. بنشـكرك علـى وقتـك.. .فيـه بـس حاجـة أخيـرة.

يتجه نحو أحد أركان الغرفة، يلتقط حقيبة ظهرية سوداء من الأرض، وورقة مهترئة تعتلي الثلاجة الصغيرة، يعود ثم يناولهما لي قائلاً:

- دي الشنطة بتاعتكم، لقيناها مع الحاجات اللي اتحرزت، والورقة دي كانت على مكتبه في الشقة، تقريباً آخر حاجة كتبها، أعتقد انها تهمك، شكراً على وقتك آنسة حياة.

ألتقط الورقة والحقيبة بيدين مرتعشتين قائلة:

- العفو.

بنظرة خاطفة ألمح «إلى حياة» المكتوبة على ظهر الورقة ثم أستدير مغادرة المكتب وفي أذنيَّ يرن صوت ولاعة الضابط

التي تحرق سيجارة جديدة في هذه اللحظة، وقبل أن أغلق الباب يصطدم بظهري صوته قائلا:

- بس على فكرة، احنا عرفنا مكانه.

يهوي قلبي وأجد نفسي أستدير فجأة ناظرة إلى الضابط الذي يقف أمام نافذة مكتبه نافثًا دخان سيجارته في شرود، يصمت لثوان لتغذية فضولي، يلقي بعقب سيجارته بحركة سينمائية خارج النافذة ومن دون أن ينظر لي يضيق عينيه قائلاً:

- في المعمورة.

يدير وجهه ناحيتي مكملاً الإثارة قائلاً:

- المستشفي.

يرن صوت عايش في مخيلتي:

«أنا بسببك هروح المعمورة!»

«طب ماحنا رحناها..»

«المستشفي يا ظريفة.»

●●●

على الأرض أجلس في غرفتي، وأبدأ في قراءة ما بالورقة:

حبيبتي الغير معقولة واللا ممكنة حد المستحيل.

يقولون إننا نحتاج إلى أربعين يومًا كي نقع في الحب، ولكن أربعون ثانية فقط هي كل ما احتاجه قلبي كي يقع في حبك.

عرفت أنك أنتِ المنشودة حتى من قبل أن تتفوهي بكلمة، ولم أتريث حتى أتأكد أنني المنشود لديك، لم أبال للحظة، فنحن حين نحب لا نفكر، تنطلق قلوبنا كخيول برية أطلقوا سراحها للتو، تركض وتصهل فرحة ظنًا منها أنها تحررت، حتى تجد أنفسها قد هربت من محبس أصغر إلى محبس أكبر.

حين وقعت في حبك، ظننتِ أنني هربت من محبسي الأصغر.. الوحدة.. تلك الغرفة المظلمة الضيقة التي تحاصرني جدرانها بلا هوادة، يشاركني بها أصدقائي في سنوات عمري المنقضية، الوجع والتعاسة.. هما كل ما لديَّ.

هربت دونهما وتركتهما ورائي خلف قضبان غرفتي المعتمة.. الوحدة.

فررت إليكِ، إلى عالمك، عيناك المملوءة سفنًا وقوارب، خصلات شعرك المغزولة خصيصًا في حقول القمر، شفتاك المصنوعة من بتلات ورود قرمزية.. أعادت للدنيا مذاقًا لم أعرفه منذ ميلادي..

obeikandl.com

السحابات أمست غزل بنات يذوب فوق لساني.. و الشمس كنت أعصرها برتقالاً بين يديَّ..

ضحكتك التي أحالتني ذهبًا، جعلتني منقوعًا بالفضة، أعادت لعالمي ألوانه الطبيعية.. و جعلت للتفاصيل تفاصيلاً أخرى..

عقدت الصداقات مع السعادة والراحة.. صرت انسانًا خارقًا..

كنت أحلق حتى حدود المريخ أحدث قمريه عنكِ وأزرع الأزهار فوق سطح المشترى وأعود..

و فجأة صرت أحلق في ذلك الفضاء بمفردي..

ألتهم السحابات بمفردي، وأعصر الشمس بمفردي، وأزرع الأزهار على سطح المشترى أيضًا بمفردي..

حينما كنا سويًا حاولت الاحتفاظ بكِ قدر الإمكان، قفزت، انقلبت وتدحرجت، لوحت وناديت، ابتسمت وبكيت وصرخت، قدمت ألعاب الخفة وتلاعبت بالكرات، روضت أسودًا وثعابين وحتى زرافات.

جعلت من نفسي أضحوكة، ووضعت ملايين الأقنعة كمهرجي السيرك السخفاء..

محاولات تتلوها محاولات من أجل الإبقاء على ذلك الحلم لأطول فترة ممكنة، ولكن في النهاية وجدت نفسي معزولاً عنكِ، على الجانب الآخر للوح الزجاج المعتم الكبير.

تم اختطاف معظم الألوان من عالمي والبقية الباقية تم نفيها إلى مدنٍ ليست في خارطتي..

مذاقات الأشياء أصبحت ورقًا.. اليوسفي والكرز.. القهوة والكعك والبيتسا، الكتب والأفلام وأغنيات فيروز القديمة..

كلها أضحت ورقًا حين أمضغها، وكأن مشاعري أصيبت بزكام مزمن.. .

والآن.. .

مسجون أنا في غرفة مظلمة أكبر نسبيًا، بصحبة وجعي.. وتعاستي، وزميلي الجديد بالغرفة.. ابننا المولود سفاحًا.. الذي تبرأتِ منه « عشقي المنسوب إليكِ «..

التوقيع

عاشقك المنفي من أرضك

أنهي قراءة رسالته في صمت لا يتناسب أبدًا مع فجاعة ما قرأت لتوي، لحظة اثنتان ثلاث ثم فجأة تتلاحق أنفاسي، يرتج جسدي بأكمله، يزدحم قلبي بحزن لا قدرة لديه لاحتوائه.

الوغد.. لم يحذرني بشأن أية آثار جانبية لرسالته.

أبكي وأبكي وأبكي حتى يصبح البكاء عسيرًا ويصير الأوكسيجين شيئًا يصعب على رئتيَّ اصطياده.

أغلف صدري بالرسالة محتضنة إياها بكلتا يديَّ وكأنني أتنفس من خلالها أو أحاول استحضار عايش لينبعث هنا أمامي.

أفتح الحقيبة ثم أتوقف للحظات، أتذكر ليلة هروبنا من الريس حجازي، أستعيد صوتينا داخل عقلي:

«الحاجات زمانها اتبلت كلها أصلاً، ولا ليها لازمة خلاص!»

«على رأيك!»

أمد يدي داخل الحقيبة فتلمس كيسًا بلاستيكًا، أخرجه لأجده واحدًا من تلك الأكياس الكبيرة محكمة الغلق التي تستخدم لحفظ الطعام.. أو المخدرات.. يضيف عقلي..

يضربني التشبيه في مقتل.. يرن صوته في عقلي:

«أنا حياتي واقفة عليكِ.. حرفيًا.. إنتِ بالنسبة لي زي المخدرات يا هايا، لو بطلتها فجأة أموت».

أبكي.. أمسح دموعي التي تنهال مني وأفتح الكيس البلاستيكي وأخرج ما فيه، أقلام، ورق، آيبود، ومعطفه القطني.

لم يطل الماء أي شيء، كم أنت خبيث يا عايش! وكنت أظن أنني الفرد الخطر في عصابتنا الصغيرة!

أضع سماعات الآيبود بأذنيَّ وأشغله فتلعب أغنية Yours للمطربة Ella Henderson

أرتدي معطفه كما ارتديته ليلة كنا بالجزيرة، رائحته ماتزال فيه.

تقتلني إيلا غناءً:

..I wear your winter coat, the one you love to wear

..So I keep feeling close to what's beyond compare

(أرتدي معطفك الشتوي، الذي تحب ارتداؤه، كي أشعر أنني قريبة لما يستحيل مضاهاته)

أرتجف، وكأن القدر يخاطبني بذلك، يعنفني، يحاسبني على ما فعلته به..

أمسك بالأوراق، تلك التي لعبنا عليها لعبة «إتس كومبليت».. .خانات كلماته مكتملة وجميعها صحيحة، لكنه اختار أن يخسر متعمداً أمامي، هزائمه الصغيرة ضدي كانت أكبر انتصار له.

أمسك بأوراق أمانينا أتأملها، حقق لي أمنية من أمنياتي، ولم أحقق له واحدة!

أدين له بالكثير من الأشياء، حياتي واحدة منها.. و يجب عليَّ سداد الدين..

●●●

obeikandl.com

الفصل التاسع والعشرون - سبع دقائق
Chapter Twenty Nine – Seven Minutes

أقف أمام البوابة الحديدية السوداء التي تفصل بيني وبين فناء المستشفي الواسع، للحظة أشعر أن تلك البوابة تشبه تصميم بوابات الجامعة، ياللسخرية! أعتقد أننا جميعنا مجانين بنسب متفاوتة. أقترب من العامل الجالس قرب البوابة أسأله الدخول من أجل زيارة أحد المرضى، يومىء برأسه ثم يخبط بقبضة يده على البوابة:

- افتح يا بيومي.

أسمع صوت متراس البوابة ينزلق، ثم تنفتح البوابة مصدرة صوتًا كالنحيب، أحيي العاملين ثم أتجه إلى مبنى المشفى.

بالداخل أسأل الفتاة خلف مكتب الاستقبال فتدلني على الغرفة المنشودة بالطابق الأخير.

أستقل المصعد متجهة إلى الأعلى، يتوقف المصعد فأخرج إلى الممر المتشح بالبياض، ذلك البياض الذي يقودك إلى الجنون، أسير بخطوات ثكلىَ، حتى ألتقي إحدى الممرضات أسألها عن غرفة عايش، فتخبرني في نفاد صبر بضرورة مراجعة الطبيب المسؤول أولاً، ثم تصطحبني إلى غرفته.

operlkandr.com

وداخل غرفته أجلس، ويجلس هو خلف مكتبه، خمسيني نحيل ذو شعر بني قصير، عينان واسعتان تختبئان خلف عوينات طبية. يرحب بي ثم يعدل من وضع عويناته فوق عينيه، يضع يديه فوق مكتبه ممسكًا قلمًا من الحبر ويبدأ في شرح حالة عايش:

- عايش كان مصاب بحاجة اسمها فقدان الذاكرة قصيرة المدى وده بسبب..

- عارفة، بسب حادثة العربية اللي حصلت له وهو صغير..

- حادثة عربية؟

- آه هو قاللي انه اتصاب بده في حادثة عربية.

- بس عايش ما اتصابش في حادثة عربية، أهله هما اللي اتصابوا، بس مش في حادثة عربية.

- نعم؟ هما مش مسافرين المفروض؟

- بصي.. هو مش المفروض إني أقول لك بس لازم تعرفي عشان تفهمي كل حاجة.

- اتفضل.

- من ١٥ سنة تقريبًا عايش وأهله كانوا ساكنين في شاليه كبير في حتة منعزلة. في أواخر الصيف، هجم عليهم ٢ مسجلين خطر، سرقوا كل اللي في الشاليه، دهب فلوس، و..

- وايه؟

- دبحوا والده وأخوه، واعتدوا على والدته وأخته الصغيرة وبعدين دبحوهم هما كمان، كل ده حصل قدام عينيه، وهو مستخبي تحت السرير مش قادر يطلع صوت، كل ده حصل في سبع دقايق، نفس الوقت بالظبط اللي عايش بيقدر يفتكره وبعد كده عقله بيمسح كل حاجة تلقائيًا.

بعد اللي حصل جدة عايش جابته هنا، فضل خمس سنين ما بيتكلمش، في السنة السادسة ابتدى يرجع لحالته الطبيعية شوية شوية، بس اكتشفنا موضوع السبع دقايق ده، في السنة السابعة اكتشف عايش موضوع كتابة الحاجات المهمة عشان ما ينساهاش، اللي بيسميها هو الأساسيات، بعد كدة جدته قررت تطلعه ويعيش معاها، تحت إشراف مننا. للأسف بعد فترة اتوفت واختفى هو ومعرفناش عنه أى حاجة من ساعتها.

غير من مدة بسيطة، هو اللي جه بنفسه، عرفنا منه اللي حصل معاكِ، وانه خف وبعدين راح الشاليه وافتكر كل حاجة، بعد كدة دخل في إغماءة، ولأنه مش قادر يتقبل الحقيقة ويعيش معاها عمل لنفسه reset مرة تانية، يعني تقدري تقولي فرمت عقله من أول من جديد وصحي بالحالة اللي هاتشوفيه عليها دلوقتي. عايش تقريبًا رجع طفل عنده ٣ شهور..

أطرق برأسي باكيةً، لا أصدق ما سمعته للتو، أحاول السيطرة على دموعي التي فرت هاربة من عينيَّ.

- أنا آسف، بس هي دي الحقيقة.
- طب ممكن أشوفه؟ أكلمه؟
- أكيد.. بس أشك إنه ممكن يتكلم تاني أو يتفاعل معاكِ، عايش محتاج شهور ويمكن سنين عشان يرجع لطبيعته تاني، ويمكن مايرجعش المرة دي أبدًا.
- معلش.. أحاول.

●●●

لم يكذب الطبيب حينما قال أن عايش قد صار طفلاً يبلغ من العمر ثلاثة أشهر..

أدخل غرفته وأراه ممددًا على جانبه الأيمن، متكورًا على نفسه، ركبتاه ملتصقتان بصدره في وضعية الجنين، يضع إبهامه الأيسر في فمه. وما أن شعر بي حتى نظر حوله مضطربًا، تتحرك عيناه في سرعة وكأنه يري عالمًا آخر غير عالمنا هذا. اقتربت منه أكثر، وجلست في حذر على طرف فراشه فجفل متراجعًا إلى الخلف في ذعر، مرتعدًا خبأ وجهه خلف يديه وكأنني على وشك ضربه، مددت له يدي قائلة:

obeikandi.com

- عايش، ما تخافش.. أنا..

لم أستطع إكمال جملتي وأنا أراه يشيح بوجهه بعيدًا عني، لا يريد أن تلتقي عيوننا..

حاولت من جديد قائلة:

- عايش، انت مش فاكرني؟

ما ان قلت جملتي حتى نظر إليَّ مواربة بطرف عينيه، وكأنه يرى شبحًا. أغلق عينيه وكأنه لا يصدق أو لا يريد أن يصدق ما يراه، أنزل يديه كاشفًا وجهه بالكامل، ثم نظر إلى شيء ما ورائي، مبدلاً النظر ما بين ذلك الشيء وبيني محاولاً تحريك رأسه ليرى ما يكمن خلفي.

نظرت ورائي ببطء لأرى ما ينظر إليه فوجدت عشرات النسخ من وجهي، وأنا متبسمة، وأنا عابسة، وأنا غاضبة، وأنا في كل حالاتي..

أدرت رأسي ناحيته من جديد لأجده قد اقترب مني كثيرًا فجفلت للحظة ثم اقتربت أنا منه.

براحتي يديه أخذ يتلمس وجهي برقة.. أرى الطبيب ومن معه يتحفزون للدخول من خلف الباب..

obeikandl.com

أشير لهم بيدي من خلف عايش كي يهدأوا. عينا عايش تتفحصني وكأنه كائن من كوكب آخر يحاول أن يدرسني. أمسك بدبوس شعري الخشبي الذي يحفظه معقوصًا ثم أزاله، حطمه إلى قطعتين وألقي بهما أرضًا.. نفس ما فعله في الاستاد في لقائنا الثاني.

تخللت شعري أصابعه ثم راح يفرده فوق كتفيَّ بهدوء، ثم نظر خلفي ناحية الحائط من جديد مبدلاً النظر بيني وبين نسخي الحائطية، وكأنه يرسمني، ينحتني تمثالاً بين يديه، يحيلني إلى هايا القديمة التي عهدها بشعرها المنسدل على كتفيها. نظر إليَّ نظرة مطولة فاتحًا عينيه على اتساعهما، أحاط وجهي بكلتا كفيه وفتح شفتيه ببطء ونطق هامسًا:

- هايا.. .

قالها بصوت أشبه بالفحيح، وكأنه لم يتكلم منذ عشرة آلاف سنة فرددت عليه باكية وأنا أمسك بكفيه أقبلهما:

- أيوة هايا.. هايا يا عايش.. أنا..

لم يجعلني أكمل جملتي، احتضنني بقوة معتصرًا ضلوعي وأنا أسمعه ينطلق في نشيج محموم غير منتظم، يزلزلني باهتزازات جسده المضطربة فجعًا لفقدي، وفرحًا لعودتي إليه.

ثم تحول النشيج إلى ما يشبه الصراخ المتقطع، فاحتضنته أنا بقوة مطمئنة إياه، هامسة في أذنه:

- ما تخافش، أنا هنا.. أنا مش هاسيبك تاني.. أنا آسفة..

قلتها محتضنة إياه أكثر وأنا أهتز مهدئة إياه كطفل رضيع..

●●●

ستة عشر أسبوعًا هو كل ما احتاجه عايش ليعد إلى طبيعته، أي ما يوازي أربعة أشهر تقريبًا حتى تعافى كليًا وخرج من المصحة..

بعد أسبوعين تم نقله إلى غرفة أخرى، حينما بدأ يتكلم بشكل طبيعي ويتذكر الأشياء الغريزية، أربعة أسابيع احتاجها كي يتذكر الأشياء المهمة والأساسية، يطلق عليها «الأساسيات» كما أخبرني، ستة حتى يبتسم، اثنا عشر كي تندمل جراح وندبات روحه القديمة، ثم ستة عشر أسبوعا كي يعود عايش الذي عهدته من قبل..

قضيت تلك الشهور الأربعة تقريبًا معه، أذهب إليه في الصباح الباكر، نتناول الإفطار سويًا، نتحدث، نرسم، نشاهد أفلامًا، نسمع الموسيقى، نقرأ كتبًا، نشاهد صورنا التي التقطناها سويًا ونتذكر أيامنا معًا، نصنع مقالبًا في الأطباء والممرضات، لم نكف أبدًا عن

صنع المشاكل حتى في المشفى، نقضي اليوم سويًا وأغادر عند منتصف الليل، كاسرة قوانين المشفى ضاربة بها عرض الحائط، استثناءً من أجل حالة عايش.

أحيانًا كنت أصطحبه في جولات معي بالسيارة بصحبة ممرضين تحسبًا لأي شيء قد يفعله، نذهب إلى أماكننا المفضلة، نفعل أشياءنا المجنونة كعادتنا..

في النهاية أصبح عايش طبيعيًا تمامًا، محى عقله ما حدث له في الماضي مصابًا بذاكرة السبع دقائق مرة أخرى.

●●●

obeikandl.com

الفصل الثلاثون – وسقطت النجوم

Chapter Thirty – And Stars Fell

اليوم هو يوم زفافنا، وبرغم اعتراضات عائلتي وعدم مباركتهم لتلك الزيجة، إلا أنني صممت على إتمام ما عزمت عليه، يقولون أنني جننت كي أربط مصيري بشخص مختل عقليًا، نزيل مصحات نفسية. يقولون أن لوثة ما أصابت عقلي كي أعيش مع شخص لا يستطيع إكمال سبع دقائق من حياته بدوني، وهل هناك امرأة في الدنيا لا تتمنى ذلك؟

وإمعانًا في الجنون قررنا أن نذهب إلى قرية الجونة بالغردقة، متممين زفافنا من دون عائلتي، ومن دون أى مدعوين أو زوار، فقط أنا، هو، المأذون والشهود.

اليوم هو يوم زفافنا وأنا كأية عروس، الكثير من المشاعر المتضادة بداخلي يحتد الصراع بينها.. أفكر في حياتنا القادمة معًا، كيف ستكون، كيف ستمضي بنا، هل هو القرار الأصوب؟ أم أنني فعلاً قد جننت؟ هاها.. أضحك.. و من قال أنني كنت يومًا ما عاقلة؟

o pelkan.com

في مكتب المأذون نجلس جنبًا إلى جنب في انتظار المراسم الرسمية للزواج، أميل هامسة في أذن عايش:

- فاكر متولي.

أقولها مذكرة عايش بحفل الزواج الذي خربناه فيبتسم عايش تلقائيًا محاولاً ألا يذهب في نوبة من الضحك قائلاً بصوت هش:

- اعقلي..

الآن تمت المراسم الرسمية للزواج، يلتقط المأذون المنديل من فوق يدينا ويبارك لنا..

أما عايش فمازالت يده ترتجف ممسكة بيدي في رقة، وعيناه معلقتان بعينيَّ..

ينهض مقتربًا مني، يغمض عينيه ويقبل جبهتي ثم ينحني راكعًا مقبلاً يدي التي مازال ممسكًا بها، يحتضنني أخيرًا وأشعر به يبكي، لم أعرف أحدًا من قبل تتدفق كل تلك المشاعر بداخله كالفيضان.

- يلا بينا، محضرلك مفاجأة..

يقولها ماسحًا دموعه بظهر يده ثم يسحبني في رقة وراءه، يتحول سيرنا إلى شبه ركض حتى نغادر المكتب والبناية بأكملها

ونصل إلى السيارة. فجأة يتوقف عايش إلى جانب الطريق، يخرج منديلاً أبيضًا، لابد أنه منديل زفافنا، يضعه على عينيَّ ثم يربطه حول رأسي في رقة.

- أنت هاتخطفني ولا إيه؟

أقولها ضاحكة غير مستوعبة ما يفعله.

- حاجة زي كدة.

يقبل يدي مجددًا ثم أسمعه يدير محرك السيارة لنتحرك من جديد، بعد عدة دقائق أشعر بالسيارة تتوقف مطفئًا عايش محركها.

أسمع بابه ينفتح.. .ينغلق.. لحظة، اثنتان، ثلاث.. ينفتح بابي، يمسك عايش بيدي اليمني مساعدًا إياي على النزول، يمسك بيدي اليسرى هي الأخرى حتى أخرج تمامًا من السيارة، ثم يغلق الباب، وفجأة.. يحملني.. .أضحك خجلاً.. تحاول يدي الوصول تلقائيًا إلى العصابة البيضاء.

- وبعدين!؟

يقولها عايش مدغدعًا إياي فأقهقه معتذرة:

- أنا آسفة أنا آسفة.

obeikandi.com

معصوبة العينين، محمولة بين يديه كطفلة صغيرة، لا أعرف إلى أين نذهب، يسير بي لدقيقة ثم أشعر به يصعد درجة، ثم درجة أخرى.

ينزلني مساعدًا إياى على الوقوف قائلاً:

- اوعي تتحركي..

- حاضر.

أقولها كطفلة تتلقى أوامرها من أبيها، ثم أسمع شيئًا ما كالحفيف، أشعر بالاهتزاز، يقف هو ورائي ممسكًا بي، مساعدًا إياى على الثبات، أشعر أننا نرتفع.

- احنا في أسانسير؟

- أسانسير إيه يا عبيطة.

- أمال احنا فين؟

بدون إجابة يحتضنني من الخلف، تتسلل إلى أذنيَّ نغمات أغنية أعرفها بدأت لتوها في اللعب، إنها أغنية Stars Fell On Alabama، بصوت Daniela Andrade وHanbyul Kang.

الصوت يحيط بنا من كل جانب، وقبل أن تبدأ دانييلا في الغناء بلحظة، يقترب مني عايش محتضنني من الخلف، يهمس وهو يزيل العصابة:

- احنا مع النجوم.

أفتح عينيَّ لأجد السماء تحيطنا من كل جانب، السماء فقط، ولا شيء حولنا غير النجوم.

أحتاج عدة لحظات لأستوعب أين نحن، أنظر حولي بعينين متسعتين إلى أن أدرك أننا نعلوا عن الأرض آلاف الأقدام، نطفو بين السحاب، في منطاد كبير.

دامعة العينين أضحك، وأضحك وأضحك، ثم أستدير ناظرة إليه في شغف، أحتضنه بقوة دافنة رأسي في صدره، فاجئني هو هذه المرة، التقط مني عدوى الجنون ثم أصابني بها مرة ثانية.

- بتعيطي ليه دلوقتي طيب؟ مش كان نفسك تطولي السحاب؟

أتذكر أمنيتي الثانية التي دونتها ليلة كنا في تلك الجزيرة سويًا، أقبله بقوة وبلا أي اتفاق مسبق، يهتز جسدانا سويًا مع الأغنية التي تلعب من السماعات المثبتة حولنا في أركان المنطاد. أدفن رأسي في صدره ونتمايل يمينًا ويسارًا في هدوء، وكأننا فعلاً نرقص فوق السحاب، نخشي أن تهدم أقدامنا أجسادها الهشة كغزل البنات.

- احنا في حلم؟

أقولها وأنا ألمس خده براحة يدي ناظرة إليه مجدداً.

محيطًا وجهي بكفيه في رقة يهز رأسه ثم يرد من دون تردد:

- إنتِ الحلم.

●●●

obeikandl.com

الفصل الحادي والثلاثون – حلم عايش

Chapter Thirty One – Ayesh's Dream

بعد ثلاثة أشهر من الحياة معه، أتأكد تمامًا أن زواجي به كان القرار الأصوب من دون شك.

وما يسعدني أكثر أن تعود المياه إلى مجاريها بيني وبين أهلي، بعد أن تأكدوا تمامًا أن حياتي الآن تسير إلى الأفضل.

أجلس أنا وعايش على الأريكة نشاهد التلفاز في صالة شقتنا الصغيرة، يرن جرس الباب فينهض عايش قائلاً:

- استني، هفتح أنا.

على الباب يقف مندوب شركة توصيل طرود، يسلم عايش طردًا ثم يغادر. يغلق عايش الباب قادمًا نحوي وهو يقلب الهدية بين يديه في فضول:

- الطرد جاي باسمك.

- يا سلام، جاي لي؟

أقولها بمكر.

- جاي باسمك، مبعوث منك.

obeikandl.com

- طب افتح افتح اما أشوف باعتالي إيه البت دي.

ينظر لي عايش بطريقة تعني « والنبي ياختي؟ »، يجلس بجانبي، يفتح الطرد فيجد علبة محاطة بغلاف للهدايا، يفضه، يمزقه تمامًا ويضعه جانبًا، يري العلبة بداخل الغلاف، وتتسع ابتسامته قائلاً:

- عاملة لي مقلب ها؟ قنبلة هاتفرقع في وشي؟ حطالي صرصار؟

يرمقني بنظرة أخيرة قبل أن يفتح العلبة والابتسامة مازالت تعلو وجهه، يفتح العلبة بحذر شديد ثم تبدأ الابتسامة في التبدد ليحل محلها شيء آخر.. المفاجأة.

مكونات المفاجأة:

فم فاغر، عينان متسعتان عن آخرهما، احمرار في الوجه، رعشة باليدين.

ينظر لي بعينين توشكان على الفيضان فأقترب منه قائلاً:

- إيه رأيك في الهدية؟

ينظر هو كطفل صغير إلى العلبة بين يديه التي تحمل داخلها فاحص حمل تشير شاشته إلى إيجابية الاختبار.

obeikandi.com

- دي مش هدية، دة حلم.

تخرج كلماته مصحوبة بالفيضانات التي تصب من عينيه ثم ينهض من مقتربًا مني قائلاً:

- حلم!.. .لو ولد أو بنت نسميه حلم.

أومىء له وعيناى تحاكي فيضانات عينيه، ثم أحتضنه وكأنني أحتضنه لأول مرة في حياتي.

●●●

أتذكر ذلك اليوم، يوم وصولها..

أتذكرهم حولي، الكل قلِق، يروحون جيئة وذِهابًا، ينتظرون في خوف، بنظرات تائهة وعيون زائغة، وأنا وحدي من ينتظر في شغف وحبور واطمئنان، رغم ما كنت مقبلةَ عليه من مصاعب وآلام..

والآن وقد وصلت آمنة بين يديَّ، بعد كل تلك الأشهر وتلك المعاناه، وأنا أنتظر يومًا بعد يوم، شهرًا تلو الآخر، خفقان قلبي ودقاته المتسارعة، اضطراب مشاعري الوليدة الخارجة لتوها من السوليفان فرحةً بقدومها، أحاسيس قلبي الطازجة التي لم أتذوقها من قبل..

عايش يقف بجانبي، يلمس يدها الصغيرة بيده، يربت على رأسي، يقبلني، ويقبلها، ثم يحتضننا سويًا ويبكي بهدوء.

بعد ذلك أخبرني أنهم سألوه عن اسمها لملء شهادة ميلادها فأجابهم: حلم عايش.

●●●

الآن أصبح عمر حلم شهران، يقول عايش إنها نسخة مني، حسنًا أعترف أنها تحمل ملامحي إلى حدٍ كبير، شعري الأسود، عيناي الخضراوان، طابع الحسن. ولكنها تملك حاجبيه، يتضايق عايش كثيرًا حينما أقول ذلك.

ملحوظة: اكتشفنا أن عايش يتذكر كل شيء بوجود حلم أيضًا!

شيء غريب، وكأن القدر يرسل إليه بديلاً عني..

●●●

تكبر حلم، ونكبر معها، يصير عايش أكثر جنونًا وأصبح أنا أكثر تعقلاً، وكأن كل منا أصاب الآخر بعدواه ثم أعلن توبته. يقرر عايش أن يعوض ما فاته ويكمل دراسته الثانوية ثم الجامعية، يتطور مستواه الكتابي، وينتقل من كتابة القصص القصيرة إلى الروايات الطويلة، يساعده في ذلك بقائي معه وهو يكتب. نائمة

obeikandl.com

بجانبه في السرير، ممددة على الأريكة بمكتبه، أو جالسة بجانبه في الشرفة. انتهىَ مؤخرًا من كتابة أول رواية طويلة له باسم «إنها تمطر في يونيو» وأرسلها إلى إحدى دور النشر الراقية.

بت أشعر مؤخرًا بآلام غريبة تجتاح رأسي، أرفض محاولات عايش المستمرة من أجل إقناعي بالذهاب إلى أحد الأطباء، أحاول ألا أشغل بالي بذلك الأمر وأقرر أن أتعلم اللغة الروسية وأن آخذ دروسًا في البيانو بجانب تربية حلم والعناية بها.

نبيع بيتنا الصغير وننتقل إلى بيت صيفي بالمعمورة يطل على البحر، يحتوي على حديقة صغيرة، يحيطها سياج خشبي قصير تتسلقه شجيرات اللبلاب. ملأنا الحديقة أيضًا بالفل والياسمين وبعض الزهور والنباتات الأخرى، وأرجوحة صغيرة لحلم.

اليوم تصل رسالة الكترونية من دار النشر تبلغنا بموافقتهم على تولي نشر وتوزيع رواية عايش، ونقرر أن نحتفل سويًا.

●●●

openkanadl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني والثلاثون – نجمة سوداء

Chapter Thirty Two – Black Star

اليـوم نحتفـل بعيـد ميـلاد حلـم السـادس، في حديقـة منزلنـا، تجلس هـي علـى أحـد المقاعـد تنظـر في جـذل إلى كعكة عيـد ميلادها الموضـوع علـى الطاولـة أمامهـا، تنتصـب سـت شـمعات علـى سـطحها الإسـفنجي الغـارق في الشـيكولاتة، تمامًـا كمـا تحبهـا، يلتـف جميعنـا حولهـا، أنـا وعايـش، والدتـي، أخـي، بعضًـا مـن أقاربـي، وبضعـة مـن أصدقائهـا مـن المدرسـة، وحفنـة مـن أصدقـاء عايـش، عايـش أصبـح كاتبًـا شـهيرًا الآن، لـه ثـلاث روايـات بالسـوق وبضعـه قصـص قصيـرة.

نغنـي «happy birthday to you» ونكررهـا ثـم نترجمهـا «سـنة حلوة يا جميـل»، أشير لحلم بإطفاء الشـمع، تنهض مسـتعدة وكأنها علـى وشـك العـراك مـع الكعكـة، تسـتل نفسًـا عميقًـا ثـم هـوووووف رقيقـة تخـرج مـن بـين شـفتيها، تطفـئ الشـمعات السـت فنصفـق لهـا، يحملهـا عايـش ليقبلهـا، يحتضنهـا ثـم يناولهـا هديـة مغلفـة، يناولهـا لـي فأفعـل مثـل مـا فعـل، ثـم يتنـاوب الجميـع علـى تقبيلهـا وإعطائهـا الهدايـا. يقـوم عايـش بتشـغيل موسـيقى تصـدح نغماتهـا في أنحـاء الحديقـة.

obeikandl.com

آلام غريبة تجتاح رأسي، رؤيتي تتشوش، المشاهد تتداخل أمامي، صوت الموسيقى يصل إليَّ مكتومًا، أشعر بدوار مفاجيء، أغمض عينيَّ ممسكة بجبيني وأجلس على أحد المقاعد.

يد تربت على ظهري، عايش، يقترب مني هامسًا:

- مالك؟

- مش عارفة، دايخة ومصدعة قوي.

- طيب ادخلي ريحي أنتِ، وخدي مسكن.

- طب والحفلة؟

- ملكيش دعوة، أنا هظبط كل حاجة.

- يا عايش بس..

أحاول إخباره أن بغيابي سيصير في مأزق، يفهمني دون أن أكمل فيتبسم قائلاً:

- حلم موجودة.

أنهض ساندة عليه نتجه إلى الداخل، يجلسني على الأريكة، يختفي لدقيقة عائدًا بكوب ماء وشريط من الحبات المسكنة.

- خدي دي وريحي خالص ما تتحركيش من مكانك، وبكرة هانروح لدكتور ومفيش لأ يا هايا!

وكذلك نفعل.. .

«نمو غير معتاد للخلايا الدماغية، باختصار: ورم في المخ.»

كان هذا التشخيص المبدئي لحالتي، تم ذلك بعد الكثير من الفحوصات والتحاليل والاختبارات التي قمنا بها.

لم يكن بمقدور الأيام أن تمنحنا السعادة أكثر من ذلك، وكأن مخزونها قد نضب، جف بئرها ليتركنا في صحراء شاسعة من الكآبة والأسى.

حاول أن يستقبل عايش الأمر بشكل هادئ حينما تم إخبارنا بالتشخيص، بكى ناظرًا لي في صمت، ثم نهض مقبلاً جبهتي ثم أخبرني أننا سنذهب إلى طبيب آخر، وكذلك فعلنا.

ولم نحصل على نتائج أفضل من سابقتها بالطبع، وبدأنا رحلة العلاج الشاقة والمتعبة.

في البداية جربنا العلاج الكيميائي، لعدة أسابيع كنا نذهب من أجل جرعتي الأسبوعية، مررت بالكثير من التعب والإرهاق، الكثير والكثير من القيء، آلام تجتاح جسدي بأكمله، شعري الذي بدأ في الاختفاء، دوار وهذيان كان يتحول أحيانًا إلى فترات طويلة من الغياب عن الوعي، حتى حينما كنت أستفيق لم يكن لديَّ القدرة على فعل أي شيء حتى الكلام، ولا ننسى بالطبع تقلباتي المزاجية التي أحالتني إلى شخصية غضوبة متأففة من كل شيء، وبرغم ذلك لم ينفر عايش مني لحظة واحدة.

obeikandl.com

حينما فشل العلاج الكيميائي أن يؤدي عمله قرر الأطباء أن نجرب العلاج الإشعاعي، لم تختلف أعراضه كثيرًا عن أعراض زميله، الكثير من التعب والإرهاق، جفاف بشرتي وتقشرها، الحروق التي اجتاحتها، وغيرها من الأشياء التي أحالتني إلى خرقة بالية في النهاية.

جربنا كل شيء، وفي كل مرة كانت النتائج تأتي أسوأ من ذي قبل، وبذلك لم يتبق لنا إلا حل أخير.. الجراحة. ليست تلك هي المشكلة، المشكلة أن نسبة احتمال شفائي هي نفسها نسبة احتمال وفاتي إثر العملية.

●●●

obeikandl.com

الفصل الثالث والثلاثون – عشر سنوات

Chapter Thirty Three – Ten Years

كنا قد رتبنا كل شيء استعداداً لإجراء العملية الجراحية المقررة، حينما طلبت من عايش أن نذهب في رحلة أخيرة سوياً إلى أية بقعة، فقط أريد الهروب معه كالأيام الخوالي.

سألته أن نذهب إلى الصحراء البيضاء بالواحات البحرية وفي البداية قوبلت بالرفض الشديد منه لسببين، أولهما كرهه لتلك الجملة: رحلة أخيرة. وثانيهما رفضه متعللاً بتعبي وإنهاكي الشديدين وعدم قدرتي على أداء تلك الرحلة الشاقة، وبعد ضغوطات شديدة مني وافق في النهاية.

بعد حزم أمتعتنا وتجهيز سيارتنا الجيب وملئها بالوقود والعتاد اللازم للرحلة من ملبس وغذاء وشراب، قررنا أن نترك حلم عند جومانا صديقتي لثلاثة أيام هي وقت الرحلة المقرر، ومن ثم مضينا.

●●●

مستخدمين نفس الخريطة التي استخدمناها في رحلتنا الأولى، نصل إلى وجهتنا المنشودة بعد ٥٢٦ كيلومتراً قطعناها في

obeikandl.com

تسع ساعات. أصر عايش أن أقضي معظمها ممددةً على المقعد الخلفي للسيارة، يحادثني هو خلالها عن طريق المرآة الأمامية.

نمر بمساحات واسعة من الصحاري، الوديان والجبال، التي تتناثر على جانبيِّ الطريق المعبدة التي نتركها في النهاية متجهين داخل الصحراء، كيلومترات رملية وعرة نجتازها حتى نصل أخيراً بعد غروب الشمس بقليل..

المشهد أمامنا لا يمكن وصفه بأية كلمات، حتى لو قمت بجمع كل الشعراء والكتاب من أجل ذلك الغرض. الرمال البيضاء الممتدة أمامنا، الصخور التي تزينها كفطر حجري ضخم يتناثر فوقها كقطع شطرنج في لعبة أوشكت على الانتهاء، التكوينات النجمية في السماء التي تشعرني وكأننا في أحد أفلام الخيال العلمي، ليل وفضة وغبار أزرق.

ينصب عايش لنا خيمة زرقاء كبيرة تتسع لكلينا، ويرضخ تحت إصراري أن أصنع أنا الموقد الناري الذي تعلمته منه على مر السنين. نجلس متلاصقين خارج خيمتنا نفترش الرمال أمام الموقد، نتشارك غطاءً صوفيًا ثقيلاً ونقتسم المشهد مع نصف قمر وحفنة من النجوم وصوت Kina Grannis تغني Love Write it in the Sky.

واليوم نحتفل بالذكرى العاشرة للقائنا أول مرة، والعجيب في الأمر أن عايش هو من يتذكر ذلك اليوم بتاريخه، بكافة تفاصيله وأحداثه لحظة بلحظة، كلماتنا، نظراتنا، شتائمي له، واعتذاراته لي.. حتى ألوان ملابسنا التي ارتديناها ذلك اليوم يتذكرها، لم يكذب حينما قال إنه بوجودي معه يتشرب تفاصيل العالم من حوله.

في تلك السنوات العشر، عشنا الكثير من الأشياء سويًا، منها الحلو ومنها المر، أكذب إن قلت إن حياتنا كانت دومًا جميلة، فقد حظينا بالكثير من المشاكل، مشاكل ضخمة وقوية، تستطيع هدم أي بناء، إحالته إلى فتات صغيرة، وتسويته بالأرض بضربة واحدة، ولكن أمام ذلك الحب الكبير بيننا كانت تركع ذليلة تحت أقدامنا، تجثوا خاشعة، كانت هي دائمًا التي تنهار أمامنا.

وكأن حياتنا كانت أشبه برحلة في طريق وعرة غير ممهدة، ولكن حبنا كان كسيارة مجهزة استقليناها سويًا لخوض غمار تلك الطريق، تمامًا كما فعلنا الليلة من أجل الوصول إلى هنا، إلى تلك اللحظة التي نعيشها الآن. يمسك عايش بكفي بين كفيه قائلاً:

- زي النهاردة من عشر سنين، يوم ٢٩ أغسطس اتقابلنا أول مرة، وقعت قدامك وساعدتيني أقوم من تاني، ومن ساعتها وإنتِ ساندانى.

- مين اللي ساند مين دلوقتي يا عايش؟ مين الضعيف فينا..

- حتى في أضعف حالاتك مقوياني يا هايا، أنا طول عمري كنت حاسس إني بجري في ماراثون ١٠٠ متر، وال ١٠٠ ألاقيهم ١٠٠٠ والألف ألاقيهم مية ألف، والماراثون مابيخلصش، عمال أجري وخط النهاية ما بيترسمش قدامي، وكأن اللي ماسك المسدس ضرب طلقة البداية وهرب، اختفى، واقف بيتفرج عليا من بعيد وبيضحك، ولما لقيتك مشوار الدنيا الطويل ده بقى له معنى، ماحتجتش أجري تاني، علشان وصلت خلاص، وصلت لك.

أرتمي باكية في صدره فيمشط شعري بأصابعه مكملاً:

- حاولت أدور لك على هدية تليق بيكِ، ملقتش أغلي من أمنية كان نفسك تحققيها زمان.

من تحت الغطاء يخرج كاميرا بولارويد عتيقة وردية اللون، أعرفها تمام المعرفة، إنها تلك الكاميرا التي كانت بحوزتي ليلة رحلتنا الأولى ثم ضاعت مع الحقيبة.

obeikandl.com

يعبث بأزرارها قليلاً فتبدأ أحد الفيديوهات في اللعب، تقف هايا التي تصغرني بعشر سنوات على مقعد السيارة الحمراء، مخرجة رأسها من نافذة السقف، تصنع بذراعيها جناحيِّ طائرة بشرية، ثم تبدأ في الغناء مع الأغنية التي تلعب Sky Full of Stars لفريق Coldplay، ومن داخل الفيديو أسمع صوت عايش يتمتم محاولاً غناء كلمات لم يعرفها أبدًا قبل تلك اللحظة.

يهمس عايش في أذني:

- فيديو كليب كولدبلاي اللي كان نفسك تطلعي فيه..

أبتسم بصوت متهدج فيقبلني عايش أسفل عيني ثم يحتضنني في قوة، أبكي لإدراكي أنه حقق لي أمنياتي الثلاث.

●●●

obeikandl.com

الفصل الرابع والثلاثون - حياة

Chapter Thirty Four - Hayah

نعود من رحلتنا قبل اليوم المقرر للعملية بيوم واحد، يقوم عايش بإدخالي المشفى ويبقى معي بالغرفة المحجوزة أنا بها استعدادًا للقيام بالعملية صبيحة اليوم التالي.

جالسًا على أحد المقاعد المجاورة لسريري يقرأ في أحد الكتب أقاطعه قائلة:

- مش هاتروح البيت بقى؟ هاتفضل قاعد جنبي هنا تعمل إيه بس..

ينظر لي من خلف الكتاب الذي يقرأ فيه ثم يبتسم قائلاً:

- ايك أنيبيموس أوبيت يمي.

أبتسم لا إراديًا قائلة:

- أخيرًا قلتها صح يا عايش..

ينهض واضعًا الكتاب على المقعد ثم يتجه مقتربًا مني، يمسك يديَّ قائلاً:

- إن شاء الله بعد ما تخرجي من هنا، عايزين نسافر ونلف العا..

أقاطعه:

- عايش.. مش عايزاك تحط أمل كبير على الموضوع ده، بكرة ممكن أعيش، وممكن أمو.. .

يقاطعني:

- لا يا هايا! إياكِ! ما تقوليش الكلمة دي أبدًا!

- دي مش مجرد كلمة يا عايش، ده احتمال نسبته ٥٠٪.

- حتى لو ١٠٠٪ ما تقوليهاش.

- كل الحاجات في الدنيا لازم تغيب، مفيش حاجة بتفضل للأبد.

- إنتِ غبتِ مرة واتنين، مقدرش على التالتة يا هايا.. قوليلي أواجه الحياه إزاي من غيرك؟ إزاي يا هايا؟

- ماتواجهاش، امشي واديها ضهرك.. .كل الحاجات الحلوة بتيجي.. لما بنديها ضهرنا..

أستخدم جمله الخاصة ضده، دائمًا ما كنت أفعل ذلك معه.

يطرق برأسه مغمضًا عينيه، تتساقط دموعه في صمت، يقبل يدي متشبثًا بها بقوة وهو ينظر في عينيَّ هامسًا:

obeikandi.com

- عشان خاطري، اتمسكي بالحياة جواكِ، إنتِ مش عارفة إنتِ إيه في حياتي..

أنا كنت قاعد على دكة احتياط الحياة، مستني دوري، لا الماتش راضي يخلص، ولا دوري راضي ييجي وأنا قاعد بتفرج! مجرد شخص على هامش الدنيا، مش محسوب حتى كلمة من الصفحة، شخص بلا إنجازات، صفر على الشمال.. و كل اللي عملته مراكب ورق بتغرق أول ما بتلمس المية.

وجيتِ إنتِ ونقلتيني من الهامش تحت للصفحة فوق، بقيت معاكِ جملة مفيدة، كنتِ إنتِ الرقم اللي اتنقلت جنبه صفر على اليمين، نجيتِ المراكب الغرقانة، عشان خاطري يا هايا.

تدمع عيناي ناظرة له بلا رد فيرتجف صوته قائلاً:

- طب بلاش عشان خاطري، عشان خاطر حلم.

- عايش..

ينظر لي دون أن يرمش، تضطرب عينيه محاولاً ألا يبكي فأكمل:

- خلي بالك من نفسك ومن حلم.

●●●

صبيحة اليوم التالي تدخل الممرضات لتحضيري من أجل القيام بالعملية، أطلب منهن ألا يوقظن عايش من نومه، أخرج من الغرفة مستندة عليهن في صمت تام حتى نصل إلى غرفة أخرى لتجهيزي قبل أن أدخل غرفة العمليات.

بعد نصف ساعة أكون قد أصبحت مستعدة من أجل القيام بالعملية، ألبس ذلك الرداء السماوي الخاص بالعمليات، بعد أن تم تركيب محقن وريدي بذراعي وحلاقة شعري بالكامل حتى أصبحت صلعاءً تمامًا. والآن أتمدد أنا على سرير متحرك يتم دفعه باتجاه غرفة العمليات.

أقترب كثيرًا من الغرفة المنشودة، مصوبة عينيّ إلى السقف، تتوالى أمامي صناديق الإنارة النيونية المثبتة به، كما تتوالي مشاهد من طفولتي ومراهقتي أمام عينيَّ، حتى تأتي مشاهد من حياتي بصحبة عايش، أتذكر رحلتنا الأولى سويًا، سقوطه المريع في الملاهي، أبتسم دامعة، جزيرة نيلسون والقُبلة الضائعة، انقلاب القارب وعبثنا بالمياه سويًا، هروبنا والنعامة من واحة عمر، المعركة الطاحنة التي ضُرب فيها بسببي، أبتسم ضاحكة، الفندق وما حدث به من أول شجار بيننا، أول قبلة عند الأوبرا، سرقة السيارة ورقصتنا الأولى تحت المطر، عودتنا على ظهر تلك الشاحنة.

ينفتح طرفا الباب أمامي وأعبر إلى غرفة العمليات، تحملني الممرضات إلى سرير العمليات، يتم حقني بالمخدر حينما أسمعه يضرب بيديه على نافذة الباب المستديرة في قنوط.. عايش.. لقد استيقظ متأخرًا.

ممرضان بالخارج يحاولان منعه من اقتحام الغرفة، بعينين ذاهلتين ينظر لي مادًا يديه متشبثًا بالهواء، يصرخ قائلاً اسمي.. .و لأول مرة أشعر بروعة اسمي الحقيقي الذي يخرج من بين شفتيه.. .حياة.

يبهت المشهد أمامي حتى يتلاشى تدريجيًا، تصير رؤيتي ضبابية، الخدر يحتل خلايا جسدي. بدأ المخدر في القيام بعمله، أبتسم ناظرة لعايش مرة أخيرة وأغمض عينيَّ.

●●●

oboeikandl.com

obeikandl.com

الخاتمة

Epilogue

ثقوب صغيرة في أرضية النعيم

يصل الباص المدرسي الخاص بحلم عائدًا من تلك الرحلة الميدانية التي قامت بها مدرستها اليوم، ينفتح الباب وأساعدها على النزول شاكرًا معلمتها..

تسير حلم بجانبي قابضة بيدها الصغيرة على يدي حتى نصل إلى السور المواجه للشاطيء فنجلس نحن الاثنان في بقعة حياة المفضلة..

الأمواج تتدافع بهدوء، النجوم بدأت في الظهور مزينة الفضاء حول القمر الذي يلمع في الأفق على استحياء كهلال ضئيل.

مستمعاً على هاتفي إلى أغنية I Found لفريق Amber Run أنظر إلى السماء و أفكر..دائمًا ما كنت أخبرها بأنها تنتمي إلى السماء، نجمة براقة، ثقب صغير من عدة ثقوب صغيرة في أرضية النعيم، وما نورها إلا جزء من ذلك النعيم الذي ينكشف لنا من خلالها، تشبيه سمعته في أحد الأفلام أعتقد أنه يليق بها.

كانت حياة هديتي من السماء، كنت أظنها سقطت بالخطأ، ولكنني كنت مخطئًا، هي هوت إلى كوكبي عمدًا، لتجعله مكانًا أفضل، لتضيئ لي عالمي الصغير الموحش.

لم نكن كوكبان تلاقت مداراتهما فاصطدما، بل كانت هي الشمس التي أدور أنا ككوكب حولها، وتنير أرضي وسمائي، وتهب لكل الكائنات في خلاياي الحياة.

اعتدت قبلها أن أختبر الجحيم كل سبع دقائق تمر، وبعد أن جاءت صرت أحظى بكل سبع دقائقٍ من الجنة.

محظوظ أنا لأنني وجدتها، لأنني حصلت عليها، لأنها جعلتني أختبر النعيم على وجه الأرض، لا يحظى الكثير من الناس بذلك.

لا تدري هي أنها حققت لي أمنياتي الثلاث، ملكت العالم بأكمله للأبد وليس لدقيقة واحدة بوجودها.

وعشت حياة شخص آخر أسعد مني لسنوات عدة وليس ليوم واحد، أما بخصوص أمنيتي الثالثة فقد تحقق ما هو أروع منها، تقبيلي لحياة.

خلال رحلتي معها ظللت أبحث عن وجهة أبلغها، لأكتشف في النهاية أنها هي وجهتي المنشودة.

obeikandi.com

تؤرجح حلم ساقيها بإيقاع رتيب ثم تنظر لي قائلة:

- بابا هي ماما هاترجع امتى؟

أبتسم معيدًا خصلة هاربة من شعرها خلف أذنها، أنظر إلى البيت وراءنا، ألمح طيف حياة وهي تلوح لي بيدها من خلف إحدى النوافذ ثم تختفي، تتسع ابتسامتي أكثر..

رافعًا رأسي تتجه عينيَّ إلى السماء لتصل ابتساماتي إلى أقصاها، أرد على حلم قائلاً:

- رجعت خلاص.

●●●

تمت،

في الخميس ٢٢ أكتوبر ٢٠١٥ السابعة صباحاً

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

الصفحة

إهداء:..	٥
شكر خاص:....................................	٧
شكر إلى:......................................	٩
مقدمة:...	١١
الجزء الأول حياة عايش:.........................	١٣
الفصل الأول - إنها تمطر في يونيو:...............	١٥
الفصل الثاني- الكثير من المذكرات اللاصقة:........	٢٧
الفصل الثالث – بط بالبرتقال:.......................	٣٥
الفصل الرابع – نجوم مفقودة:.......................	٣٩
الفصل الخامس – أكلم القمر:.......................	٥١
الفصل السادس – الشيء الذي في المرآة:............	٥٥
الفصل السابع- تنويه:..............................	٥٩

obeikandl.com

الفصل الثامن – الكرنفال:.................. ٦١

الفصل التاسع – الرحلة:..................... ٨٥

الفصل العاشر – جنون:...................... ١٠١

الفصل الحادي عشر– قطعة من الجنة:............ ١٢٥

الفصل الثاني عشر – على الطريق:............... ١٦١

الفصل الثالث عشر – القاهرة الآن:............... ١٩٥

الفصل الرابع عشر – أميرة وملك:................ ٢١١

الفصل الخامس عشر – حلم:.................... ٢٣١

الفصل السادس عشر – مهمة مستحيلة:............ ٢٤٧

الفصل السابع عشر – سفينة ضائعة:.............. ٢٦٧

الفصل الثامن عشر – العودة:.................... ٢٧٣

الفصل التاسع عشر – الجنة الآن في قلبي.......... ٢٧٩

الفصل العشرون – إشارة مرور:.................. ٢٩١

الفصل الحادي والعشرون – تسعون يومًا :.......... ٢٩٥

obeikandi.com

الفصل الثاني والعشرون- إعدام:...................... ٣٠١

الفصل الثالث والعشرون – عودة إلى الوراء:......... ٣١٣

الفصل الرابع والعشرون – عم باسليوس:........... ٣٢٣

الفصل الخامس والعشرون - عيد:.................. ٣٢٩

الفصل السادس والعشرون - أتذكر:................ ٣٣٩

الفصل السابع والعشرون – المنزل:................. ٣٤٥

نهاية الجزء الأول:.................................. ٣٥٥

الجزء الثاني تحكيه حياة:............................ ٣٥٧

الفصل الثامن والعشرون – البطل:................. ٣٥٩

الفصل التاسع والعشرون - سبع دقائق:............. ٣٧٥

الفصل الثلاثون – وسقطت النجوم:................ ٣٨٣

الفصل الحادي والثلاثون – حلم عايش:............ ٣٨٩

الفصل الثاني والثلاثون – نجمة سوداء:............ ٣٩٥

obeikandi.com

الفصل الثالث والثلاثون – عشر سنوات:............ ٣٩٩
الفصل الرابع والثلاثون – حياة:...................... ٤٠٥
الخاتمة:.. ٤١١

obeikandl.com

صفحة الكاتب على الفيسبوك

https//:www.facebook.com/OmerKamalElDeenOfficial/

صفحة الكاتب على تويتر

https//:twitter.com/miroozy

صفحة الكاتب على انستجرام

https://www.instagram.com/miroozy/

صفحة الكاتب على جودريدز

https://www.goodreads.com/author/show/8127206._

الأعمال السابقة :

١- سكارلت (مجموعة قصصية) الطبعة الثانية.

٢- أروع واحدٍ وعشرين شيئاً في إيميليا (رواية) الطبعة الثانية.

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر

obeikandl.com